أيام في المدينة

أيام في المدينة

د. علي بن حمزة العُمري

رئيس جامعة مكة المكرمة المفتوحة

www.alomarey.net

Email:ali@4shbab.net

ص.ب: ٣٥٠٢٣ جدة: ٢١٤٨٨

مؤسسة طريق الأمة للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٠ هـ ـ ٢٠٠٩م

نشر وتوزيع

دار الأمة ـ الرياض

هاتف: ٩٦٦١٢٤٨١٧٠٥ + / ٩٦٦٢٦٨١٥٠٢٧ +

إهداء

إلى حبيب المدينة...

وحبيب ساكنها عليه الصلاة والسلام....

إلى الداعية الصامت ولكنه أبين ممن ينطق...

إلى التاجر الصدوق الذي جمع حوله الناس،

على حب الخير وفعل المعروف..

إلى السيد الشيخ:

محمد عبد الله هاشم

رمزاً للمحبة، وعرفاناً بالجميل.

أخوكم

علي

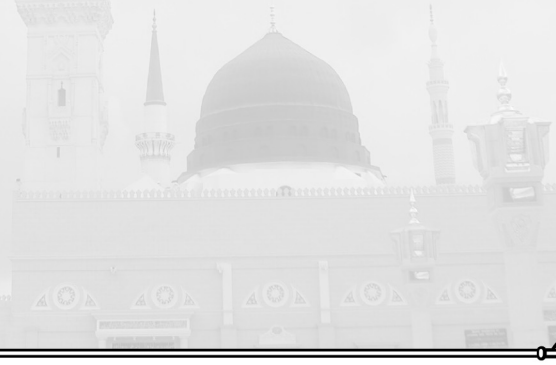

المقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام الأتمَّان الأكملان على المبعوثِ رحمةً للعالمين، وسيِّد ولد آدم أجمعين، نبيِّنا محمّد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد...

❖ هدفٌ وغاية

فهذا الموضوع مما أحتُسب فيه القربة على الله عز وجلّ بنشر سيرة نبيه الخاتم ﷺ. على أنني لم أتحدث عن السيرةِ بصفةٍ معروفة تستعرضُ الحوادثَ مسلسلةً تاريخياً، فذلك أمرٌ قد أكثر فيه القائلون القول، وإنّما أردتُ أن أتحدث عن السيرةِ من منطلقٍ آخر.

وكان الباعث على هذا الوجه من النظرِ أني تأملتُ في المجتمع المدنيّ النبويّ وما كان عليه من تمام الألفةِ وكمال الأخلاقِ وجمال التدينِ وعلو الهمةِ ووفور العزيمةِ فتساءلتُ: كيف استطاع النبي الكريم ﷺ أن ينشئ هذا المجتمع المثالي؟ وكيف تمكن من تحويل أشتاتٍ من الناسِ تستهلكهم الحروب إلى مثالٍ حيٍّ للمؤاخاةِ والتصافي؟ وكيف قدر على ترويضِ تلك النفوس التي كانت مستعبدةً للشهواتِ لتصبحَ مالكةً لأمرِها لا تخضع إلا لأمر الله؟!

والأعجب أن ذلك كله تمّ في عشر سنواتٍ فقط! هو عمر النبيّ ﷺ في المدينة!

كيف كان ذلك؟

وأي خطوات اتبعها هذا النبيّ المصلح الكريم لينتقلَ بصحبِهِ من الأرض إلى السماء؟ ومن الكدر إلى النقاء؟ ومن التشاحن إلى الصفاء؟

ووجدتُ أننا أحوج ما نكون للإجابة على هذه التساؤلاتِ ونحن نعيش في عصر كثرت فيه القلاقل والمحن، والخصومات والنزاعات، وكثر فيه التفلت من حدود الشرع، والتمرد على قوانينه.

هذه التساؤلات هي نواةُ هذا الموضوع، وغايةُ حلقاتِهِ الثلاثين أن تحاولَ رسمَ صورةٍ مقاربةٍ لهذه الخطوات الإصلاحية التي نشأ عنها المجتمعُ النبويّ المدنيّ في كافة الشؤون السياسية والاجتماعية، والاقتصادية والفنية، وفي كل ما يهم شؤون الناس، الرجال، والنساء، والشباب، والأطفال، والمحتاجين، والمسالمين، والمقاتلين، في منهج شمولي وصفي قصصي أمين. على أملِ أن يستفيدَ من ذلك الدعاة والمصلحون، والحكام والمسؤولون، ويستفيد الذين يريدون أن ينهَضوا بالأمّة.

❁ ❁ ❁

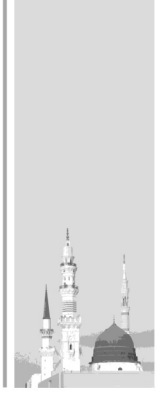

أضواء تاريخية وجغرافية

من الناحية الجغرافيّة تقع المدينةُ في المنطقة الغربية الشماليّة من الجزيرة العربية، وهي ذاتُ مناخٍ قاسٍ، تشتدُّ فيها الحرارة صيفاً حتى تقارب الخمسين، ويشتد فيها البردُ شتاءً حتى تكون حرارتها دونَ عشر درجاتٍ. وبردُ المدينةِ وإن لم يبلغِ (الصفر) إلا أنّ له خاصةً عجيبةً! فهو يتغلغل إلى العظامِ وتشعرُ به كأمثالِ الإبرِ تَخِزُكَ في كل ناحية!!

ومع هذا المناخ القاسي كانت المدينةُ مشهورةً بالحمى، فلا يكاد ينزل بها نازلٌ إلا أخذتْهُ فَنَهَكَتْهُ، ولما قدم الصحابة رضي الله عنهم إلى المدينةِ غلبتهم الحمى، فكان بعضهم يهذي، وبعضهم يصلي النافلة جالساً!

ولما أشفق النبيّ ﷺ على أصحابِهِ من الحمى دعا الله أن يصرفها عن المدينة إلى الجحفة، فخيَّر الله سبحانه وتعالى نبيَّه ﷺ بين الحمّى والطاعون، إمّا أن يبقى الطاعون في المدينة أو أن تبقى الحمّى، يقول النبي ﷺ: «**أتاني جبريلُ عليه السلام بالحمّى والطاعون، فأمسكتُ الحمّى بالمدينةِ، وأرسلتُ الطاعون إلى الشام، فالطاعون شهادةٌ لأمّتي ورحمة لهم، ورجسٌ على الكافرين**»[1]، فبقيت الحمى بالمدينةِ إلا أنّها خُففت كثيراً.

ولشدة مُناخ المدينةِ وتعبِ حُمّاها قال النبي ﷺ: «**من صَبر على**

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٨١)، والطبراني في الكبير (٢٢/ ٣٩١) من حديث أبي العسيب رضي الله عنه، قال الهيثمي في المجمع (٣/ ٤٥): «رجال أحمد ثقات»، وهو في السلسلة الصحيحة (٧٦١).

لأوائِها وشدّتها كنت له شهيداً ـ أو: شفيعاً ـ **يومَ القيامة**»[١].

ولعل الحكمة من بقاء أثر الحمّى في المدينةِ أنْ تكون كفّارةً لأهلها، ورحمةً بهم، فالمرضُ عندما يصيب الإنسان يكون تخفيفاً لذنوبه ورِفعةً لدرجاته وتكفيراً لسيِّئاته. وطروءُ المرض على الإنسان ما بين فترةٍ وأخرى هو رحمةٌ من الله جلَّ جلاله بعبدِهِ، إذْ يكونُ كالتمحيص والتنقيةِ له من أوزار المعاصي والسيئاتِ.

وقد صحَّ في الحديث أنَّ أعرابياً دخل على النبيِّ ﷺ في مسجده في المدينة، فقال له النبيّ ﷺ: «**هل أخذتك أمُّ مِلدَمٍ قطّ؟**» فقال الأعرابي: وما أمّ ملدَم؟ قال ﷺ: «**حرّ يكون بين الجلد واللّحم**»، فقال الأعرابيّ: ما وجدتُ هذا قطّ، قال: «**فهل أخذك هذا الصّداع قطّ؟**» قال: وما هذا الصُّداع؟ قال: «**عِرق يضرب على الإنسان في رأسه**»، قال الرجل: ما وجدت هذا قطّ، فلمّا ولّى قال النبي ﷺ: «**من أحبّ أن ينظر إلى رجل من أهل النّار فلينظُر إلى هذا**»[٢].

وفي هذا الحديث موضعانِ للنظرِ:

أولهما: ما فيه من وصفٍ نبويٍّ دقيقٍ للصداعِ، وأنه (عرقٌ يضربُ في الرأس)، وهذا تشخيصٌ طبيٌّ موفقٌ تجِدُ تحقيقَهُ في ميل الطب البديل إلى اعتمادِ (تدليك عروقِ الرأس) علاجاً للصداعِ.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الحج، باب: الترغيب في سكن المدينة والصبر على لأوائها (١٣٧٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٣٢، ٣٦٦)، والبخاري في الأدب المفرد (٤٩٥)، وأبو يعلى (٦٥٥٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه ابن حبان (٢٩١٦)، والحاكم (١٢٨٣)، وقال الهيثمي في المجمع (٣/ ١٦): «إسناده حسن»، وهو في صحيح الأدب المفرد (٣٨١).

وثانيهما: بيانُ علةِ قوله: (من أهل النار)، إذْ ليس معنى ذلك أنَّ كل من لم يمرضْ هو من أهل النارِ، وليس معناه أن الإسلام يدعو إلى المرضِ ويشجّعُ عليه! بل المرادُ أنَّ الأسقام والأمراض كفاراتٌ للذنوبِ، وممحصاتٌ للآثامِ، فمن ابتلي بها فصبر كان ذلك تطهيراً له ورفعةً لدرجتِهِ، ومن سلمَ منها فقد خسرَ من تكفير الذنبِ ما ربحه المبتلى بها. وقد صحَّ في الحديثِ عند البخاريّ أن النبيّ ﷺ دعا لسعدٍ في مرضه فقال: «**اللهم اشفِ سعداً**»[١]، وصحَّ عنه ﷺ أنه كان إذا عاد مريضاً قال: «**أذهب البأس ربَّ الناس، اشف وأنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاءً لا يغادرُ سقماً**»[٢]. وفي هذين الحديثين ـ كما قال الطبريّ ـ بيانُ «أن الرغبة إلى الله في عافية في الجسم أفضل للعبد وأصلح له من الرغبة إليه فى البلاء، وذلك أنه عليه السلام كان يدعو للمرضى بالشفاء من عللهم».

ولابن بطالٍ كلامٌ نفيس في الجمع بين هذه الأحاديث قال فيه: «فإذا كانت العلل والأوجاع إنما هي عقوبات على التبعاتِ ثبت أنَّ النبي عليه السلام إنما دعا بالشفاء من الأمراض لمن لا كبائر له، ومن سلم من الذنوب الموجبة للعقوبات، وبريء من مظالم العباد، وكره اختيار الصحة على البلاء في هذه الأحاديث الأُخر لأهل الإجرام ولمن اقترف على نفسه الآثام، فكره له أن يختار لنفسه لقاء ربه بإثمه وموافاته بإجرامه غير متطهر من الأدناس، فليس شيء من الأخبار خلاف لصاحبه».

أعودُ إلى المدينة تاريخياً وجغرافياً..

---

(١) رواه البخاري، باب: وضع اليد على المريض (٥٦٥٩)، ومسلم، باب: الوصية بالثلث (١٠٠٤) من حديث سعد بن أبي وقاص.

(٢) رواه البخاري، باب: دعاء العائد للمريض (٥٦٥٧)، ومسلم، باب: استحباب رقية المريض (٢١٩١) من حديث عائشة رضي الله عنها.

كانت المدينة تسمى قديماً (يثربَ)، على اسم رجلٍ من أحفاد نبي الله نوح عليه السلام كان هو أول من قطنها. وقد نهى النبيّ ﷺ عن تسميتها بيثرب، وسماها (طيبة) و(طابة) و(دار السلام) وغير ذلك من الأسماء النبوية المباركة.

وعلةُ النهيِ أنَّ (يثرب) من معانيها في اللغة التثريب وهو: العتاب، وقد كان من هديه ﷺ أن يغير كل اسمٍ قبيحٍ غير مرضيٍّ الدلالةِ إلى اسمٍ حسنٍ يبعث على السرور والتفاؤل.

وحين أجلى بختنصر اليهود، وطردهم من العراقِ، قدمتْ جماعاتٌ منهم إلى المدينة، وكان من أوائل القبائل اليهودية التي سكنت فيها: قبيلة بني قينقاع وبني النضير.

ثم قدمت إلى المدينة طوائف من أهل اليمن بعد أن خرب سدُّ مأرب الشهير، وعلى رأس هؤلاء: الأوسُ والخزرجُ.

وبهذا اجتمع في هذه المدينة المباركة أهل اليمن: (الأوس والخزرج)، واليهود: (بنو قينقاع وبنو النضير)، وقد كانت العلاقة بين اليهود وأهل اليمن متوترةً جداً. وذلك أن اليهود كانوا يشتغلون بالزراعةِ فلما وفد أهل اليمن عملوا أُجراء عندهم، حتى إذا استمرَّ مريرهم شرعوا في الاستقلال بمزارعهم وتجاراتهم، فتخوّف اليهودُ على وضعهم الاقتصاديّ، وخشوا المنافسة فبدؤوا في إيذاء الأوس والخزرج إلى أن انتهى الأمر إلى رفع السيفِ، ووقعت بينهم الوقائع، وحين وجد اليهودُ حرَّ السيفِ غلبهم الجبنُ فنادوا بالسلام بحجةِ الاتحادِ، وحماية المدينةِ من الغزاة الخارجيين، فكان لهم ما أرادوا.

وبعد فترة من السلام نقض اليهود العهد، وتجددت المعارك،

وقتِلت مجموعة كبيرة من الأوس والخزرج، وحينئذ استعان الأوس والخزرج بأبناء عمومتِهم من الغساسنة في الشام، فظاهروهم، وكانت معركة قوية أفضت إلى قتل أعداد كبيرة من اليهود، فرجعَ اليهودُ إلى حيلة السلام ودعوا إليه واستجابَ القوم، فلم تمض سنواتٌ قلائل حتى أوقد اليهود نار معركة جديدة استمرت مئة وعشرين عاماً وبقي شرارها إلى حين مبعث النبي ﷺ ثم هجرته إلى المدينة.

وحين قدم ﷺ المدينة أضاء منها كل شيءٍ، وتغيرت أجواؤُها، فقد أفلح عليه الصلاة والسلام في جمعِ القلوب، وتأليف النفوس، ونزع الأحقاد والعداواتِ، وأفلح كذلك في تحويل تلك الذئاب البشرية إلى (إنسانية) راقية تعرف معنى التوحيد، وتقدِّرُ قيمة الحياة المعمورة بالإيمان والعملِ. تغيرتْ حتى الأسماء.. فـ (يثرب) صارت المدينة، و(الأوس) و(الخزرج) أصبحوا (الأنصار).

واستمرَّ هذا الازدهار المدنيّ في العهد الراشديّ، في عهد أبي بكر وعمر، وكان عمر رضي الله عنه يفرضُ لكل مولودٍ مسلم في المدينة عطاءً من بيت المال.

وعلى مثل هذا جرى الحالُ في صدر الدولة الأمويّة، وقد زار معاوية رضي الله عنه المدينة، وسلَّم على أهلها، وأعطاهم الأموالَ، وأنعش التجارة والمزروعات.

غير أن الأمر اختلف مع ابنه يزيد، فقد كان يزيدُ منصرفاً عن تدبير شؤون العامةِ، مستغرقاً في شؤونه الخاصة ولهوه ولعبه، فلذلك نشأت حركة (معارضة) قمعها يزيدُ بعنفٍ عبر حملةٍ بعثها بقيادة مسلم بن قتيبة، وبذلك وقع القتل في أهل المدينة ربما لأول مرة في الإسلام.

واستمرَّت هذه الحال مدةً من الزمنِ حتى جاء العهد العظيم، عهدُ عمر بن عبد العزيز رحمه الله الذي أنعش المدينة تجارة وعدلاً وسماحة، وكانت فترته ـ على قصرها ـ من أزهر الفترات وأزهاها.

ثم جاءت الدولةُ العباسية، وشهدت المدينة إبّانها محناً وفتناً؛ لأن الحكام كانوا مشغولين بشكل كبير بالدنيا.

ثم جاء عهد عهد صلاح الدين الأيّوبي وشيخه نور الدين زنكيّ، وانتشر النور في المدينة، وكانت أيضاً من أنعش فترات المدينة المنوّرة وأفضلها.

ثم كان عهد المماليك والفاطميين وكان عهدَ شدّة وقحط.

إلى أن جاء العهد الأخير عهد الدولة العثمانية، فانتشر شيء من الخير في المدينة، وفتحت السكة الحديدية والبريد الذي كان بين إسطنبول والمدينة، وأنشِئتْ محطّة الوقود الكهربائيّة الخاصة بالمسجد النبوي.

وها نحنُ في عصرنا الحديث هذا نشاهدُ ما عليه المدينة المنورة من استقرار ورفاهٍ وحسن عمارةٍ للمسجدِ النبويِّ.

❁ ❁ ❁

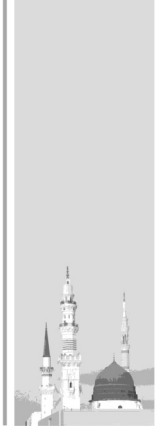

معالم النهوض في المجتمع النبوي (١)

لقد أفلح النبيُّ ﷺ في تحويل مجتمع المدينة من مجتمع متنافرٍ تسوده الفوضى، وتحكمُهُ الحروبُ، وتعلو فيه راية الشرك إلى مجتمع عمادُهُ التوحيدُ، وسمتُهُ الألفةُ، وعنوانُهُ الانضباط.

كيف فعل ذلك كله ﷺ في عشر سنوات؟

وكيف استطاع أن يخرج للدنيا أشرف جيلٍ تمثَّل الإنسانية في أعلى صورِها، ومثَّل الحضارة في أسنى دررها؟

وأية أسس دعوية وتربوية اتّكأ عليها فبلغ بفضل الله ما بلغ من إصلاحٍ وتوجيه؟

سنحاول أن نجيبَ على هذه الأسئلة، ونحاول أن نبيّن معالم الخطوط العريضة التي سار عليها النبيُّ ﷺ، ليكون ذلك معياراً لنا نقابل بينه وبين واقعنا، ونزنُ به مسيرتنا، فنتبيّن وجوه الخلل، ونتهدّى إلى مواطن النقص.

فإلى معالم النهوض أو الإصلاح النبويّ في المجتمع المدنيّ.

المعلم الأول: تحقيقُ الإخاء وحضارةُ البناء

أوّل خطوة صنعها النبيُّ ﷺ في المدينة المنوَّرة هي تحقيق الإخاء، حيث آخى بين المهاجرين والأنصار. وكانت هذه الأخوة أخوةً صادقةً عميقة، ولم تكن مجرد مظهر أجوف، وبلغَ من قوتِها أنْ كان الأخُ ينزلُ

لأخيه عن ماله وداره، ويتحدث معه في خاصةِ أمرِهِ، ويأمرُهُ وينهاهُ، ويتابعُهُ في دقيق أمره وجليله، فيعظه بالقيام إذا رأى منه تقصيراً، ويلحُّ عليه في الفطر إذا رآه أثقل على نفسه بالصيام! وهكذا يتعامل كلّ واحد منهم مع أخيه وكأنه يتعامل مع نفسه!

وإنما بلغت هذه الأخوة هذا المبلغ بأمرين اثنين هما: تحقيق الأُلفة وإزالةُ الكُلفة.

أمّا الألفةُ فعلامتها أن يكون بين الأخوين أنسٌ ومودةٌ وأكلٌ وشربٌ وعباداتٌ مشتركةٌ وزيارات خاصة وهلمَّ جراً من علائمِ الحب الصادقِ، والألفةِ العميقة.

وأما زوال الكلفةِ فآيتُهُ أن ينظر المرءُ لأخيه كما ينظرُ لنفسه حتى كأنهما روحانِ في بدن، فلا يستحيي من نصحِهِ، ولا يبالي أن يشتدَّ عليه إذا كان في ذلك مصلحتُهُ، ويرى مالَهُ كمالِهِ يأخذ منه ويذرُ، ويحوطُهُ في أهلِهِ ومِلكِهِ كما يحوطُ نفسه إلى غير ذلك من علامات الانسجامِ الروحيِّ، والتوافقِ النفسيّ.

ولمّا صحَّ للنبيّ ﷺ ما أرادَ من تحقيق الإخاءِ كمَّل ذلك بحضارة البناءِ، إذْ بناء الأخيار يعقبُهُ بناءُ الديارِ.

ولاحظْ أنني ما قلتُ هنا: (تشييد) البناء، بل قلت: (حضارة) البناء، لأن البناء وحده لايعني شيئاً ما لم يكن مقترنا بالقيم الحضارية الأخلاقية، لقد (شيّد) النبي ﷺ مسجدَه ولم يكن أكثر من بناء بسيطٍ عمادُهُ اللبِنُ وجذوعُ النخل، ولكنه كان موئل الحضارةِ، ومنبع الإنسانية، وعنوان التربية، ومعهد التعليم، ومُنْطَلَق الجيوش، كان صورةً مثلى لحضارة البناءِ وإن كان دون غيره في زخرف البناء.

وحين جاء الهرمزان إلى المدينةِ زمنَ عمر بن الخطابِ ذُهِلَ مرتين:

مرةً حين رأى البناء المتواضع للمسجد النبويّ، ومرة حين رأى عمر رضي الله عنه نائماً تحت ظل شجرةٍ قد توسَّد إحدى يديه!! عمرُ الذي كان ذكره يعطّرُ الآفاق، ويملأ قلوبَ الملوك رعباً لايملكُ قصوراً ولا ضياعاً!! وما ثمَّ إلا دارٌ من طينٍ يتركُها أحياناً ليقيل في ظل شجرة!! والمسجد النبويُّ الذي كان منبَعَثَ الجيوش الفاتحةِ ليس أكثر من بناءٍ سقفُهُ من جريد النخل ولكنّه تضمّن من اليقين والإيمان ماجعلَ عمرَ يضعُ فيه كنوز كسرى فلا يمسّها أحد!!

وحين رأى الهرمزان ما رأى من (حضارة البناء).. بناء الأخيار والديار قال قولته الشهيرة: «عَدلتَ فأمِنتَ فنِمت»[1]، وصدق، فكيف لا يكون عادلاً من قال: «متى استعبدتم الناسَ وقد ولدتهم أمّهاتهم أحراراً؟!».

فلنتعلم ذلك.. ولتكن عنايتنا بحضارة البناء أكثر من عنايتنا بزخرفتِهِ وتجميله، إننا معاشرَ المسلمين لا نبني ليقول الناس: ما أحسن هذه المباني والمصانع والدور!! لا، بل نبني ليكون ذلك البنيان رافداً من روافد الحضارة الإنسانية، ومشعلاً من مشاعل القيمِ، ولا يتحقق ذلك إلا بوسيلتين اثنتين:

الوسيلة الأولى: صِحّة العرض.

والوسيلة الثانية: عمارة الأرض.

وأعني بصحةِ العرضِ أن يكون العلمُ الذي نحملُهُ للناس فيه صلاح لهم، وخير، وموظفاً لترشيد الإنسانيةِ وهدايتها، أو بعبارة أخرى أن نكون ممثلين لمظاهر الحضارة لا لحضارة المظاهر.

ما فائدة التقنية والعلوم والمعارف إذا أفضت إلى إفساد حياة

(١) انظر: فضائح الباطنية للغزالي (ص٢١٢)، وفيض القدير (٤/ ٣٧٨).

الناس؟! ألم يقل سبحانه وتعالى عن الكافرين: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٧]؟ إنّ هذه الآية تصور لنا مانريد أحسن تصوير، إنها تتحدث عن قوم عندهم حضارةٌ في الدنيا، عندهم ومعلومات وتقنياتٌ وتطورات، ولكنها خاويةُ الجوهر، غارقةٌ في الدنيوية المادية، منقطعة عن أنوار الآخرة. عندهم الآن الأموال والفنادق والعمائر وعجائب الصناعات، ولكنّ ذلك كله لا بركة فيه، تأتيهم الأمراض والأوجاع والفيضانات فتقضي على مليارات الدولارات!

وصدق الله إذ يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

المعلمُ الثاني: الجمع بين مطالب الدنيا وأشواق الآخرة

كان النبيُّ ﷺ يحبّ أن يجمع أصحابُه بين الدنيا والآخرة، وكان يربيهم على ألا يجورُ أحد منهما على قسيمه، وها هو عمرُ بن الخطابِ رضي الله عنه وأرضاه يتناوبُ هو وأخٌ له أنصاريٌّ على حضور مجلس النبي ﷺ فكان أحدهما يذهب لرعي الغنم والآخر يحضرُ المجلس ثم يلتقيان فيحدّثُ هذا أخاه بما سمعَ، فإذا كان الغدُ جلس الأولُ ورعى الثاني وهكذا(١).

وكان ﷺ يدخل إلى المسجد أحياناً فيرى بعض الصحابة في غير وقت صلاة، فينكر عليه جلوسَه في المسجد في هذا الوقت؛ لأنّ هذا الوقت في الحقيقة هو وقت العمل والنزول إلى الميدان.

---

(١) رواه البخاري في كتاب العلم، باب: التناوب في العلم (٨٩)، ومسلم في كتاب الطلاق، باب: في الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن (١٤٧٩) عن عمر رضي الله عنه.

وقد صحّ أنه ﷺ كان يكونُ في حاجةِ أهله ويتناول معهم طعامهم وشرابهم.

فهذا هو الجمع بين مطالب الدنيا وأشواق الآخرة.

المعلم الثالث: العناية بالمظهر وصلاح المخبر

وذلك تكاملٌ جميلٌ رسَّخَهُ النبيُّ ﷺ في أصحابه، فكان أحدهم جميل المنظر حسن الثياب، نقيّ المخبر مخمومَ القلب.

واستمع إلى وصف عثمانَ بن عفّان رضي الله عنه لعمر بنَ الخطاب رضي الله عنه في قوله: «اللّهمّ عِلمي بِه أنَّ سريرتَه خيرٌ من علانيَتِه»(١)

وانظر إليه ﷺ يعظُ صحبه في حُسنِ المظهر فيقول: «**إنّكم قادمون على إخوانكم، فأصلحوا رحالكم وأصلحوا لباسكم؛ حتى تكونوا كأنكم شامة في الناس**»(٢)، ويقول ﷺ: «**حبِّب إليَّ من دنياكم النِّساء والطّيب**»(٣). ويقول: «**إن الله جميلٌ يحبُّ الجمال**»، وكان ﷺ يستقبل الوفود في لباسٍ خاصٍّ، ويجعل لمنبر الجمعة لباساً خاصاً.

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٣/ ١٩٩)، ومن طريقه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٠/ ٤١٠).

(٢) رواه أحمد (٤/ ١٧٩، ١٨٠)، وأبو داود في كتاب اللباس، باب: ما جاء في إسبال الإزار (٤٠٨٩) واللفظ له، والطبراني في الكبير (٦/ ٩٥) من حديث سهل بن الحنظلية رضي الله عنه، وصححه الحاكم (٧٣٧١)، وأقره الذهبي، وحسن إسناده النووي في رياض الصالحين (ص٣٣٢)، ورمز له السيوطي بالصحة.

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ١٢٨، ١٩٩، ٢٨٥)، والنسائي في عشرة النساء (٣٩٣٩، ٣٩٤٠)، وأبو يعلى (٣٤٨٢)، والضياء في المختارة (١٧٣٧) من حديث أنس رضي الله عنه، وصححه الحاكم (٢٦٧٦)، وجوّد إسناده العراقي كما في فيض القدير (٣/ ٣٧١)، وقواه الذهبي في الميزان (٢/ ١٧٧)، وصححه ابن حجر في الفتح (٣/ ١٥، ١١/ ٣٤٥)، وهو مخرج في السلسلة الصحيحة (١٨٠٩، ٣٢٩١).

وكان الشافعي رحمه الله وهو من هو في إمامته ينفق ثلث ماله في الطيب.

وهذا كله يؤكد عناية الإسلام بمسألة الجمال.. جمال المظهرِ، ولكنه لا يكتفي بها بل يدعو المسلم إلى العناية بمخبرِهِ، وتنقية سريرته. وقد سُئل أحد أئمة السلف فقيل له: ما ترى في الرجلِ يلبسُ الجميل، ويستجيد النعال؟ فقال له: إذا اتقى الله فليلبس ماشاء.

ولا شكّ أن للإسلام ضوابط في باب اللباسِ، ولكنّ ذلك لايحجّر على الناس أن يلبسوا جميلاً، ويتخذوا جديداً ما اتّقوا واجتنبوا المحذور.

ومن لطيفِ الأخبار في هذا المعنى مارُوِي عن الحافظ الإمام ابن حجرٍ رحمه الله، فقد ذُكر أنه ركبَ يوماً مركباً حسناً، ولبس حلةً فاخرةً، فلقيه رجلٌ فقيرٌ من يهود فقال له: أو لم يقل نبيكم: «**الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر**»[1]؟ قال: بلى، قال اليهوديُّ: أفهذا الذي أنت فيه سجنٌ؟ أو هذا الذي أنا فيه جنة؟ فقال ابن حجرٍ: إنّ الدنيا سجنٌ للمؤمن إذا قاسها بنعيم الآخرة الذي ينتظره، وإن الدنيا جنةٌ للكافر إذا قاسها بعذاب الآخرة الذي ينتظره!

ويا لها من نظرة فقيه!

فمهما كان نعيم المؤمن في الدنيا.. فهو سجنٌ إذا قيس بموعود الله للمؤمنين من نعيم الجنان.

ومهما كان بؤس الكافر في الدنيا.. فهو جنةٌ إذا قيس بعذاب جهنم والعياذ بالله.

---

(١) رواه مسلم في كتاب الزهد والرقائق (٢٩٥٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

المعلم الرابع: الإيمان بشمولية العقيدة والعبادة

الإيمان في المنهج النبويّ ليس ألفاظاً تقالُ فحسبُ، بل هو قول باللسان، وعملٌ بالأركان، واعتقادٌ بالجنان. قال ﷺ: «**والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، من لا يأمَن جارُه بوائقَه**»(١). وقال ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفَه**»(٢). وقال ﷺ: «**الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الْإِيمَانِ**»(٣).

هذه النصوص صريحة الدلالة في أنّ الإيمان ليس اعتقاداً قلبياً فحسبُ، بل هو ممارسةٌ يومية حياتيةٌ، وتعاملٌ إنسانيّ راقٍ مع البشر، وبهذا يظهر أثر إيمان المؤمن في عملِهِ وبيتِهِ وحيِّهِ وشارعِهِ، وفي كل تصرفٍ من تصرفاتِهِ.

هناك إذن شمولٌ في مفهوم العقيدة.

ويقابله أيضاً شمولٌ في مفهوم العبادة.

فليست العبادةُ في المنهج النبويّ المدنيّ طقوساً وشعائر تؤدّى فحسبُ، بل هي شاملةٌ لكل فعل صالحٍ من أفعال الإنسان ما دام يحتسب فيه النية ويبتغي مرضاة الله.

إنّ المؤمن ليتعبّد بأكلِ طعامِهِ، وراحةِ منامِهِ، ودرس علمِهِ، وإنجاز عمله، والجد في وظيفتِهِ، والنفقة على أهله، وإدخال السرور على من حوله، والاستماع إلى المباح من الإنشاد، ومشاهدة الجائز من البرامج

---

(١) رواه البخاري في الأدب (٦٠١٦) من حديث أبي شريح رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري في الأدب (٦٠١٨، ٦١٣٦، ٦١٣٨)، ومسلم في الإيمان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) رواه مسلمٌ في الإيمان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه (٣٧).

المسلية... كل هذه مع حسن القصد عباداتٌ يؤجر عليها الإنسان، وترتفع بها درجتُهُ.

وهل أبلغُ من قوله ﷺ: «**وَإِنَّكَ مَهْمَا أَنْفَقْتَ مِنْ نَفَقَةٍ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ حَتَّى اللُّقْمَةُ الَّتِي تَرْفَعُهَا إِلَى فِيِّ امْرَأَتِكَ؟**»[(١)].

وهذه العبودية الشاملة تقوم على أمرين اثنين: **إرساء المنهَج وجَودَة المنتَج.**

فلا بدّ أن تكون العبادة على منهج الكتاب والسنَّة، ولابدّ كذلك أن تكون متقنةً، فليست العبرةُ بكثرة التعبد فحسب، بل العبرة بالخشوع والإتقان وحضور القلبِ، وركعتان في سكينةٍ وإقبال خير من عشرةٍ في غفلةٍ وسهوٍ. وقل مثل ذلك في جوانب العبادة الأخرى، فالتفرغ لوظيفةٍ وإتقانها بنيةِ التعبد، خير من مزاحمةِ الوظائف والمهامّ دون إتقانٍ وتجويدٍ.

وفي الحديث: «**إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه**»[(٢)].

المعلمُ الخامسُ: تحقيق العدل وكثرةُ البذل

أتى عبّاد بن شرحبيل رضي الله عنه إلى المدينة، فدخل حائطاً من حيطانها، فأخذ سنبلاً ففركه فأكل منه، وجعل منه في ثوبه، فجاء صاحب الحائط فضربه وأخذ ثوبه، فأتى عبّاد النبيَّ ﷺ، فقال ﷺ: «**ما علَّمتَه إذ كان جاهلاً، ولا أطعَمتَه إذ كان جائعاً**»، فردّ عليه الثوبَ وأمر له بنصف وسق أو وسق[(٣)].

---

(١) رواه البخاري برقم: (٢٥٣٧)، في كتاب الوصايا، باب أن يترك ورثته أغنياء خيرمن أن يتكففوا الناس.

(٢) رواه البيهقي في الشعب برقم ٥٠٨٠، وصححه الألباني في الصحيحة ١١١٣.

(٣) رواه أحمد (١٦٦/٤)، وأبو داود في كتاب الجهاد، باب: في ابن السبيل يأكل من =

في هذه القصة صورةٌ مشرقةٌ من (معلم العدل) الذي أقامه النبيُّ ﷺ، العدلُ الذي ينظر للمسألة من كافة جوانبها قبل أن يصدر حكمه، فالنبي ﷺ لم يعجل بعقوبةِ عبّادٍ، بل التفتَ إلى ما كان عليه من شدةِ الجوعِ والحاجةِ والفاقةِ فراعى ذلك مع أنه هو الذي قال ﷺ: «**والذي نفسُ محمّد بيده، لو أنَّ فاطمةَ بنت محمّد سرقت لقطعتُ يدها**»(١).

وانظر كذلك إلى موقف النبيّ ﷺ من أبي ذرّ لمَّا قال لرجلٍ: يا ابنَ السوداء، فقد غضب ﷺ وقال لأبي ذر: «**أعيَّرتَه بأمّه؟!**»(٢).

وأما البذل فقد ربى النبي ﷺ أصحابه عليه، فهم يبذلون الغالي والنفيس نصرة لدينهم، ويبذلون من أوقاتهم وأموالهم وخبراتهم كل ما يستطيعون خدمةً لنبيهم ﷺ وتعريفاً بإسلامهم.

وكان من ثمرةِ التربية النبوية على كثرة البذل أنْ صار كل إنسان في ذلك المجتمع الراشد يعطي ويبذلُ، فكل بيت من بيوت المسلمين بالمدينة كانت له إسهاماتٌ في نصرة الدين إما بمالٍ أو بنفسٍ أو بقولٍ أوبجهدٍ. وليس هناك بيت عاطل.

❁ ❁ ❁

= التمر ويشرب من اللبن إذا مرَّ به (٢٦٢٠)، والنسائي في آداب القضاة، باب: الاستعداء (٥٤٠٩)، وابن ماجه في كتاب التجارات، باب: من مرَّ على ماشية قوم أو حائط هل يصيب منه؟ (٢٢٩٨) من حديث عباد بن شرحبيل رضي الله عنه، وصححه الحاكم (٧١٨٢)، وهو في السلسلة الصحيحة (٢٢٢٩).

(١) رواه البخاري في كتاب الحدود، باب: إقامة الحدود على الشريف والوضيع (٦٤٠٥)، ومسلم في كتاب الحدود، باب: قطع السارق الشريف وغيره والنهي عن الشفاعة في الحدود (١٦٨٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب: المعاصي من أمر الجاهلية ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك (٣٠)، من حديث أبي ذرّ رضي الله عنه.

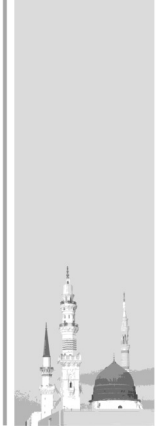

معالم النهوض في المجتمع النبوي (٢)

المعلم السادس: قوّة الوحدة، ووحدةُ القوة

بعث رسول الله ﷺ عبد الله بنَ جحش إلى نَخْلةَ فقال له: «**كن بها حتى تأتينا بخبر من أخبار قريش**»، ولم يأمره بقتالٍ، وذلك في الشهر الحرام، وكتب له كتاباً قبل أن يعلِمَه أين يسير، فقال: «**اخرُج أنت وأصحابك حتى إذا سِرتَ يومين فافتح كتابَك وانظر فيه، فما أمرتُك فيه فامضِ له، ولا تستكرِهَن أحداً من أصحابك على الذَّهاب معك**».

فلما سار يومين فتح الكتابَ فإذا فيه أن امض حتى تنزل نخلةَ فتأتينا من أخبار قريش بما يصل إليك منهم، فقال لأصحابه حين قرأ الكتاب: سمعٌ وطاعة، مَن كان منكم له رغبة في الشهادة فلينطلِق معي فإنِّي ماضٍ لأمر رسول الله ﷺ، ومن كره ذلك منكم فليرجع فإنَّ رسول الله ﷺ قد نهاني أن أستكرِهَ منكم أحداً، فمضى معه القوم، حتى إذا كان ببحران أضلّ سعد بن أبي وقّاص وعتبة بن غزوان بعيراً لهما كانا يعتقِبانه، فتخلَّفا عليه يطلبانِه، ومضى القوم حتى نزلوا نخلةَ، فمرّ بهم عمرو بن الحضرميّ والحكم بن كيسان وعثمان والمغيرة ابنا عبد الله معهم تجارةٌ قدموا بها من الطائف، فلمّا رآهم القوم أشرف لهم واقد بن عبد الله وكان قد حلق رأسَه، فلما رأوه حليقاً قالوا: عُمّارٌ ليس عليكم منهم بأس، وائتمر القوم بهم، يعني: أصحاب رسول الله ﷺ في آخر يوم من رَجب، فقالوا: لئن

قتلتموهم إنكم لتقتلونهم في الشهر الحرام، ولئن تركتموهم ليدخلُنّ في هذه الليلة الحرَم، فليمتنِعُنّ منكم، فأجمع القوم على قتلهم، فرمى واقد بن عبد الله التميمي عمرو بنَ الحضرمي بسهم فقتله، واستُؤسر عثمان بنُ عبد الله والحكم بن كيسان، وهرب المغيرة وأعجزهم.

واستاقوا العيرَ، فقدموا بها على رسول الله ﷺ فقال لهم: «**والله، ما أمرتكم بالقتال في الشهر الحرام**»، فأوقف رسول الله ﷺ الأسيرين والعيرَ فلم يأخذ منها شيئاً، فلما قال لهم رسول الله ﷺ ما قال أُسقِط في أيديهم وظنّوا أن قد هَلَكوا، وعنَّفهم إخوانُهم من المسلمين، وقالت قريش حين بلغهم أمرُ هؤلاء: قد سفك محمّد الدم في الشهر الحرام، وأخذ فيه المال، وأسَر فيه الرجال، واستحلَّ الشهر الحرام، فأنزل الله في ذلك: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ﴾ [البقرة: ٢١٧]، يقول: الكفر بالله أكبر من القتل، فلما نزل ذلك أخذ رسول الله ﷺ العيرَ وفدى الأسيرين، فقال المسلمون: أتطمع أن تكون غزوة؟ فأنزل الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟﴾ إلى قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ﴾ إلى آخر الآية [البقرة: ٢١٨]، وكانوا ثمانيةً، وأميرُهم التاسع عبد الله بن جحش[(١)].

وشاهدُ هذا الخبر أنهم اجتمعوا جميعاً على كلمةِ عبد الله بن جحش رغمَ اختلافهم في الرأي ابتداءً، وذلك أنَّ النبيّ ﷺ قد رباهم على اجتماع الكلمةِ وطاعةِ الأمير والاتحاد.

وفي مقابل قوة الوحدةِ كان النبي ﷺ حفيّاً بـ (وحدة القوة) بمعنى

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٥٨) من طريق ابن إسحاق قال: حدثني يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير به. وانظر: البداية والنهاية (٣/ ٢٥٩).

أن تكون قوى المجتمع المسلم كلها موحدةً في الاتجاه الصحيح، فليس من الهدي النبويّ أنْ ينشغل المسلمون ببعضهم اختلافاً وتجريحاً وعدواةً وبغضاءَ، فتتبدد قواهم، ويطمع فيهم عدوُّهم.

وكان النبيّ ﷺ يغرس هذا المعنى في نفوس أصحابِه بصور عديدةٍ، منها أنّه كان يمرّ بين صفوف الصلاةِ ويمسَح مناكبَ أصحابه ويقول: «**استوُوا ولا تختلِفوا فتختَلفَ قلوبكم**»[1]، فحتى وهم يتعبّدون لله سبحانه وتعالى يربّيهم على اللّين والأخلاق والتُّؤَدة، الكتف بجانب الكتف، والقدم حَذوَ القدم، والكعب بإزاءِ الكعب، كل هذا علام يدلّ؟ إنّه يدل على (وحدة القوّة) حتى إذا نزلوا في المعارك كانوا إخواناً أقوياء.

وأولى من ينبغي أن يتأدَّب بهذا الأدب، ويهتدي بهذا المعلم الدعاةُ والمصلحون، فلا ينشغلون بالخلافاتِ عن واجبِ العمل والبناءِ.

المعلم السابع: التعايش السلميّ والودّ البشريّ

وهذا أصلٌ عظيمُ الأثرِ، ولولاه لما اتفق للمدينةِ أن تنعم باستقرارِها وهدوئها، فقد كان المجتمع المدنيُّ مزيجاً منوعاً من الأجناس والديانات، والأعراق والأفكار، فيه المهاجرون والأنصار واليهود والمنافقون والنصارى.

ومع كل هذا التنوع عاش الجميعُ في أمنٍ واستقرارٍ، وفي نمط رفيع من التعايش السلميّ، كلٌّ واحدٍ له حقوقُه، وله أولويّاته، وله واجباته.

ومما يشهد لهذا الأصل أنَّ النبيّ ﷺ كان يستجيبُ إذا دعاه أحدٌ من

(١) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب: تسوية الصفوف وإقامتها وفضل الأول فالأول منها والازدحام على الصف الأول من حديث أبي مسعود رضي الله عنه (٤٣٤).

اليهود إلى طعام أو شراب، وكان يزور باستمرارٍ جاراً يهودياً ليطمئن عليه، وكان له غلامٌ يهوديٌّ يخدمه، فمرض فأتاه النبي ﷺ يعوده فقعد عند رأسه فقال له: «**أسلم**»، فنظر الغلام إلى أبيه وهو عنده فقال له: أطع أبا القاسم، فأسلم، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «**الحمد لله الذي أنقذه من النار**»(١).

وما من غرابةٍ في ذلك، فالودُّ البشريّ طبيعيٌّ، قال الله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ﴾ [الممتحنة: ٧]، يعني: إذا انتهت فترةُ الحروب والقتال يعمُّ السلام وتدورُ عجلةُ التعامل البشري الإنسانيّ بتلقائيةٍ وسلاسةٍ.

البعض يظنّ أنّ النظر إلى الكافر والتبسُّم في وجهه معصيةٌ تناقضُ أصل الولاء والبراء! وهذا غير صحيح، فلا علاقة لهذا الأمر بالبراء من الكافرين؛ إذ البراء اعتقادٌ قلبيّ؛ لأنّ الكافر تبغِضه على كفره، ولكن يبقى التعامل الإنسانيّ والتعامل البشري، فهو أخوك في الإنسانيّة، كما قال سبحانه وتعالى عن الأنبياء مع أقوامهم الكافرين: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٠٦]، ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٤]، ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٤٢]، ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٦١].

فأنت ترى أن جميع الأنبياء وُصفوا بأخوّةِ أقوامهم إلا شعيباً فإن الله قال في خبره: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٧٧]؛ لأنَّ شعيباً أصلاً كان من نفس القبيلة.

وأوَدّ أن أبيِّن هنا مسألةً أخرى..

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجنائز، باب: إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه؟ وهل يعرض على الصبي الإسلام؟ (١٢٩٠) من حديث أنس رضي الله عنه.

البعض فَهِم قول النبي ﷺ: «**إذا لَقِيتُم أحدَهم في طريقٍ فاضطرُّوه إلى أضيقِه**»[١] على غير وجهه، وظنّ أن معناه تعمّدُ إيذاء الكافرين في الطريق! ولا يمكن أن يكون هذا هو المعنى لأنّه يتعارض مع كثيرٍ من أفعال النبي ﷺ، فإنه كان يزور الكفار ويسأل عنهم، ويتفقد أحوالهم، ويأكل ويشربُ عندهم، فهل يعقلُ أن يفعل هذا ثم إذا لقي أحدهم في الطريقِ ضيَّق عليه وآذاه؟

ما المراد من الحديث إذن؟ المرادُ أنّه إذا كان هناك طريقٌ عامٌ وآخرُ أضيقُ منه فليبدَأ المسلم بعزّته وقوّته في الطريق العام، والكافر سيتّخذ الطريق الآخر.

ثم إن هذا الحال يكون في حال عزة المسلمين وتفوقهم، وإشعار الكافر بأن تمسكه بالباطل ذل. لا أبعد من هذا!

لأن الأصل قوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨] والودّ في القرآن يقتضي حسن التعامل في الطريق وفي غيره. فحمل الحديث إذن على وصف خاص في حال خاص.

المعلم الثامن: نشر الفضيلة وتصحيح المسيرة

وهو معلمٌ مركّبٌ من جزئين: يقرر أولهما ضرورة نشر الفضائل، ويقرر الثاني ضرورة محاربة الرذائل. وليس يصلح أحدهما دون الآخر، فليس يكفي المسلم أن يفتخر ببناء جامع وقد ترك الخمّارة بجوارِهِ لا

(١) رواه مسلم في كتاب السلام، باب: النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يردّ عليهم (٢١٦٧).

يسعى لإغلاقها! وليس يغنيه أن يكثرَ من النفقة في سبيل الله إذا كان جُلُّ دخلِهِ من الربا!

لا بدّ من الجمع بين نَشر الفضيلة وتصحيح المسيرة، فأيّ خطأ يجب أن نَقف عنده ونصحّحه، فهذه حدود الله يقول: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [الطلاق: ١]. وليس للمسلم أن يتجاوز هذه الحدودَ أو يستخفَّ بها، بل ليس له أن يغيب ذكرُ الله والالتزام بشرعه عن حياته ولو لحظةً واحدةً، وما أحسن قول القائل:

ولو خطرت لي فِي سواك إرادة على خاطري يوماً حكمتُ بردّتي

وهو لا يقصد طبعاً الردة الشرعية، بل يقصد الارتداد عن مقام الأبرار المحسنين الذي يعبدون الله كأنهم يرونه.

ويمكننا أن نلمسَ في سيرة النبيِّ ﷺ مثالين من أمثلة تصحيح المسيرة.

المثال الأول: الانتقال من النظرة المثالية إلى النظرة الواقعية.

لقد كان المجتمع النبويّ على شرفِهِ وفضله مجتمعاً (بشرياً) يؤمن بالواقعية البشرية، ولذلك كان فيه المنافقون، وفيه من شرب الخمر، وفيه من زنا، وكانت سيرة النبي ﷺ في هذا الجانب واعظاً كبيراً لمن يعيش أحلام المثالية، وأوهام الكمال. والبعضُ اليوم يريد أن يغير كل شيء، يريدُ مجتمعاً ملائكياً لا معصية فيه ولا خطأ!! وإذا فكر في إنشاء قناةٍ إسلامية مثلاً فإنه يريدها في الذروة العليا من كل شيء!! وإذا لم يجد الأمر على ما يريد نفض يديه وقعد!!

والمثال الثاني: الانتقال من فجائية التغيير إلى مرحلية التغيير.

فقد كان الصحابةُ ﷺ في أوج حماستهم يريدون تغيير الدنيا كلها في لحظةٍ واحدةٍ لتكون خاضعةً لله! وكانت تندُّ منهم عباراتٌ من نحو: ألا نميلُ عليهم بأسيافنا؟ كيف نعطي الدنية في ديننا؟ وكان النبيّ ﷺ يعلمهم بقوله وفعله ـ تصحيحاً لمسيرتهم ـ أن يتدرجوا، فشرَّعَ لهم بأمر ربه تحريم الخمر بالتدريج، وامتنعَ عن هدمِ الكعبة وإعادة بنائها على قواعد إبراهيم مراعاةً لحداثة عهد الناس بالكفر.

والبعض اليوم يريد أن يزيل المنكرات، ويحوّل المجتمع في بيته، وفي أسرته، وفي شارعه، وفي عمله، لا يريد أحداً يدخن، ولا يريد أحداً يلبسُ ملابس غير مقبولة، ولا يريد أن ينظر في الشارع أيَّ شيء منكر، يريد ذلك كله في يوم وليلة!!

كلا.. النبي ﷺ كان يتدرّجُ في إصلاح المجتمع، من تأمل مجتمع المدينة سيلحظ أنه لم يخلُ من أخطاء وتجاوزات تفهمها النبيُّ ﷺ ثم تدرج في حلّها.

المعلم التاسع: تقديم المصالح العامة على المصالح الخاصّة

وقد تربّى الجيل المدنيُّ الراشد على هذا الأصل تربيةً عميقةً، فكان كل واحدٍ منهم ينظر لمصلحة الجماعة قبل أن ينظر لمصلحة نفسه، وينزل على رأي الجماعة وإن خالف هوى نفسِهِ.

إن الصحابة الذين أشاروا بالخروج يوم أحدٍ كانوا يعلمون أن في خروجهم تعرضاً للموتِ ولكنهم آثروا مصلحة الجميع على مصلحة سلامتهم الشخصية.

مجتمع غير أناني، تقوده المحبة، وتسود بين أفراده الرحمة، وتحل

الشورى في كل الميادين، فقدَّ الخداع والظلم والطلاق، وكان يسعى بذمتهم أدناهم. مجتمع يصفه رواة السيرة: خلت نفوسهم من حظ نفوسهم!

المعلم العاشر: الجمع بين البيئة التنموية والتربية الأسرية

وفي هذا المعلم جمعٌ بين الخاصِّ والعامّ، والقريب والبعيد، والضيّق والواسع!

فالصحابيّ الجليل الذي تربى في أحضان المجتمع المدني النبويّ كان شديد الحفاوةِ بأسرتِهِ بقدر ماكان شديد الحفاظ على البيئةِ من حوله.

ذلك أنه تلقى عن النبيّ ﷺ قولاً وفعلاً آداب التعامل مع الزوجةِ، وفنون التعامل مع الأبناء، وكيفية إنشاء أسرةٍ مؤمنةٍ عابدةٍ تُسهم في بناء الأمة.

وتلقى عنه في نفس الوقتِ أنّ إماطة الأذى عن الطريق صدقة، وأنّ في كل كبدٍ رطبةٍ أجر، وأنّ التخلّي في أماكن الظلّ مظنّةُ اللعنةِ، وأن النظافةَ من الإيمان، وأن السَّرَف لا يأتي بخير... إلى غير ذلك من خصال التعامل الراشد مع البيئةِ.

والذي يتأمّل اليوم أبواب الفقه الإسلامي يجدُ عجباً من العناية التفصيلية بهذين الجانبين، وذلك كله من أثر الهدي النبوي في الاهتمام بهذين الأمرين.

هذه هي المبادئ العشرة التي حقَّقها النبيّ ﷺ في المدينة، وهي معالم النهوض والإصلاح التي ينبغي الأخذ بها في مسيرة المصلحين، وهي:

١ ـ تحقيق الإخاء وحضارة البناء.

٢ ـ الجمع بين مطالب الدنيا وأشواق الآخرة.

٣ ـ العناية بالمظهر وصلاح المخبر.

٤ ـ الإيمان بشمولية العقيدة والعبادة.

٥ ـ تحقيق العدل وكثرة البذل.

٦ ـ قوة الوحدة ووحدة القوة.

٧ ـ التعايش السلمي والودّ البشريّ.

٨ ـ نشر الفضيلة وتصحيح المسيرة.

٩ ـ تقديم المصالح العامة على المصالح الخاصة.

١٠ ـ الجمع بين البيئة التنموية والتربية الأسرية.

❁ ❁ ❁

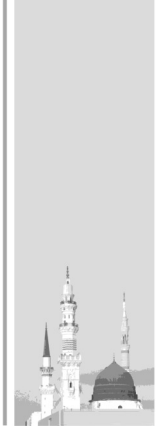

جولة إيمانية
مع فضائل المدينة النبوية

طابة، طيبة، المدينة، مُتَبَوّأ الإسلام، قُبّة الإسلام، مُتَبَوّأ الحلال والحرام، كل هذه أسماء للمدينة المنوَّرة سمّاها بها النبيُّ محمّد ﷺ. ولا يوجَد مدينة من مدن العالم تضاهي المدينةَ في كثرةِ أسمائها، وما ذاك إلا لشرفها وعظيم منزلتِها وعلوّ درجتِها.

أتدرون ما بلغ من شرف المدينة؟

وهل تعرفُون ما يحظى به ساكنها وزائرها من خيراتٍ وفضائل؟

وهل تشعرون بمقدار المنَّةِ التي يمتنُّ الله بها على من صافحتْ عيناهُ حسنها، وضربتْ قدماه في أرضها؟

هلمّوا معي في هذه الجولةِ الإيمانية.. مع المدينةِ المنورة وفضائلها.

١ ـ دنوٌّ واقترابٌ..

إن أولى فضائل المدينةِ وبركاتِها أنها مأرِز الإيمان كما قال النبيُّ ﷺ: «**إنَّ الإيمانَ ليأرِز إلى المدينةِ كما تأرز الحية إلى جحرها**»[1].

---

(١) رواه البخاري في أبواب فضائل المدينة، باب: الإيمان يأرز إلى المدينة (١٧٧٧)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب: بيان أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وهذا المعنى يدركه حق الإدراك كلُّ من زار المدينة، فإن المرء لا يكادُ يدخلها حتى يشعر بالإيمان يتحرك بين جنبيه، ويحس بالسكينة، ويتسلل إلى أعماقِهِ شعورٌ شفيفٌ بالقربِ من الله، والأنس به جلَّ جلالُهُ.

ولعلّ السرّ في ذلك هو مقام النبي ﷺ، فزائر المدينة يشعر بالقرب منه ﷺ، ويحسُّ أنه معه يستمع لتوجيهاتِهِ، ويشاهدُ عياناً صفحاتِ جهادِهِ ودعوتِه، ويزداد هذا الشعور عمقاً عندما يتذكر زائر المدينة قوله ﷺ: «**ما مِن أحدٍ يسلِّم عليَّ إلَّا ردَّ الله عليَّ روحي حتى أردَّ عليه السلام**»(١).

وإذا كان نازلُ المدينة يحظى بشعور القربِ هذا فإنَّ البعيدَ القصيَّ غيرُ محرومِ الحظِّ من رسول الله ﷺ إذا هو ذكره وصلى عليه، فقد جاء في الحديث: «**إنَّ لله عزّ وجلّ ملائكةً سيَّاحين في الأرضِ، يبلِّغوني عن أمَّتي السلام**»(٢)، ومع ذلك فأين الداني من البعيد؟ وأين القريبُ من الغريب؟

٢ ـ شفاعةٌ وانتسابٌ..

من فضائل المدينة شفاعتُه عليه الصلاة والسلام لمن يسكُنها ويموت فيها، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «**منِ استطاع أن يموتَ بالمدينة فليَفعَل، فإنّي أشفعُ لمن مات بها**»(٣). ويالها من منزلةٍ تتطلع إليها القلوب، وتتشوف لها الأرواح.

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٥٢٧)، وأبو داود في كتاب المناسك، باب: زيارة القبور (٢٠٤١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وهو في السلسلة الصحيحة (٢٢٦٦).

(٢) رواه أحمد (١/ ٤٤١، ٤٥٢)، والنسائي في كتاب صفة الصلاة، باب: السلام على النبي ﷺ (٢٠٤١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وصححه ابن حبان (٩١٤)، والحاكم (٣٥٧٦)، وهو في السلسلة الصحيحة (٢٨٥٣).

(٣) رواه أحمد (٢/ ٧٤، ١٠٤)، والترمذي في كتاب المناقب، باب: في فضل المدينة =

٣ ـ روحٌ وريحان..

ساكنُ المدينةِ يعيش دائما في أجواء الجنة، ويتذكر باستمرار روحها وريحانها، ونخيلها وأعنابها، وحورها وولدانها، وماءها وأنهارها.

إنّه يأكلُ من تمرِها فيتذكرُ الجنةَ، لقوله ﷺ: «**العجوة من الجنة**»[(١)]، والعجوة ضربٌ مشهورٌ من تمرِ المدينة.

ويزور روضتها فيجدُ نفسه في رحابِ الجنةِ، ففي الحديث يقول ﷺ: «**ما بين بيتي ومنبري** ـ الذي كان يخطب عليه ـ **روضة من رياض الجنة**»[(٢)].

ويخرجُ إلى حدودها فيتذكر سكّانها المبشرين بالجنةِ أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً وسائرَ العشرةِ وغيرهم ممن صحتْ البشارة لهم بالجنةِ، وكانوا يعيشون في المدينةِ يمشون في أزقتها، ويتجولون في طرقاتها، وينزلون في بيوتها.

وينأى قليلاً فإذا هو أمام جبل أحدٍ الذي قال عنه ﷺ: «**هذه طابة، وهذا أُحُد، وهو جبل يحبّنا ونحبه**»[(٣)]، وهو جبلٌ من الجنةِ كما جاء في

= (٣٩١٧)، وابن ماجه في كتاب المناسك، باب: فضل المدينة (٣١١٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب»، وصححه ابن حبان (٣٧٤١)، وهو في صحيح الترغيب (١١٩٣).

(١) رواه أحمد (٢/ ٣٠١، ٣٠٥، ٣٢٥)، والترمذي في كتاب الطبّ عن رسول الله ﷺ، باب: ما جاء في الكمأة والعجوة (٢٠٦٦، ٢٠٦٨)، وابن ماجه في كتاب الطب، باب: الكمأة والعجوة (٣٤٥٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب»، وهو في صحيح سنن ابن ماجه (٢٧٨٣).

(٢) رواه البخاري في أبواب التطوع، باب: فضل ما بين القبر والمنبر (١١٣٧)، ومسلم في كتاب الحج، باب: ما بين القبر والمنبر روضة من رياض الجنة (١٣٩٠) من حديث عبد الله بن زيد المازني رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري في كتاب المغازي، باب: نزول النبي ﷺ الحجر (٤١٦٠)، ومسلم في =

مصنف عبد الرزاق عن أنس بن مالك قال: إنَّ أُحداً على باب من أبواب الجنة.

وهكذا يجدُ ساكنُ المدينةِ نفسَهُ يعيش في أجواء الجنةِ باستمرار، فكل شيء من حوله يذكره بالجنةِ.

٤ ـ طِيبٌ وحنانٌ...

من سماتِ المدينةِ الظاهرةِ أن نازلَها يجدُ الطِّيبَ في كل أمرِها، فترابها طيبٌ، وديارُها طيبةٌ، وأهلها طيبونَ.

فأما أهلها فقد ذاعَ ذكرُهُم، فما من نازل ينزلُ المدينة إلا ويشهدُ لهم بالطيبةِ وحسن المعشرِ، وحسبك أن تعرّج بالحرم المدنيِّ قبيل مغربِ يوم من أيام رمضانَ لترى الأكف المدنية وهي تمتدُّ إليك مرحبةً، والأصواتَ الصادقة وهي تدعوكَ ملحةً لتمنحها شرف إفطارك في سفرتِها!

وسل ـ إن شئت ـ الطلاب الوافدين إلى الجامعة الإسلامية بالمدينة ليحدثوك عما وجدوه من طيب أهلها وحسن حفاوتهم.

وأما تراب المدينة فطيّبٌ كذلك، بل هو شفاءٌ وعافية، وفي الحديثِ: «**بسم الله، تربة أرضنا، بريقة بعضنا، يشفى سقيمنا، بإذن ربنا**»[(١)]، فالمريض يشفى من تربة المدينة بإذنِ الله، وقد استقرَّ ذلك في أذهان الناسِ حتّى رددوه في أهازيجهم الشعبية، وفي الأنشودة الشعبية

= كتاب الحج، باب: أحد جبل يحبنا ونحبه (١٣٩٢) من حديث أبي حميد الساعدي رضي الله عنه.

(١) رواه البخاري في كتاب الطبّ، باب: رقية النبي ﷺ (٥٤١٣)، ومسلم في كتاب السلام، باب: استحباب الرقية من العين والنملة والحمة والنظرة (٢١٩٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

المشهورة: «يا طيبة يا طيبة... يا دوا العيّان»، و(العيّان) بالعاميةِ: المريض، فالمدينةُ شفاءُ المريضِ بهذا يهزِجُ الناسُ ويترنمون.

٥ ـ طمأنينة وأمان...

ومن سماتِ المدينةِ التي يحسُّ بها زائرها وساكنُها (الأمان والطمأنينة)، وسر ذلك أن المدينةَ محروسةٌ بالملائكةِ، فلا عسكرَ ولا جندَ، بل ملائكةٌ مكرمونَ، وفي الحديث: «**إنّ المدينةَ مشبَّكةٌ بالملائكة**»[(١)]، ولذلك لا يمكن للدجال أن يدخلها.

كل هذه المزايا الفريدة، والخلال العجيبة جعلتِ المدينة مهوى قلوب المؤمنين، وهاهو النبيُّ ﷺ ـ على أنَّه من مكةَ ويحبّ مكة ـ إلا أنه كان يحنّ للمدينة حنيناً شديداً إذا فارقها، وفي الحديث الصحيح عند البخاريّ أنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ كان إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ فَأَبْصَرَ دَرَجَاتِ الْمَدِينَةِ أَوْضَعَ نَاقَتَهُ، وَإِنْ كَانَتْ دَابَّةً حَرَّكَهَا من حبها! قال ابن حجرٍ: «أَيْ حَرَّكَ دَابَّته بِسَبَبِ حُبّه الْمَدِينَة»[(٢)].

وهذا بلالٌ رضي الله عنه بعد سفره إلى الشام رأى النبيَّ عليه الصلاة والسلام في المنام فقال: ألا تزورنا يا بلال؟! فزار المدينةَ ودخلها ليلاً، وأخذ يتلمّس الحصا ويتذكّر؛ هنا وقف النبي ﷺ، هنا خطب الجمعة، هنا عقد اللواء، هنا سجدَ فما زال حتى بكى وأبكى رضي الله عنه وأرضاه[(٣)].

وهذا أحد الشعراء شارف المدينة وهو في الطائرة، وقد غلبَهُ الشوقُ

---

(١) رواه أحمد (١/ ١٨٣)، وأبو يعلى (٨٠٤) عن سعد بن مالك وأبي هريرة رضي الله عنهما، قال الهيثمي في المجمع (٣/ ٦٦٢): «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح».

(٢) فتح الباري ٦/ ٦.

(٣) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر (٧/ ١٣٧)، وتاريخ الإسلام، الذهبي (٤/ ٢٧٣)، وقال: إسناده جيد، ما فيه ضعف، لكن إبراهيم مجهول.

والحنين، وملأ فؤاده إجلال المدينة، فتساءلَ: لم لا تكون المدينةُ ميقاتاً؟ ثم اهتدى إلى الجواب العجيب! إنَّ المدينةَ غارقة في طيبِ الحبيب، والإحرام لا يستقيم مَع الطيب!!

ثم لما وصل إلى المدينة بعد نزوله من الطائرة أنشد أبياتاً يقول فيها:

وقالوا: وصلتَ مطار المدينه ... فثارت بقلبي معانٍ دفينه
ثرى أم ثراءً وطئت وحِرتُ ... وليست لغات الحيارى أمينه
طويت المكان طويتُ الزمان ... طويتُ الشراع أرحتُ السفينه
وقلت: أسارع ألقى النبيّ ... تعطّرتُ ليس كعطر المدينه
وفارقتُ صَحبي وحيداً بدربي ... أواري حياءً دموعًا سخينه
وغامت رؤاي وعدتُ سوايَ ... وأطلقتُ روحاً بجسمي سجينه
سجدتُ سموتُ عَبرتُ السماء ... وغادرت جسمي الكثيف وطينه
سجدتُ ألبّي أسائل ربي ... لينصر جندَ النبيّ ودينَه
وجئتُ المقام أريد السّلامَ ... وقلبي يسابق شوقاً حنينَه
ولاح الجلال وباحَ الجمال ... ذكرتُ رياضَ الخلود وعِيْنَه
مدينةُ حِبِّي مَراح لقلبي ... سناء صفاء نقاء جميله
ومرّ الزمان وآن الأوان ... فقلبي حزين وروحي حزينه
وقلت: أعود إذا شاء ربي ... وخَلَّفتُ روحي هناك رهينه

وكان شيخنا الشيخ محمد الحسن الددو في زيارة لأمريكا، وبينما هو عائد رأى جبَلاً فتذكَّر جبل أُحُد، فأنشأ أبياتاً وهو في الطائرة يقول فيها:

حُبِّيكَ يا خيرَ خلق الله ما نفدا ولا توقَّف يوماً لا ولا بَرَدا
ما زرتُ دارَك في شوقٍ يؤرِّقني إلَّا تزايد عندي الشوقُ واتّقدا
ولا أرى جبلاً في الأرض منفرِداً إلَّا تذكرتُ من شوقي له أحدَا

هذا غيضٌ من فيضٍ من أخبار الشوق إلى المدينةِ والتعلقِ بها.

وكم أعلم من القصص والأخبار والأحوال والعجائب عمّن عاش في الروضة فتراتٍ طويلة، فرأى رؤى صالحة، ودعا بدعواتٍ مقبولة، ما كانت إلا في هذا الموضع الخاصّ، كلّ ذلك ببركة النبيّ ﷺ وما أنعم الله سبحانه وتعالى به على المدينة المنورة على منوِّرها صلوات الله وسلامه.

وهذا يجعلني أذكِّر بأنه لا ينبغي الجدالُ الطويل في شأن الزيارة المدنيّةِ، وهل هي لقبر النبي ﷺ أو لمسجدِه. فهذه المسألة قد اختلف فيها العلماء والأكابر، وليست من المسائل القطعية أبداً، وسواء زرتَ المسجد أو زرتَ القبرَ فلكل على كل حالٍ سلفٍ ودليلٌ.

والقائلون بزيارة القبر يحتجّون بحديث: «**نَهيتُكم عن زيارةِ القبور فزورُوها**»[(١)]، وبحديث: «**استأذنتُ ربي أن أستغفرَ لأمّي فلم يأذن لي، واستأذنتُه أن أزورَ قبرَها فأذِن لي**»[(٢)]، وفي هذا إذن للنبيِّ ﷺ أن يزورَ قبر أمّه رغم أن هذه الزيارة تقتضي إنشاء سفرٍ!

والأولى بنا أن ننشغلَ بما ثبت عن الصحابة الكرام والأئمة الأعلام من احترام المسجد النبوي، واحترام المدينة، فقد كان مالك بن أنس

(١) رواه مسلم في كتاب الجنائز، باب: استئذان النبي ﷺ ربَّه عز وجل في زيارة قبر أمه (٩٧٧) من حديث بريدة رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم في كتاب الجنائز، باب: استئذان النبي ﷺ ربَّه عز وجل في زيارة قبر أمه (٩٧٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ـ رحمه الله ـ إمامُ دار الهجرة لا يمشِي بالنعل في المدينة، وإنما يمشي حافياً، فإذا قيل له في ذلك قال: «هنا وطئت قدَما النبي ﷺ»!

وكان مالك بن أنس إذا دخل المسجد يخفِض صوته ويتأدّب إجلالاً وإكراما للنبيِّ عليه الصلاة والسلام.

فمثل هذه الأخلاقِ جديرةٌ بالبحثِ والدرس والإذاعةِ والإشاعةِ، وهي أولى من التشنّج والتدابرِ من أجل مسألةٍ خلافيةٍ وسعَ الأمةَ الاختلاف فيها عبر أكثر من عشرة قرون.

❁ ❁ ❁

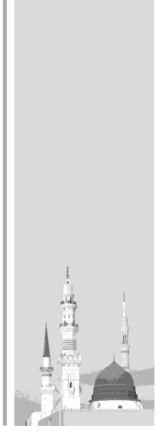

الابتهاج
في المجتمع النبوي

هناك من يظنُّ أنَّ التزامَ المرء أو تدينه يقتضي منه أن يخرجَ عن طبيعةِ الحياةِ، فلا يمرحُ مع الناس، ولا يتبسّط معهم، ولا يداخلهم في شؤونهم اليومية، لا يضحك لضحكهم، ولا يمزحُ لمزاحهم، ولا يجاريهم في اللهو المباح.

ويظنُّ هؤلاءِ أنّ الشخص إذا ما (تديّن) لزمَهُ أن يتكلَّفَ الجد في شأنِهِ كله، ويبالغ في التوقّر، ويتفرَّدَ في الصفاتِ والشكل والملبسِ حتى يُشار إليه بالبنانِ ويُعرف بمجرَّدِ رؤيته!! وكأن المتدين كائنٌ غريبٌ آتٍ من كوكبٍ آخر!!

في هذه المواقف التي سنقضيها في المدينة مع المصطفى ﷺ سنرى كيف كان النبيُّ ﷺ يحيا الحياة الطبيعيّة التي يعيشها الناس، حياة البساطة، حياة السهولة، الحياة التي لا تنكر الفرح، ولا تتنكر للهو المباح، ولا تترفع على الناس في همومهم اليومية، وآمالهم وآلامهم الحياتية، ولكن ضمنَ دائرة الإسلام والحدود الشرعية، ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

وتأمّل هذا الخبر الذي يحقق لك هذا المعنى، ويؤكد لك هذه الفكرة. عن خارجة بن زيد بن ثابت قال: دخل نفر على زيد بن ثابت، فقالوا له: حدثنا أحاديث رسول الله ﷺ قال: ماذا أحدثكم؟ كنت جاره،

فكان إذا نزل عليه الوحي بعث إلي فكتبته له، فكنا إذا ذكرنا الدنيا ذكرها معنا، وإذا ذكرنا الآخرة ذكرها معنا، وإذا ذكرنا الطعام ذكره معنا، فكل هذا أحدثكم عن رسول الله ﷺ[١].

ولنبحر الآن في سيرتِهِ ﷺ لنتبيَّنَ التطبيق العمليَّ لهذا الوصف الذي وصفه زيد بن ثابت رضي الله عنه.

في مرةٍ من المراتِ رَجَع النبيُّ ﷺ من إحدى الغزواتِ وقد سبقت إلى المدينةِ الأخبارُ بسلامتِهِ وظَفَرِهِ، فتلقتْه على مشارف المدينةِ جاريةٌ سوداءُ فلما أقبل ﷺ قالت: يا رسولَ الله، إني كنتُ نذرتُ إن ردَّك الله صالحاً أن أضربَ بين يديك بالدفّ وأتغنّى. فقال لها النبي ﷺ: «**إن كنتِ نَذرتِ فاضرِبي، وإلا فلا**»[٢].

أرأيتَ كيف هو التعاطي النبويّ الكريم مع مشاعر الفرح ومظاهر التعبير عنها؟ إنّه لم ينه الجارية! لم يقل لها: أتضربين بالدف بين يديَّ وأنا رسول الله! لم يقل لها: دعي عنك هذا العبث واشتغلي بما ينفع! كلا، لم يقل شيئاً من ذلك، بل راعى ﷺ نفسيتَها، وقدَّر فرحها بسلامتِهِ، وأذنَ لها أنْ تضربَ بالدفّ!

وأكثر من هذا أنّ عائشة رضي الله عنها أنكحتْ إحدى قراباتها رجلاً من الأنصارِ، فلما بلغَ ذلك النبيَّ ﷺ قال لها: «**أهديتُمُ الفتاةَ؟**» أي: هل حملتموها إلى دارها؟ فقالوا: نعم، قال: «**أرسَلتم معها من يغنّي؟**»

---

(١) الشمائل المحمدية: ٣٨٥.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٣٥٣، ٣٥٦)، والترمذي في كتاب المناقب، باب: في مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه (٣٦٩٠)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٧٧) من حديث بريدة رضي الله عنه، وقال الترمذي: "هذا حديث حسن صحيح غريب"، وصححه ابن حبان (٤٣٨٦)، وهو في السلسلة الصحيحة (٢٢٦١).

قالت: لا، فقال رسول الله ﷺ: «**إن الأنصارَ قومٌ فيهم غَزَل، فلو بعثتُم معها من يقول:**

أتـيـنـاكـم أتـيـنـاكـم فـحـيَّـانـا وحـيّـاكـم»(١)

وفي رواية قال ﷺ: «**تقول:**

أتـيـنـاكـم أتـيـنـاكـم فـحـيَّـونـا نـحـيّـيـكـم

لـولا الـذهـب الأحـمـر مـا حـلـت بـواديـكـم

ولـولا الـحـبّـة الـسـمـرا ما سـمـنـت عـذاريـكـم»(٢)

فانظروا إلى هذا التوجيه الجميل من النبيّ ﷺ.

إنّه توجيهٌ نبويّ كريم لإحياء الفرح في زواجاتنا، لئلا تتحوّل إلى مناسباتٍ جامدةٍ باهتةٍ تفتقد روح الفرح ومشاعر السعادة.

لا أكتمكم سراً، أحياناً أُصاب بشيء من التّعب النفسيّ عندما أحضر حفل زفاف فأجد العريس المسكين يقف ساعتين أو ثلاث ساعات، دون أن يتحرّك له أحد، أو ينشد له أحد، أو يعبّر له أحد بكلام جميل لطيف! وغاية ماهنالك أن يمرّ به الناس مسلِّمين!!

لستُ أعترض على أن تكون هناك موعظةٌ خفيفةٌ، يحصل بها

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب النكاح، باب: الغناء والدف (١٩٠٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، قال البوصيري في الزوائد: «إسناده مختلف فيه من أجل الأجلح وأبي الزبير، يقولون: إنه لم يسمع من ابن عباس، وأثبت أبو حاتم أنه رأى ابن عباس»، وهو في ضعيف سنن ابن ماجه (٤١٧).

(٢) أخرجها الطبراني في الأوسط (٣٢٦٥) من حديث عائشة رضي الله عنها، قال الهيثمي في المجمع (٤/ ٦٣١): «رواه الطبراني في الأوسط، وفيه رواد بن الجراح، وثقة أحمد وابن معين وابن حبان، وفيه ضعف».

التوجيه، وتُغتنم بها مناسبة الاجتماع، لكنْ لا ينبغي أن يتحول العرس إلى مهرجانٍ دعويٍّ تكثر فيه المواعظُ وتُطوَّلُ الخطبُ!! بل يجب أن تكون فيه الأهازيجُ والدعاباتُ وأسبابُ المرحِ وجوالب الفرح.

لا بدّ أن نفرحَ للعريس وأن نؤانسه وأن نقول له كلمات جميلة ولطيفة، وهذه هي ميزة المجتمع الراشد أن يكون واقعيّاً، وأن يكون فيه نوع من الودّ والألفة البشرية. ولذا قال ﷺ: «**أرسَلتم معها من يغنّي؟**» فكان هو الذي (اقترح) هذا الغناء، ثم زاد على ذلك أن (اقترح) كلماتٍ تُغنَّى في تلك المناسبة.

ويستمرُّ النبي ﷺ في ترسيخِ هذه (الحالة الطبيعية) للحياة الإنسانيةِ حتى في مواسم العباداتِ، فقد دخل أبو بكر رضي الله عنه على ابنته عائشة رضي الله عنها في أيّام منى، فوجد عندها جاريتين تدفِّفان وتضرِبان، والنبيُّ ﷺ متغَشّ بثوبه، فانتهرهما أبو بكر، فكشف النبي ﷺ عن وجهه فقال: «**دَعهما يا أبا بكر؛ فإنها أيام عيد**»(١). فأبو بكر الصديق رضي الله عنه استغرب من هذا الوضع، كيف يكون الغناء في أيام الذكر والعبادة؟! وبين يدي رسول الله ﷺ؟! ولذا جاء في رواية أنه قال: أبمزمور الشيطان في بيت رسول الله ﷺ؟!(٢) وإزاء استغراب أبي بكر واستنكاره جاء الجواب النبويُّ مليئاً بالواقعية والإنسانية: «**دَعهما يا أبا بكر؛ فإنها أيام عيد**»، وفي رواية قال: «**دعهما يا أبا بكر؛ إنّ لكل قوم عيداً، وإنّ عيدَنا اليوم**»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب العيدين، باب: إذا فاته العيد يصلي ركعتين وكذلك النساء ومن كان في البيوت والقرى (٩٤٤)، ومسلم في صلاة العيدين، باب: الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجها البخاري في كتاب العيدين، باب: الحراب والدرق يوم العيد (٩٠٧)، ومسلم في صلاة العيدين، باب: الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجها البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب: مقدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة =

إذن.. من الدين أن يتفسّح الإنسان، ومن الدين أن يستَأنس، ومن الدين أن يعلن الفرح في مواسم الفرح، لكن البعض للأسف ظنّ أن التديّن محصورٌ في العبادة في المسجد وسماع المحاضرات! ولذلك فهو لا يرى في الحياة إلا أمرين: طاعة وقربان، أو مخالفةٌ وعصيان!! وليس في نظرته مساحة للهو المباح، والأنس البريء، والفسحة المحمودة!

وكل ذلك مما يخالف هدي النبيِّ ﷺ كما رأينا.. وكما سنرى.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ في سفرٍ، وكان معه غلام له أسود يقال له: أنجشة يحدو، فقال له رسول الله ﷺ: «**ويحَك يا أنجَشَة، رويدَك بالقوارير**»(١).

أراد بـ (القوارير) النساء، شبههنّ بها لرقتهنَّ وسرعةِ تأثرهنَّ.

والمقصودُ نساؤُهُ ﷺ، بدليل ما جاء في رواية أحمد: «وَكَانَ حَادٍ يَحْدُو بِنِسَائِهِ أَوْ سَائِقٌ، فَكَانَ نِسَاؤُهُ يَتَقَدَّمْنَ بَيْنَ يَدَيْهِ».

فالنبي ﷺ كان مع زوجاته الشريفات، ومعه أنجشة رضي الله عنه وهو يغنّي بغناء جميل، فتأثرت النساء اللواتي كُنّ معه عليه الصلاة والسلام بحسن الكلام والصوت والأداء، فقال النبي عليه الصلاة والسلام لأنجشة: «**ويحَك يا أنجَشَة، رويدَك بالقوارير**»، أي: ارفُق بالقوارير.

وتأمل هنا كيف أنَّ النبيَّ ﷺ لم يزجرْ أنجشةَ، ولم يقل له: كُفَّ

= (٣٧١٦)، ومسلم في صلاة العيدين، باب: الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه عن عائشة رضي الله عنها.

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب: ما جاء في قول الرجل ويلك (٥٨٠٩)، ومسلم في الفضائل باب: رحمة النبي ﷺ للنساء وأمر السواق مطاياهن بالرفق بهن (٢٣٢٣).

عن هذا فقد فتن النساء بك وكدنَ يسقطنَ، ولم يتوسّل بسدِّ الذرائع لإسكاتِهِ، بل وجّهه وأرشده وعلمه فحسبُ! وقال: «رفقاً بالقوارير»!.. قَالَ أَبُو قِلَابَةَ ـ كما هو عند البخاري ـ فَتَكَلَّمَ النَّبِيُّ ﷺ بِكَلِمَةٍ لَوْ تَكَلَّمَ بِهَا بَعْضُكُمْ لَعِبْتُمُوهَا عَلَيْهِ قَوْلُهُ: «**سَوْقَكَ بِالْقَوَارِيرِ**».

وهكذا نرى كيف تقبّل النبيّ ﷺ حداء أنجشة بقبولٍ حسنٍ تأكيداً على اعتراف الإسلام بالطبيعة الإنسانية البشرية التي تميل إلى الترويح والتنفيس، واكتفى النبي ﷺ بتوجيه أنجشةَ عندما رأى منه تجاوزاً.

وبعض الوعاظ اليوم يتكلّمون عن المنشدين بكلام قاسٍ، ويريدون أن يمنعوهم من الإنشادِ، وهذا خطأ، وإنما المطلوب منك الترشيدُ، كما قال النبيّ ﷺ لأنجشة: «**رُويدَك بالقوارير**». فنحن دورُنا الترشيد، وليس دورنا المنع إلا إذا وصل إلى دائرة المنع!

ومما يندرجُ في هذا السياق ما وقع مع الصحابي الجليل عامر بن الأكوع رضي الله عنه، يقول سلمة بن الأكوع رضي الله عنه: خرجنا مع النبي ﷺ إلى خيبر، فسِرنا ليلاً، فقال رجل من القوم لعامر: يا عامر، ألا تسمعنا من هنيهاتك؟ وكان عامر رجلاً شاعراً حدَّاء، فنزل يحدو بالقوم يقول:

اللّهمّ لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدَّقنا ولا صلَّينا
فاغفر فداءً لك ما اتَّقينا وثبِّتِ الأقدام إن لاقينا
وألقِيَن سكينةً علينا إنّا إذا صِيحَ بنا أَبَينا
وبالصّياح عوَّلوا علينا

فقال رسول الله ﷺ: «**من هذا السائق؟**» قالوا: عامر بن الأكوع،

قال: «**يَرحمه الله**»، قال رجل من القوم: وجبت يا نبيَّ الله لولا أمتعتنا به[١].

وإنما قال ذلك الرجل ما قال لأنّه علم بالنظرِ أنَّ من دعا له النبي ﷺ بالمغفرة سيموت شهيداً، وقد مات عامرٌ رضي الله عنه شهيداً.

ومن هذا الباب أيضاً استماع النبيِّ ﷺ للأبيات الجميلة الرائعة، حتى إنه أحياناً كان يستمع إلى مائة بيت من الشعر في مقامٍ واحدٍ!

وكان السودان في يوم عيدٍ يلعبون بالدّرق والحراب، فقال رسول الله ﷺ لعائشة رضي الله عنها: «**تشتهين تنظرين؟**» قالت: قلت: نعم، فأقامني وراءَه، خدِّي على خدِّه وهو يقول: «**دونَكم يا بني أرفدة**»، حتى إذا مللتُ قال: «**حسبك؟**» قلت: نعم، قال: «**فاذهبي**»[٢].

كل هذه المواقف تشهد بأنَّ النبي ﷺ كان حريصاً على (تطبيع) المجتمع، بمعنى جعله يعيش حياةً طبيعيةً، يتعامل مع الواقع كما هو في حدود الشرع والمباح.

وعلى هديه كان الصحابة رضي الله عنهم.

فقد صحَّ عنهم أنهم كانوا يزفِنون، أي: يرقصون!

والزَّفنُ: هو الرقص اليسيرُ مع الأهازيج الشعبية، وهو على شاكلةِ (عرضة أهل الجزيرة)، و(دبكة أهل الشام)، ولكل قومٍ طريقتهم. وكل ذلك لا بأس به شريطة أن يكون منضبطاً بضوابط الشريعةِ، فلا تظهر

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي، باب: غزوة خيبر (٣٩٦٠)، ومسلم في كتاب الجهاد، باب: غزوة خيبر (١٨٠٢).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب العيدين، باب: الحراب والدرق يوم العيد (٩٠٧)، ومسلم في كتاب العيدين، باب: الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه عن عائشة رضي الله عنها.

عورةٌ، ولا يكون اختلاط، ولا يكون الرقص فاتناً أو فيه تشبه، إلى غير ذلك من الضوابط المهمة.

ومن خبر الصحابة أيضاً ما رواه عبد الرحمن بن حاطب قال: خرجنا مع عمر في الحجّ الأكبر، حتى إذا كُنّا بالرّوحاء كلَّم القوم رباحَ ابنَ المغترف وكان حسنَ الصوت بغناءِ الأعراب، فقالوا له: أَسمعنا يا رَباح، وقصِّرْ عنا المسير، قال: إني أفرَق من عُمر، فقام أصحاب رسول الله ﷺ إلى عمر فكلَّموه وقالوا: إنّا كلَّمنا رباحاً يُسمعنا ويقصّر عنا المسير، فأبى إلّا أن تأذَن له، فقال: يا رباح، أسمِعهم وقصِّر عنهم المسير، فإذا أسحَرتَ فارفع، قال: وحدَا لهم من شعرِ ضرار بن الخطّاب، فرفع عقيرتَه يتغنّى وهم محرِمون[1].

إنّ الرسالة التي أريد أن أصل إليها هي أنّ مجتمع المدينة في أزهى عصورِهِ كان يأنس بهذه الأمور (النشيد والحداء والشعر والزفن.. وهلم جراً)، فهو على جلالتِهِ ونظافتِهِ مجتمعٌ تتخلّل فيه أمور الفن الحضاريّ بهدوء، دون غلوّ أو تطرف، وفي نفس الوقت دون تساهلٍ.

وهكذا يكون المجتمع المسلمُ في تعامله مع الفرح وأسبابه ومظاهره طبيعياً عفوياً شريطة ألا يقع في محذور، والذين يريدون مجتمعاً لا مكان فيه لهذه الأشياء مخطئون، وكذلك الذين يريدون مجتمعاً (يغرق) في هذه الأشياء مخطئون؛ لأنّ الأمر إذا زاد عن الحدّ الطبيعي أضرَّ، قال ﷺ: «**لأَنْ يمتلئ جوفُ أحدكم قيحاً خير من أن يمتلئ شعراً**»[2].

---

(١) أخرجه الخطابي في غريب الحديث (١/ ٦٥٨).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب، باب: ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر حتى يصده عن ذكر الله والعلم والقرآن (٥٨٠٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

رسالة إلى كل داعية وإلى كل مصلح وإلى كل جماعة مسلمة: أن لا نجعل الفنّ بعيداً عن المعيشة الإنسانية، إنّه جزء من الحياة وجزء من المعيشة، إذا فهمناه بهذه الضوابط وأعطيناه وقته الذي يلائمه.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يحيينا على سنَّة نبينا محمد ﷺ.

❁ ❁ ❁

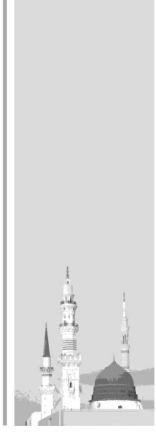

قصص الحب في المجتمع النبوي

اليوم سأحلق معكم في فضاء (قصة حب) عجيبة شهدتها المدينةُ في أيام النبيّ ﷺ.

قصةٌ عجيبةٌ بتناقضاتها، بتفاعلاتها، ببداياتها ونهاياتها!!

وهي عجيبةٌ أيضاً بموقف النبيّ ﷺ منها، وحكمته البالغة في التعامل معها، وإنسانيته الرفيعة في تناولها.

إنّها قصةُ (مغيثٍ) و(بريرة)... فهلمّوا إلى تفاصيلها.

كان مغيثٌ عبداً، وكانت بريرةُ أمَةً وكانا زوجينِ يجمعهما بيتٌ واحدٌ.

ضاقتْ بريرة بالعبودية، وتاقت إلى حياةِ الحريةِ، إلى أن تكونَ مالكةً أمرَ نفسِها، حرةً في تصرفاتِها، فسعتْ إلى سيّدها تقنعه بالمكاتبةِ، فكاتبَها على تسعةِ أواقٍ كلَّ سنةٍ أوقيّة. والمكاتبةُ: أن يشتري العبد نفسه وحريّته بمالٍ يدفعُهُ إلى سيده.

فلما ثقلَ الأمر على بريرةَ لجأت إلى عائشة رضي الله عنها تستعين بها، فاشترتْها عائشةُ رضي الله عنها ثم أعتقتها، فصارتْ حرةً ولاؤُها لعائشةَ، لقوله ﷺ: «**الولاءُ لمن أعتق**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الشروط، باب الشروط في البيوع (٢٧١٧).

وهكذا أصبحتْ (بريرةُ) حرةً بينما زوجُها عبدٌ، والحكمُ الشرعيُّ في هذه الصورةِ أن تخيّرَ الحرةُ بين بقائها تحت زوجِها العبدِ وانفصالها عنه.

واختارتْ بريرةُ أن تفارقَ مغيثاً!

وصُعِقَ مغيثٌ لهولِ الصدمةِ، وتفرّقت نفسُهُ شعاعاً، فقد كان يحب بريرةَ حباً جماً، وغلبَه الهمُّ لما حصل منها، وراجعها فما رجعتْ عن قرارِها، فانصرف إلى رسول الله ﷺ باكياً يسأله الشفاعة عندها، فخاطبها ﷺ فقال لها: «**يا بريرة، اتَّقي الله؛ فإنه زوجك وأبو ولدك**»، فقالت: يا رسول الله، أتأمرني بذلك؟ قال: «لا، إنما أنا شافع»، فقالت: لا حاجة لي فيه!

فحينئذٍ غلبَ مغيثاً حبُّهُ، وذهبتْ بعقلِهِ النازلةُ، فصار يتبعُ بريرةَ في الأسواق والسكك ودمعُهُ يسيلُ على خدّه!!

وذاع الأمر واشتهر حتى قال ﷺ للعباس ذات يومٍ: «**ألا تعجب من حبّ مغيثٍ بريرة وبغضها إيّاه؟!**»[1].

هذه القصةُ الغريبة التي شهدتها المدينة في عهد النبوّةِ فيها من وجوه العبرة والفائدة الشيء الكثير، وقد قال ابن حجرٍ في الإصابةِ: وقد جمع بعض الأئمة فوائد هذا الحديث فزادت على ثلاثمائة!!

ولا سبيل لنا إلى استيفاء هذا كله، ولكننا سنعالج جانبا محدوداً من فوائد هذه القصة يكون ملامساً لواقعنا وحياتنا الاجتماعية.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الطلاق، باب: شفاعة النبي ﷺ على زوج بريرة (٤٩٧٩)، وأبو داود في كتاب الطلاق، باب: في المملوكة تعتق وهي تحت حر أو عبد (٢٢٣١)، وغيرهما، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

لقد كان أول ما لفتني في قصة (بريرة) تقدير النبيّ ﷺ للحقوقِ، ولا سيما حقوق الضعفاء كالمرأةِ، ذلك أنّه لم يُجْبِر بريرة على العودة إلى زوجها، بل أخبرها أنّه ﷺ مجردُ شافعٍ وأنّ الأمر لها، لأنَّ ذلك من حقوقها الشرعية كما بينتُهُ من قبل. وهكذا يجبُ على المجتمع المسلم أن يحفظ حقوق أبنائِهِ فلا يجور على الضعيف، ولا يتقوّى على المرأة فيزوجها قهراً مَنْ لا تريد، أو يغصبها على بعض مالها بغير وجه حقّ.

للأسف.. نجدُ بعض العوائل اليوم لاتعطي المرأة حقها، فالبنت لا قرار لها! والزوجة لا قرار لها! والأخت لا قرار لها! وهذا خطأ، فللزوجة قرار في بعض المواطن، وللبنت قرار في بعض الأشياء، وللأخت مثلك ذلك. وليس صحيحاً أن كلّ شيء في البيت يرجع القرار فيه للأب، نعم للأب حقوقٌ، وللأم كذلك حقوق، ويجب على الأبناء أن يستمعوا لهما، ولكن يجب أن يفهم الأب والأم أيضاً أن هؤلاء الأولاد لهم حقوقهم، ولهم اختيارهم الخاص في أمورهم الحياتية كالدراسة والزواج ونحوهما.

وفي القصةُ ملحظٌ آخرُ لطيفٌ، هو اعترافه ﷺ بالمشاعر الإنسانيةِ، لقد أحسَّ بمعاناةِ مغيثٍ، وأدرك أن ما حمله على فعله هو شعورٌ صادقٌ غالبٌ لا يملكُ له رداً، لذلك لم يسفّهُ ولم ينهه، بل سعى معه في لمّ شملِهِ بزوجِهِ، وحين لم يفلح المسعى لم يزد على أن تعجّب من حاله فقال للعباس: «**ألا تعجب من حبّ مغيثٍ بريرة وبغضها إيّاه؟!**».

وفي المقابل قدّر عليه الصلاة والسلام مشاعر بريرةً، فرغم أنّ بغضها لمغيث لم يكن مبرراً، ولم يكن له سببٌ منطقيٌّ إلا أنّه سلَّمَ لها ﷺ ولم يعبها على ذلك.

وقد جاءت معالجة النبيّ ﷺ لهذا الحدثِ، وتعامله مع هذه القصة، مندرجاً في هذا السياق الإنسانيِّ، فقد ترك النبيّ ﷺ للزمن أن يعالجَ الأمر، وأن يطفئ لوعةَ مغيثٍ رضي الله عنه، ذلك أنَّ كثيراً من مشكلاتِ الحياةِ ولا سيما ما كان متعلقاً منها بالمشاعر والأحاسيس يحتاج إلى زمنٍ كافٍ لمحو آثارِهِ.

والبعض للأسف إذا مرت به مشكلةٌ أراد أن يحلها بأسرع وقتٍ، وبأي طريقةٍ! فالآباء مع الأبناء، والأمهات مع البنات، والشعوب مع الحكام.. الجميع يريد أن يحل مشاكله سريعاً.. وما هكذا تورد الإبل!!

لا بدّ أن يأخذ الزمن مداه.. نعم نحن لا ندعو إلى التراخي في حل المشكلات، ولكننا نقول: إن هناك ضروباً من المشكلات ليس لها حلٌّ إلا أن يستعان بالله عليها وتترك لعجلة الزمنِ الدائرة، فهو وحده الكفيل بمحو آثارِها.

وذلك ما فعله النبي ﷺ هنا..

لقد ترك مغيثاً وشأنه! تركه لأنه يعرف أن الزمن وحده هو الذي سيداوي جراحه، ويخفف آلامه، ويصير به إلى حال أحسن من التي هو عليها الآن.

وقد كان بإمكان ﷺ أن يرفع يديه داعياً، أو يمسح على صدر مغيث فيذهب كل ما يجد، ولكنْ كأني به ﷺ أراد أن يقدّم لأمته هذا الدرس، درس الصبر، وترك الزمن يفعل فعله عندما لايكون هناك ما يمكن فعلُه.

والأخبار لم تذكر لنا أنَّ مغيثاً بقي على ولهه هذا، بل ظاهرها أنه قد اعتدل مزاجه مع الزمان وتكافأت أجزاءُ نفسه، ورجع إلى ممارسة حياتِهِ عاملاً عابداً، وهذا فيه درسٌ بليغٌ جداً.. لأن كثيراً ممن تورّطَ في

الحبّ على وجهٍ لا يحسُنُ يظنّ أنه وقع في ورطةٍ أبدية!! وأنّه لا سبيل له للخروج ولا للفكاك! وذلك من تسويل الشيطانِ، فإن النفس إذا عُزِّيَتْ تعزَّتْ، وإذا سُلِّيَتْ تسلَّتْ. وكم مرت بنا من تجارب وأخبار لأناس كانوا يقولون: وكيف نترك فلانا؟ أو نبتعد عن فلانة وهي الشمسُ والقمر؟ ثم مرت الحياة بحوادثها وبَرَدَ الفؤادُ:

كأن لم يكن بين الحَجون إلى الصفا أنيسٌ ولم يسمر بمكةَ سامرُ!!

عبرةٌ أخرى..

يقول بعض الحكماء: «الحب جميل، ولكن الأجمل منه أن يكون بعقل».

إنَّ الإسلام لا يرفضُ الحبَّ، ولكنّه لا يقبل الجنونَ الذي يمارسه البعض باسم الحبّ. وفي الحديث يقول النبيّ ﷺ: «**أحبِب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وأبغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما**»(١).

إنها تربية على (المشاعر العاقلة)، المشاعر التي لها وازعٌ من العقل، لا المشاعر التي لها سلطانٌ على العقل.

«**أحبب حبيبك هوناً ما**» أي: إذا أحببت أحداً فأحبّه باعتدال، نعم.. قد يكون شكله حسناً، وقد يكون كلامه طيباً، وقد تكون أخلاقه جميلة، ولكن مع ذلك هوناً ما.. رويداً رويداً.. شيئاً شيئاً.. حتى لا تندفع إلى أقصى الطرف، فـ «**عسى أن يكون بغيضك يوماً ما**»!! أي: يمكن أن يصير بينك

(١) أخرجه الترمذي في البر، باب: ما جاء في الاقتصاد في الحب والبغض (١٩٩٧)، والطبراني في الأوسط (٣٣٩٥، ٦١٨٥)، والبيهقي في الشعب (٥/ ٢٦٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني في غاية المرام (٤٧٢).

وبينه موقف لا تصبر عليه ولا تستطيع أن تتحمله؛ فيتحول الحب إلى بغض، والحبيب إلى عدو!! وما أشد عداوة المحبين إذا تباغضوا!!

وفي المقابل ..«**وأبغض بغيضك هوناً ما**»، أي: إذا كانت بينك وبين أحد مغاضبة وبغضاء فليكن ذلك هونا ما؛ «**عسى أن يكون حبيبك يوماً ما**»! وسبحان مقلب القلوب.

ومن حرص الإسلام على (الاعتدال) في العاطفةِ، ولاسيما عاطفة الحبّ، أنّه سدَّ منافذَ العشقِ والتعلقِ بالصور والأشكال وذلك بتشريعه (غضّ البصر). فالحكمةُ من غضِّ البصر ألا يكون الإنسان صريع هواه، وأسيره عشقِهِ، فهو بابٌ من أبواب السلامةِ، على نحو قول القائل:

إن السلامة من سلمى وجارتها ألا تمر على حال بواديها

وقد حكى ابن الجوزي أن أحدَهم ذهب إلى العمرة، فبينما هو في طوافه بصر بامرأة ذات جمال وقوام، فتعلق بها!! فجعل يلومُ نفسه ويقول:

ما كنت أحسب أن الحب يعرض لي عند الطواف ببيت الله ذي الستر
حتى ابتليت فصار القلب مختبلاً من حبّ جاريةٍ حوراء كالقمر
يا ليتني لم أكن عاينت صورتها يا ويحي ممَّا توخاني به بصري

ولعله لمثل هذا قال ابن الجوزي: غُضّوا أبصاركم ولو عن شاةٍ أنثى!! وهي عبارةٌ فيها مبالغةٌ ولا شكَّ، ولكنّها دالةٌ على عظيم الخطرِ في إطلاق البصر.

ومن ضمن الأشياء التي نستفيدها من الحديث: التربيةُ والتوجيهُ بضربِ المثالِ، فقول النبي ﷺ للعباس رضي الله عنه: «**ألا تعجب من حبّ مغيثٍ**

بريرة وبغضها إيّاه؟!» ليس مجرد تعجب، بل هو استغلالٌ لهذا المثالِ الإنسانيِّ القائمِ في توجيه رسالة تربويةٍ عميقةِ الأثر.

وفي هذه الكلمة النبوية كذلك دليلٌ على مشروعية تدارس أخطاء المجتمع وعيوبِهِ، وطرحها للنقاش، وجعلها تحت مجهر التحقيق والمراجعة والمفاتشة بغية العلاج والتنقية والترقية.

ومما نأخذه من هذه القصة العجيبة أنّ الحبَّ الناجح في حقيقتِهِ هو الانسجامُ والتفاهمُ، وليس هو مجرد شعورٍ طاغٍ، أو كلامٍ جميل، أو لحظاتٍ رومانسية (مع أهمية ذلك كله).

وها نحن نرى مغيثاً قد أسال الحبُّ دمعَهُ، وجرجره في السكك، ومع ذلك لم يكن حباً ناجحاً دائماً!!

وأختم بقصة لطيفة وسريعة تؤكد ما قلته من قبل من ضرورة توظيف الزمن في العلاج وعدم اليأس...

جاءني أحد الآباء وقال لي: إن ابني غيرُ بارٍّ بي، وهو مشتغل باللهو، غافل عن صلاتِهِ وواجباتِهِ! ثم هو الآن يريد الزواج!! وما كنتُ لأسمح له وهو بهذه الحال.

فقلت: هذا أمر وهذا أمر. نعم يلام على تقصيره في الصلوات والعبادات والواجبات، ولكن هذا ليس سبباً في منعِهِ من حقه الشرعي في الزواج.

ولا زلتُ مع الأب إلى أن اقتنع وزوّج ابنه.

ومرت الأيام.. ومرض هذا الأبُ مرضاً شديداً فلم يقف معه في شدته هذه أحدٌ كما وقف معه ابنه هذا الذي كان يصفه بالعقوق!!

بل إنّ هذا الابن صلح شأنه بعد الزواج، وحسُنَ دينُهُ، وأصبح من الدعاة المصلحين الذين يهدي الله على أيديهم!!

فليثق الإنسان بربّه، ولينزع عنه اليأس، وليأخذ بالأسبابِ وهو رافعٌ يديه إلى السماء يدعو.. وحينها ما أقرب الإجابة.. وما أسرع تحقق الأمل.

❋ ❋ ❋

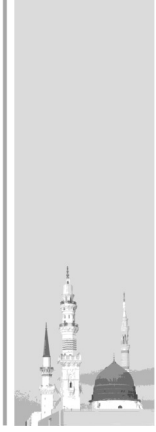

أداء الفرائض في المجتمع النبوي

من أهمِّ مميزات المجتمع الراشد حِفاظُهُ على الفرائض، وعنايتُهُ بها، ثم بعد ذلك الحرص على النوافل والاستكثار منها، وذلك من باب مراعاة الأولويات، وترتيب الواجبات في الحياة.

ولعل من أظهر سماتِ هذه الميزة في المجتمع المدنيّ النبويّ الحرصُ على صلاةِ الفجرِ في جماعةٍ، ثم بعد ذلك الحرص كذلك على قيام الليل.

وحينَ أُسِر الصحابيُّ الجليل ثمامة بن أثال رضي الله عنه ـ قبل إسلامه ـ أمر به النبي ﷺ فربط في سارية المسجدِ، وكان ذلك ضرباً من العقوبة التأديبية التربوية، فقد أراد ﷺ أن يرى ثمامةُ المجتمع المسلم في عبادتِهِ وخضوعِهِ بين يدي ربه، ليكون ذلك سبباً في إسلامه، وقد كان.

لاحظَ ثمامةُ أمراً عجيباً، فقد كان الصحابةُ رضي الله عنهم لاينقطعون عن المسجد طوال الليل! فما إن تنقضي صلاةُ العشاء حتى يفدَ الصحابة رضي الله عنهم جماعاتٍ جماعاتٍ، كل جماعةٍ تتلو أختها، فتقوم هذه من أول الليل، وهذه من وسطه، وتلك من آخره وهكذا.

حتى إذا كان الفجرُ لم يكد يؤذن المؤذن إلا والمسجدُ قد امتلأ عن بكرة أبيه، فما فيه موطئ شبر إلا وفيه مؤمنٌ ساجدٌ أو راكعٌ أو ذاكر.

وكان هذا مما أدهش ثمامةَ، وأثر فيه تأثيراً بالغاً...

رأى تلك الحشود تنفض عن أعينها النوم، وتفارق الفراشَ، من أجل أن تسجد لله، وتصطف بين يديه في ساعات النهار الأولى.

والحفاظُ على صلاة الفجرِ خاصةً سمةٌ من أجلى سماتِ المجتمع النبوي المدنيّ، بل كانت صلاة الفجر مرتبطةً بكثير من فواضل الأمور..

فقد كانت صلاةُ الفجرِ ميقاتاً لغزوِ النبيّ ﷺ، وكان أذانُها فيصلاً بين المؤمنين الذين لا يُغارُ عليهم، وسواهم ممن يستحقون الإغارة، فقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كان النبيّ ﷺ إذا غزا بنا قوماً لم يكن يغزُو بنا حتى يُصبح وينظر؛ فإن سمع أذاناً كفَّ عنهم، وإن لم يسمع أذاناً أغار عليهم»[(١)].

وكانت صلاة الفجر ميعاداً لجلوس النبي ﷺ مع أصحابِهِ، يعظُهم ويحدثهم، ويسمع أخبارهم، ويعبّر رؤاهم.

وكانت صلاة الفجر كذلك فاتحةَ جلسةِ الإشراق، تلك الجلسة المباركةُ التي كانت غذاء القوم وزادهم.

هكذا كان الفجر عندهم.. عبادةً وإقبالاً وجمالاً وطاعةً..

بادر الفجر واشتمل بإزاره ... وتمتع بالحسن في أغواره
ودع الهيكل الترابي حينا ... واسر بالروح في مدى مضماره
وتأمل فيض الجمال على الوا ... دي نضيرا يشع في أسحاره
سترى غرة ليوم جديد ... كان في الغيب وانبرى من ستاره

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأذان، باب: ما يحقن بالأذان من الدماء (٥٨٥)، ومسلم في كتاب الصلاة، باب: الإمساك عن الإغارة على قوم في دار الكفر إذا سمع فيهم الأذان (٣٨٢).

وعلى مثل هذا المذهب النبويّ في الحفاظ على صلاة الفجر سارَ الخلفاء الراشدون ﷺ.

فقد كان أبو بكر ﷺ شديد الحفاظِ على صلاة الفجر، ليس في المدينة فحسب، بل حتى في مكة، وحين منعته قريش من الجهر بصلاتِهِ اتخذ له مصلى خاصاً فلم تكن تفوته صلاةُ الفجر ولا غيرها من الصلواتِ.

وكذلك كان عمر بن الخطاب ﷺ، بل إن عمر لم يكن ينامُ إلا الخطفةَ بعد الخطفة، وقد كان ينعس وهو قاعد، فقيل له: يا أمير المؤمنين، ألا تنام؟! فقال: «كيف أنام؟! إن نمتُ بالنهار ضيّعتُ أمورَ المسلمين، وإن نمتُ بالليلِ ضيَّعتُ حظّي من الله عزّ وجلّ»[1]، كان يمضي ليله قائماً ﷺ، وبالتالي فلا يمكن أن تضيع صلاة الفجر.

وعثمان بن عفان ﷺ كان من أهل صلاة الفجر الحريصين عليها، المشددين في شأنها.

وعلي بن أبي طالب ﷺ قُتِل وهو يصلي بالناس الفجر، وله ﷺ تلك الكلمةُ المشهورةَ حين رأى غفلة الناس عن قيام الليل، فالتفتَ إلى تلك الصفوف التي صلت معه الفجر وقال: «والله لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ فما أرى اليوم شيئاً يشبههم. لقد كانوا يصبحون شُعْثاً غُبْراً، بين أعينهم أمثال ركب المعزى، قد باتوا سجداً وقياماً، يتلون كتاب الله تعالى ويراوحون بين جباههم وأقدامهم، فإذا أصبحوا فذكروا الله عز وجل، مادوا كما يميد الشجر في يوم الريح، وهملت أعينهم حتى تبلَّ ثيابهم، والله لكأن القوم باتوا غافلين».

(١) انظر: إحياء علوم الدين (١/ ٣٥٠)، وصفة الصفوة (٢/ ٣٨٢).

هكذا يصف علي ﷺ من أدركهم من صحابة رسول الله ﷺ، وهو يقصدُ بهذا الوصفِ معاتبةَ معاصريه الذين كان غايةُ جهدِ بعضهم أن يدرك الفجر في جماعة!

وإنّما عَتَب علي ﷺ على من ترك قيام الليل وإن صلى الفجر لأنَّ في ترك هذا القيام غفلةً وتمكيناً للشيطان كما أخبر ﷺ بقوله عن رجل نام ليلةً حتى أصبح: «**ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه**»(١).

والمقصود بقوله ﷺ: «**بال الشيطان في أذنيه**» ما يصاب به الإنسان من ثقل البدن وثقل الرأس، كما قال عليه الصلاة والسلام في حديث آخر: «**يَعقِد الشيطان على قافيةِ رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد، يضرب كلَّ عقدة: عليك ليل طويل فارقُد، فإن استيقظ فذكر الله انحلَّت عقدة، فإن توضّأ انحلّت عقدة، فإن صلّى انحلت عقدة، فأصبح نشيطاً طيِّبَ النفس، وإلَّا أصبحَ خبيثَ النفس كسلان**»(٢).

وخبيث النفسِ معناه: ضيّقُ الصدرِ، كاسف البال، مقيمُ الهمِّ، يتصرّف تصرُّف المغضبِ، وينفعلُ انفعال الموتور.

هذا هو حال من نام حتى أصبح.

وأما من أخذ حظه من الليل، ثم صلى الفجر في جماعةٍ، فذلك الذي يصبح طيب النفسِ، منشرح الصدرِ، مشرق الوجه.

---

(١) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب: صفة إبليس وجنوده (٣٠٩٧)، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب: ما روي فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح من حديث ابن مسعود ﷺ.

(٢) رواه البخاري في أبواب التهجّد، باب: عقد الشيطان على قافية الرأس إذا لم يصل بالليل (١٠٩١)، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب: ما روي فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح من حديث أبي هريرة ﷺ.

يقول ابن حجر العسقلاني في فتح الباري: هذا الحديث المقصود به من قام الليل، فهو الذي يقوم طيّبَ النفس وليس الذي يصلي الفجر، أما الذي لا يصلي من الليل فهو الذي يقوم خبيثَ النفس كسلان».

ذلك أنّ مجتمع الصحابة أصلاً كانوا يحافظون على صلاة الفجر في المسجد، وكانوا يركّزون على الجماعة لما لها من أثر، يقول النبيّ ﷺ: «**إنّ أثقَلَ صلاةٍ على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حَبواً**»(١)، ويقول ﷺ: «**بشِّرِ المشَّائين في الظُّلَم إلى المساجدِ بالنور التام يومَ القيامة**»(٢).

والبعض وللأسف يستهين بهذا الأمر، ويستهين بالخطوات إلى المسجد، ويستهين بهذه العبادة العظيمة، وابن عمر رضي الله عنهما يقول: «كنا إذا فقدنا الرجلَ في صلاة العشاء وصلاة الفجر أسأنا به الظنّ»(٣). هكذا كان يقول سلف الأمة رضي الله عنهم وأرضاهم.

وإذا تأمّل المسلم سيرةَ الأئمّةِ: أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد رحمهم الله فسيجدهم جميعاً من روّادِ صلاة الفجر في المسجد، بل كان

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجماعة، باب: فضل العشاء في الجماعة (٦٢٦)، ومسلم في كتاب المساجد، باب: فضل صلاة الجماعة وبيان التشديد في التخلف عنها واللفظ له، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه أبو داود في كتاب الصلاة، باب: ما جاء في المشي إلى الصلاة في الظلَم (٥٦١)، والترمذي في كتاب الصلاة، باب: ما جاء في فضل العشاء والفجر في الجماعة (٢٢٣)، والبيهقي في الشعب (٣/ ٧٢) من حديث بريدة الأسلمي رضي الله عنه، وهو في صحيح الترغيب (٣١٥).

(٣) رواه ابن أبي شيبة (١/ ٢٩٢)، والطبراني في الكبير (١٢/ ٢٧١)، والبيهقي في الشعب (٣/ ٥٦)، وصححه ابن خزيمة (١٤٨٥)، وابن حبان (٢٠٩٩)، والحاكم (٧٦٤)، وأقره الذهبي، وقال الهيثمي في المجمع (٢/ ١٦٥): «رواه الطبراني في الكبير والبزار، ورجال الطبراني موثقون»، وهو في صحيح الترغيب (٤١٧).

أهلوهم يربونهم على ذلك، فأحمد بن حنبل رحمه الله يقول: كانت أمّي توقظني قبل صلاة الفجر، فتغسِّل ملابسي وتنظِّفها وتهيِّئها وتبخِّرها، ثم تذهب بي إلى صلاة الفجر، ثم تنتظرني عند الباب فتأخذني إلى البيت! كانت تفعل به هذا وهو طفلٌ صغير عمرُه سبع سنوات!

وكان معاوية بنُ قرّة رحمه الله يقول لأبنائه إذا صلَّوا العشاء: «يا بَنيَّ ناموا؛ لعلّ الله أن يرزقَكم من اللَّيل خيراً»[1]، فإذا كان في النهار أرزاق من طعام وشراب ومنتوجات ومنسوجات وغيرها فكذلك في الليل هناك أرزاق منها: بركة الدعاء، وقبول الدعاء، والتوبة لله سبحانه وتعالى، والتوفيق في الدارين.

واستقرِئوا لو أردتم التاريخ كلَّه، فستجدون أن العظماء كانوا يحافظون على هذه الفريضة العظيمة. خذوا من التاريخ ما شئتم ومن شئتم، صلاح الدين الأيوبي رحمه الله فتح بيت المقدس بعد صلاة الفجر، وعمر المختار رحمه الله قاوم الطّليان في الموقعة الفاصلة بعدما كان يجلس في جبال سويف الليبية ويصلي الليل ويقرأ القرآن، فإذا ما طلع الفجر صلّى الفريضة ثم أغار على الإيطاليين بعد صلاة الفجر.

وتعالوا إلى المتأخّرين...

ها هو أحمد ياسين يستشهد وهو عائدٌ من صلاة الفجر، وهاهو مالك بن نبي يحدث عنه وعن صحبه فيقول: «كنا في المدينة المنورة نتحدّث في شؤون المسلمين، حتى إذا اقترب وقت صلاة الفجر انطلقنا إلى المسجد النبويّ، وإنا لأول الداخلين»!

هذا هو مجتمع الدعاة الأكارم والعلماء العمالقة عبر التاريخ، لقد

(١) رواه عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد (١٨٧)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٢٩٩).

استطاعوا في الحقيقة أن ينتصروا على شهوات أنفسهم ويحافظوا على صلاة الفجر.

وإذا كانت تلك هي منزلة الفجر على العموم.. فإن صلاة الفجر في المدينة المنورة لها طعم خاص!! ومن جرب ذلك عرف.

إنها صلاةٌ ملؤها الروحانية والسكينةُ وحضور القلب وخشوع الجوارح.

في المدينة يتذكر الإنسان مواقف النبي ﷺ، ويتذكّر الصحابة الذين جلسوا في ذلك المكان، يتذكر كيف استطاع ذلك الجيل الفريد أن يراغم الشيطان، وأن ينتصر على نفسه، وأن يكون خالصاً مخلصاً لله.

ومن ثم فإنه يجدُ لهذه الصلاةِ مذاقاً خاصاً وطعماً فريداً.

❁ ❁ ❁

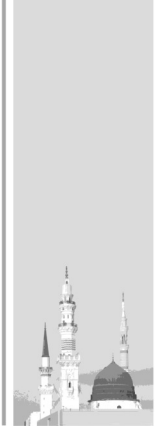

بيوت الناس
في المجتمع النبوي

هذا يومٌ من أيام المدينة المباركة الجميلة.

حدثت فيه قصة كثيرة العبرِ، عظيمة الدروس.

قال النبي ﷺ مرّةً لأصحابه: «**من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالثٍ، ومن كان عنده طعام أربعةٍ فليذهَب بخامس أو سادس**»، وهي دعوةٌ كريمة منه ﷺ تهدفُ لاستيعابِ الفقراء، وإطعام الجوعى، فمن كانت أسرتُهُ مؤلفةً من ثلاثةٍ فليأخذ معه رابعاً يطعمه، ومن كانت أسرتُهُ مؤلفةً من أربعةٍ فليأخذ معه خامساً يطعمُهُ وهكذا.

وقد كان ﷺ في هذه الدعوةِ يراعي حال (أهل الصفة) وهم أولئك المهاجرون الذي قدموا إلى المدينة ولا مال لهم ولا دار، فنزلوا في جانبٍ من المسجد يُعرف بـ (الصفة)، فكانوا على غايةٍ من الفقرِ لا يكادون يجدون قوتَ يومهم، وكان أكثر طعامهم مما يقعُ لهم من إخوانهم الميسورين، أو من القليل الذي يتفق لهم اكتسابُهُ.

فلما سمع أبو بكر الصدِّيق هذا الخبرَ استجاب لأمر النبي ﷺ، وأخذ ثلاثةً إلى بيته، وأخذ النبيّ ﷺ عشرة إلى بيته، فلما بلغ أبو بكر داره قال لزوجِهِ: هؤلاء ضيفي فأكرميهم، ثم قال لابنه عبد الرحمن: دونَكَ أضيافك فافْرُغْ من قِراهم قبل أن أجيء، فإني منصرفٌ إلى رسول الله ﷺ.

والقِرى: هو طعام الضيفِ.

وانصرفَ أبو بكرٍ رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ فصلّى معه المغربَ ثم تعشى معه ثم صلى العشاء.

وقد كان الصحابة الكرام يتعشَّون بعد المغرب مباشرةً، ثم ينامون، ولذلك يقول النبيّ ﷺ: «**إنّ أثقلَ صلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر**»[(١)]، فقد كانت العشاء ثقيلة لأنها توافقُ وقت نومٍ وإجهادٍ، بخلاف ما عليه حالنا الآن، حيث لا يكادُ ينام أحدنا قبل منتصفِ الليل.

وكان عليه الصلاة والسلام إذا وجد الصحابةَ مجتمعين لم يناموا قدَّم العشاء وبكّر بها، وإذا وجدهم ناموا أخرها إلى وقتِها الأصلي (ثلث الليل) وكل ذلك من باب الرفق بهم، قال ﷺ: «**إنه لَوَقتُها لولا أن أشقّ على أمَّتي**»[(٢)]، يعني: أنّ الأصل في صلاة العشاء أن تؤخرَ إلى ثلث الليل.

قلتُ: إن أبا بكر ترك ضيفه مع ابنه وانصرف إلى رسول الله ﷺ فصلى معه المغرب والعِشاء وتناول معه طعام العَشاء، ثم سمَرَ معه يتحدّثون في أمر الدعوة وأخبارها وأحوال الناس إلى غير ذلك، كل ذلك وضيفُهُ الثلاثةُ في بيتِهِ في عهدةِ ابنِهِ عبد الرحمن، وما يظن إلا أنهم قد أكلوا وشربوا.

فلما مضى هَزِيعٌ من الليل رجع أبو بكرٍ إلى بيتِهِ، فاستقبلته زوجُهُ وقالت: ما حبسك عن ضيفك؟ فقال: أوَما عشَّيتِهم؟! قالت: أبَوا حتى

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجماعة، باب: فضل العشاء في الجماعة (٦٢٦)، ومسلم في كتاب المساجد، باب: فضل صلاة الجماعة وبيان التشديد في التخلف عنها واللفظ له، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم في كتاب المساجد، باب: وقت العشاء وتأخيرها من حديث عائشة رضي الله عنها (٦٤٠).

تجيء! ولاحِظوا صبرَهم من صلاة المغرب إلى ما بعد العشاء بفترة طويلة! وذلك أنه صعُب عليهم أن يتعشّوا وصاحب البيت غير موجود، فقالوا: حتى يجيءَ أبو منزلنا فيطعم معنا.

وكان ولده عبد الرحمن قد أتاهم بما عنده فقال: اطعَموا، فقالوا: أين ربّ منزلنا؟ قال: اطعَموا، قالوا: ما نحن بآكلين حتى يجيء ربّ منزلنا، قال: اقبَلوا عنّا قِراكم؛ فإنه إن جاء ولم تطعَموا لنلقيَنَّ منه، وإنّه لرجلٌ حديد، وإنكم إن لم تفعلوا خفتُ أن يصيبني منه أذى، فأبوا!

ورأت الزوجةُ ملامح الغضبِ على وجهِ أبي بكرٍ لما وجد ضيفه بغير عشاء حتى هذه الساعة، فخافت على ابنِها، فاعتذرت له وقالت: قد والله عرض عليهم فغلبوه، فلم ينفعِ العذرُ وغلبَ الغضبُ أبا بكر ﷺ فسبَّ وجدَّع، واختبأ عبد الرحمن، فناداه أبوه مرتين فسكت! فقال في الثالثة: أين أنت يا غُنْثَر (أي: ياثقيل) جدَعَ الله أنفك؟ أقسمتُ عليك إن كنتَ تسمع صوتي إلّا جئتَ، فخرج إليه عبد الرحمن وقال: والله، ما لي ذنب، هؤلاء أضيافُك فسلهم، قد أتيتهم بقِراهم فأبَوا أن يطعموا حتى تجيء.

فتوجّه إليهم فسألهم فقالوا: صدق عبد الرحمن، فقال: كلوا إذنْ، والله لا آكل منه! فقالوا: ونحن والله لا نطعمه حتى تطعمه!!

كأنهم يقولون: نحنُ ننتظرك منذ أول الليل فلما جئتَ أبيتَ أن تأكل معنا!!

فاسترجع أبو بكر ﷺ وقال: أمَّا هذه (أي: قَسَمُهُ ويمينُه) فمن الشيطان، هلمّوا قِراكم، فجيء بالطعام فسمّى فأكل وأكلوا.

وبارك الله في طعامهم. يقول الراوي ﷺ وأرضاه: وايم الله، ما

كُنّا نأخذ من لقمةٍ إلا رَبَا من أسفلها أكثرُ منها حتى شبعوا وصارت أكثر مما كانت قبل!!

و(ربا من أسفلها) أي: زاد حتى صار أضعافاً.

فلما رأى أبو بكر ذلك قال لزوجِهِ أمِّ رومان: يا أخت بني فراس، ما هذا؟! فقالت: لا وقرّةِ عيني، لهي الآن أكثر مما قبل بثلاث مرار!

قال ابن حجرٍ: وَإِنَّمَا حَلَفَتْ أُمّ رُومَان بِذَلِكَ لِمَا وَقَعَ عِنْدهَا مِنْ السُّرُور بِالْكَرَامَةِ الَّتِي حَصَلَتْ لَهُمْ بِبَرَكَةِ الصِّدِّيق رضي الله عنه[1].

فلما زاد الطعام وكثر حمل منه أبو بكرٍ إلى رسول الله ﷺ، ثم دعا اثني عشر رجلاً مع كل رجلٍ منهم أناسٌ الله أعلم كم مع كل رجل، فأكلوا منها أجمعون[2].

ونلاحظ في هذه القصة أنَّ النبيّ ﷺ كان يربي أصحابه على المشاركة، أو على ما نسميه الآن (العمل التطوعي)، فمن كان عنده ثلاثةٌ أخذ رابعاً، ومن كان عنده خمسةٌ أخذ سادساً، وهكذا.

ونلاحظ فيها أيضاً مفهوم (القدوة) فالنبي ﷺ لم يكتف بدعوة أصحابِهِ إلى إطعام الجائع، واستضافة المحتاج، بل كان هو بنفسه ﷺ أكثرهم ضيفاً. كذلك كان أبو بكر قدوةً لغيره فقد انصرف بثلاثةِ أضيافٍ رضي الله عنه.

ونلاحظ كذلك التربية الأسرية في البيت، فأبو بكر رضي الله عنه يعوّد ابنه عبد الرحمن على استقبال الضيوف وإكرامهم وتقديم الطعام لهم، كما

---

(١) فتح الباري (١٠/ ٣٦٨).

(٢) رواه البخاري في مواقيت الصلاة وفي المناقب وفي الأدب (٥٧٧، ٣٣٨٨، ٥٧٨٩، ٥٧٩٠)، ومسلم في كتاب الأشربة، باب: إكرام الضيف وفضل إيثاره (٢٠٥٧) من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما.

أنه ﷺ كان يحاور زوجه ويستمعُ لها، فقد سألها أول ما قدم: أوَعشّيتهم؟ فقالت: أبَوا حتى تجيء.

بل لاحظْ مبادرة أم رومان ﷺ أبا بكرٍ بقولها: ما حبسك عن أضيافك؟

إنّها تحمل ذات الهم الذي يحمله زوجها، وتعتني بما يعتني به، وتشاركُهُ همومه وآماله وآلامه. والزوجةُ الواعيةُ هي التي تعين زوجها الداعية على أداء مهامِّهِ، وتحوطُهُ في بيتِهِ، وتصبرُ على مشاغلِهِ احتساباً للأجر من الله عزّ وجلّ.

وفي القصة كذلك السهر في طاعةِ الله، فقد بقي أبو بكر ﷺ يتحدث مع النبيّ ﷺ في شؤون الخير والدعوة من المغرب إلى وقتٍ متأخر من الليل، وهكذا ينبغي أن يكون الدعاة، يصرفون أوقاتاً طائلةً في سبيل الله، ولا يكتفون بإعطاء الدعوة فضول أوقاتهم.

ومن العجيب أنك تجدُ الرجل اليوم وهو يقول: الحمد لله، لقد بالغتُ في العمل للإسلام، فإذا نظرتَ لم تجده صرف إلا ساعةً من يومه أو دونها في عملٍ دعويّ!!

ومن فوائد القصة أيضاً أنَّ المؤمن رجّاعٌ إلى الحقّ، سريع الفيئةِ، وها هو أبو بكر لما أدرك أن يمينه لم تكن في محلها قال: إنما كان ذلك من الشيطان، فاستغفر وكفَّر وأكلَ.

ومن لطيف ما في القصةِ ما كان بين أبي بكر وزوجِهِ من المودة التي امتصَّتْ الخلافَ، إذْ لم يدم خلافُهما إلا دقائق، ثم رجعا إلى ما كان عليه من الصفاء والمحبةِ، وفي هذا درس للزوجين ألا يتخذا قرارات مصيرية في لحظاتِ غضبٍ، وفَوْراتِ زعل؛ لأنّ مآل ذلك إلى الندامة حيث لا ينفع الندم.

وأذكر لكم قصّة طريفة في هذا الباب...

وقع خلافٌ بين زوجينِ، فاحتدّتْ فيه الزوجةُ وبلغ منها الغضبُ مبلغَهُ فألحَّتْ على زوجها أن يطلقها، وأخبرته أنها لم تعد تطيق العيش معه ولاالبقاء، وطلبت إليه أن يكتب ورقة الطلاق الآن!

فكتب الزوج ورقةً ووضعها على الطاولة، ثم دخل إلى غرفةِ نومِهِ.

فلم يمضِ إلا القليل حتى رجعتْ إليه تسأله: ألم تطلقني حتى الآن؟ فقال لها: ألم تطلبي ورقة؟ قالت: بلى. قال: هي جاهزةٌ مكتوبةٌ ثم أغلق على نفسه باباً وأغلقت هي باباً آخر. فلما مرت ساعتانِ أو ثلاثة راجعها رشْدُها وأدركت شرّ ما وقعتْ فيه، فرجعت إلى زوجها تسأله هذه المرة سؤال الجزع: طلقتني؟ فقال لها: كم مرةً تسألين؟! أخبرتك أن ورقتك جاهزةٌ انظري إليها هناك.

أخذت الزوجة الورقة وهي نادمةٌ أشدّ الندم على تدميرها حياتها بيديها، فلما فتحتها إذا فيها: (أنتِ زوجتي وحبيبتي ومهما كان منك فلن أطلّقك أبداً)!

حينها غلبها السرور، وحمدت الله، وشكرت لزوجها عقله وتأنّيه، وقبّلتْه قبلةَ المحبةِ والإكبار.

وهكذا يتأكد لنا أن على الإنسان ألا يتخذ قرارات مصيرية في لحظةِ غضبٍ وانفعال.

وهكذا وجدنا في قصة أبي بكر مع أضيافِهِ كل هذه العبر والدروس.

وإنّه ليوم من أيام المدينة لا ينسى.

❁ ❁ ❁

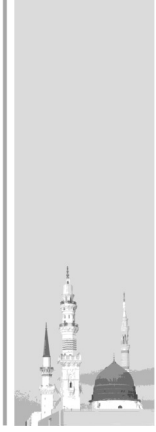

الحياة الزوجية في المجتمع النبوي

هذا يومٌ نبويٌّ نقضيه في بيت ابنةِ النبيّ ﷺ فاطمةَ الزهراء رضي الله عنها وأرضاها.

وسنرى في هذا اليوم كيف يكون الأبُ مع ابنتهِ، وكيف يكون الزوجُ مع زوجتِهِ، والزوجةُ مع زوجها، وكيف يكون البيتُ المؤمن في مواجهةِ مصاعب الحياةِ وأعبائها.

ولنقرأ الخبر كما وردَ في الصحيح ثمّ نعلِّق عليه...

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْتَ فَاطِمَةَ فَلَمْ يَجِدْ عَلِيّاً فِي الْبَيْتِ فَقَالَ: أَيْنَ ابْنُ عَمِّكِ؟

قَالَتْ: كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ شَيْءٌ فَغَاضَبَنِي فَخَرَجَ فَلَمْ يَقِلْ عِنْدِي.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِإِنْسَانٍ: انْظُرْ أَيْنَ هُوَ؟ فَجَاءَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هُوَ فِي الْمَسْجِدِ رَاقِدٌ، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ قَدْ سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ شِقِّهِ وَأَصَابَهُ تُرَابٌ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَمْسَحُهُ عَنْهُ وَيَقُولُ: «**قُمْ أَبَا تُرَابٍ قُمْ أَبَا تُرَابٍ**»(١).

---

(١) رواه البخاري في المساجد وفي المناقب وفي الأدب وفي الاستئذان (٤٣٠، ٣٥٠٠، ٥٨٥١، ٥٩٢٤)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب: من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه (٢٤٠٩) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

في هذه القصة النبوية عبرٌ لا حصرَ لها، ودروسٌ رائعةٌ للبيتِ المسلمِ، للأسرة التي تريدُ أن تبلغَ مرضاةَ ربِّها.

فأولُ ذلك أنّه ﷺ مع كثرة مشاغلِهِ وأعبائِهِ، وقيامِهِ بأمور الدولة المسلمةِ الناشئةِ، وانشغاله بالتدريس والفتيا والقضاء وتسيير الجيوش وتصريف أمور الأمة، مع ذلك كلِهِ لم يُغفل حقّ ابنتِهِ فاطمةَ رضي الله عنها بل ذهب إليها زائراً، ليضرب بذلك المثل لكل أبٍ ووليّ أمرٍ بأنْ يعتني بأسرتِهِ، ويهتمّ بأحوالِها.

وأكثر من هذا أنّه ﷺ كان يناقشُ أحوال ابنتِهِ الاجتماعية وعلاقتها مع زوجها ويتدخل بالإصلاح إن اقتضى الأمر ذلك.

ومن لطيفِ معاني هذه القصة سؤاله ﷺ عن عليّ بقولهِ: «**أين ابنُ عمِّك؟!**».. ذلك أنَّ هذا السؤال يدلُّ على أنّه ﷺ كان يتوقّعُ وجودَ عليٍّ رضي الله عنه في البيتِ في هذا الوقتِ، وفي هذا دليلٌ على أنَّ الصحابةَ رضي الله عنهم قد تربّوا على أنْ يجعلوا لبيوتهم أوقاتاً ثابتةً يجلسون فيها مع أهليهم، يباسطونهم، ويباحثونهم في شؤون الأسرةِ والأولاد، ويأكلون معهم.

ويبدو أنّ الوقت الذي زار فيه النبي ﷺ ابنتَهُ كان وقتاً قد اعتادَ عليٌّ رضي الله عنه أن يكون فيه في البيت، فلذلك سأل النبيّ ﷺ متعجباً حين لم يجده.

فأخبرتْهُ فاطمةُ رضي الله عنها أنّه قد وقع بينهما شيءٌ من مغاضبةٍ فخرج رضي الله عنه وأرضاه.

لم يخرج إلى ملهى ولا إلى مقهى.

لم يخرج ليجلس على شاطئ بحرٍ، أو في خميلةِ بستان.

لم يخرجْ ﷺ إلى أصحابِهِ ليشكو لهم زوجَته وسوء تعاملها وقلة عنايتها!!

لقد خرج حين غاضب زوجه إلى المسجد.. إلى بيت الله؛ لأنه المكان الذي تطمئن فيه نفس المؤمن، ويرتاح قلبه، وتنزل عليه فيه السكينة والطمأنينة.

وفي المقابل بقيتْ فاطمةُ ﷺ في بيتها. لم تخرج إلى أهلها، لم تذهب إلى أبيها مولولةً شاكيةً نادبةً حظَّها، شاتمةً زوجها، بل بقيتْ في دارِها حيث ينبغي لها أن تبقى.

لقد كان خروجُ عليٍّ ﷺ إلى المسجد وبقاءُ فاطمةَ في بيتها تصرفاً حكيماً، جعل المشكلة تنحصرُ بينهما، ولو بقيا يتراجعانِ الكلامَ أو ذهب كل منهما إلى طرفٍ خارجيٍّ يشكو له لتفاقم الأمر، وتطوّر الخلاف.

وهكذا يضرب لنا هذان الزوجانِ الشريفان ﷺ مثلاً عالياً في التعامل مع الخلاف الأسريّ.

ثم يأتي تصرف النبي ﷺ بعد ذلك ليبيّن لنا كيف يكون تصرف الوالد العاقل تُجاه ما تتعرض له ابنته من مشكلاتٍ عائليةٍ.

ذهبَ النبيّ ﷺ إلى المسجدِ ليلقى علياً ﷺ، ليَفهم منه ويُفهمه، فجاءه فوجده مضطجعاً قد سقط رداؤه عن ظهره فامتلأ ظهره تراباً، فجعل النبيّ ﷺ يمسح الترابَ عن ظهره ويقول: «**قُم أبا التراب، قُم أبا التراب**»، فكناه بأبي تراب لأجل التراب الذي عليه.

ثم أخذ بيده النبيُّ ﷺ، وذهب به إلى بيته، وأصلح ما بينه وبين زوجِهِ ﷺ وعنها، وهكذا صفتِ النفوس ورجعَت المياه إلى مجاريها.

وعلى مثل هذا الوعيِ والهدوء وحسن التصرف ينبغي أن يكون

الوالدانِ، فلا ينبغي لوالد الزوجة ولا لوالدتها إذا حصل خلافٌ مع الزوجِ أن يصعِّد الأمر، ويحوّله إلى معركةٍ مع الزوج وأهله! بل عليه أن يصبِّرَها، ويطيّب خاطرها، ويذكرها بأنه زوجها وأبو أولادها، وأنّه كم تعب من أجلها، واجتهد لراحتها...

وكذلك ينبغي أن يفعل والدا الزوجِ، فيذكرانِهِ بحقّ زوجتِهِ عليه، وبصبرها واحتمالها وحملها ووضعِها...

لننتقل معاً بعد هذا إلى موقفٍ نبويٍّ آخر في بيت فاطمة رضي الله عنها وأرضاها.

إنّه موقفٌ اجتماعيٌّ إيمانيٌّ فريد.

يتجلى فيه بوضوح كيف كان النبي ﷺ يربّي ابنتَهُ وزوجها تربيةً إيمانيةً رفيعةً.

وخلاصة القصةِ كما رواها الشيخانِ[1] أنّ فاطمة رضي الله عنها شعرت ذات يوم بثقل أعباء البيت وأعمالِهِ، وآلمتها يدُها من كثرةِ الطَّحنِ بالرحى، وبلغها أنّ النبيَّ ﷺ قد جاءه رقيقٌ (أي: عبيدٌ وإماءٌ)، فأحبتْ أن يأمر لها النبيّ ﷺ بخادمٍ، فجاءت إلى بيتِ رسول الله ﷺ فلم تجده ووجدتْ عائشةَ رضي الله عنها، فأخبرتها بحاجتِها، فلمّا رجع النبيُّ ﷺ حدثته عائشةُ بما كان من فا طمةَ رضي الله عنها، فتوجّه النبيّ ﷺ إلى ابنته فاطمة.

قال علي رضي الله عنه: فجاء النبيُّ ﷺ إلينا وقد أخذنا مضاجعَنا، فذهبنا نقوم فقال النبي ﷺ: «**على مكانكما**»، فقعد بيننا حتى وجدتُ بَرد قدميه

(١) رواه البخاري في كتاب المناقب، باب: مناقب علي بن أبي طالب القرشي الهاشمي أبي الحسن رضي الله عنه (٣٥٠٢)، ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة، باب: التسبيح أول النهار وعند النوم (٢٧٢٧) من حديث علي رضي الله عنه.

على صدري ثم قال: «**ألا أعلّمكما خيراً مما سألتماني؟**»، يعني: ألا أدلكما على شيءٍ هو أفضل لكما من الخادم؟! قال: «**إذا أخذتما مضاجِعَكما تكبران أربعاً وثلاثين، وتسبحان ثلاثاً وثلاثين، وتحمدان ثلاثاً وثلاثين، فهو خير لكما من خادم**».

ما علاقة التسبيح والتحميد والتكبير بإنسان متعبٍ وجسمٍ منهَك؟!

لقد أراد النبيّ ﷺ أن يعلمهما أنَّ ذكر الله سبحانه وتعالى وطاعته فيهما إعانة على العمل؛ ولذلك نلاحظ أن الإنسان إذا صلّى الفجر في جماعة قام نشيطاً، وإذا غاب عن صلاة الفجر ونام وتكاسل قام خبيثَ النفس كسلان.

ومما يدلُّ على أن للعبادةِ أثراً في صحةِ الجسم قوله ﷺ: «**عليكم بقيام الليل؛ فإنه دأب الصالحين قبلكم، وإن قيامَ الليل قربةٌ إلى الله، ومنهاة عن الإثم، وتكفير للسيئات، ومطردة للداء عن الجسد**»[(١)].

---

(١) أخرجه الترمذيّ في سننه: كتاب الدعوات (٣٥٤٩) عن بلال رضي الله عنه، وقال: «هذا حديث غريب، لا نعرفه من حديث بلال إلا من هذا الوجه، ولا يصحّ من قبل إسناده، سمعت محمد بن إسماعيل يقول: محمد القرشي هو محمد بن سعيد الشامي، وهو ابن أبي قيس، وهو محمد بن حسان، وقد تُرك حديثه. وقد روى هذا الحديث معاوية بن صالح عن ربيعة بن يزيد عن أبي إدريس الخولاني عن أبي أمامة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «عليكم بقيام الليل؛ فإنه دأب الصالحين قبلكم، وهو قربة إلى ربكم، ومكفرة للسيئات، ومنهاة للإثم»، وهذا أصحّ من حديث أبي إدريس عن بلال». وحديث أبي أمامة رضي الله عنه وصَله الطبراني في الكبير (٨/ ٩٢)، والبيهقي في السنن الكبرى (٢/ ٥٠٢)، وصححه ابن خزيمة (١١٣٥)، والحاكم (١/ ٤٥١)، وقال الهيثمي في المجمع (٢/ ٢٥١): «فيه عبد الله بن صالح كاتب الليث، قال عبد الملك بن شعيب بن الليث: ثقة مأمون، وضعفه جماعة من الأئمة». ولكن له شاهد من حديث سلمان رضي الله عنه عند الطبراني في الكبير (٦/ ٢٥٨)، والبيهقي في الشعب (٣/ ١٢٧)، وبه حسّنه الألباني في صحيح الترغيب (٦٢٤)، وانظر: إرواء الغليل (٤٥٢).

وفي تنبيه النبيِّ ﷺ فاطمة وزوجها إلى الذكر فائدةٌ حسنةٌ، هي أنَّ (الحالة النفسية) لها أثرٌ مباشرٌ على (الحالة البدنية)، فالإنسانُ إذا طابتْ نفسُهُ، وانشرح خاطرُهُ، وقرّتْ عينُهُ فإنَّ ذلك كله يمنحُهُ طاقةً جسديةً عاليةً، والعكس بالعكسِ.

وانظر على سبيل المثال ما يحصل لمشجّعي كرة القدم، فإنَّ أحدهم إذا فاز فريقُهُ، جاء من غدِهِ إلى عملِهِ مستبشراً نشيطاً فرحاً ذا قدرةٍ أكبر على العمل والإنجازِ، وربّما جاء مواصلاً لم ينم ليله وهو مع ذلك غير مرهقٍ ولا مكدود الجسم! كل ذلك لأنّه (طيِّبُ النفسِ) بفوز فريقِهِ، فمنحته هذه العافية (النفسية) عافية (جسديّة).

لقد أراد النبيّ ﷺ أن يبيّن لفاطمةَ ـ ولكل زوجةٍ ـ أنَّ تعبَ المرأة في بيتِها ليس حلُّه في الخادمِ فقط، بل حله الأولُ والأولى أن تستمدَّ من ربها (طيبَ النفس)، وعافية الروح، وذلك عبر الذكر والعبادة والقيام فإذا حصل لها ذلك وجدتْ في جسدها من القوة والعافية ما لعله يجعلها في غنى عن خادمٍ.

يقول الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله في حديث النبي ﷺ: «**أصبح نشيطاً طيِّبَ النفس**»[(١)] يقول: «**إنّ في صلاة الليل سرّاً في طيبِ النفس**»[(٢)].

وانظر تحقيق هذا المعنى وتأييده في خبر المعراج، فقد عُرِجَ بالنبيّ ﷺ، وكان في كل سماءٍ يلقى نبياً من الأنبياء، وفي السماء

(١) رواه البخاري في أبواب التهجّد، باب: عقد الشيطان على قافية الرأس إذا لم يصل بالليل (١٠٩١)، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب: ما روي فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) فتح الباري (٣/ ٢٦).

السادسة لقي إبراهيم عليه السلام، أبا الأنبياء، كان اللقاءُ قصيراً، وكان نبينا ﷺ بحاجةٍ ماسةٍ إلى (رسائل توجيهية) ـ إن صحت العبارة ـ من إبراهيم عليه السلام الذي سبقه بالنبوةِ والدعوةِ ومواجهةِ المصاعبِ.

كان إبراهيمُ عليه السلام قد واجه في دعوتِهِ الكثيرَ من العوائق، وألقي في النارِ، وطُرِد، وأمِر بتركِ زوجهِ وولدِهِ في وادٍ غير ذي زرعٍ، وأُمِر بذبحِ ولدِهِ، وكان إبراهيم عليه السلام يحملُ رصيداً كبيراً من تجربةِ النبوةِ والدعوةِ، وبالتالي فإنَّ من الطبيعيِّ أن يُلخِّص هذه الخبرةَ لنبينا ﷺ خلال هذا الوقت الوجيز الذي جمع بينهما.

ترى ما الذي قاله إبراهيمُ عليه السلام لنبيّنا ﷺ؟

ما الوصية التي أوصاه بها ليستعين بها على دعوتِهِ ورسالتِهِ؟

يقول ﷺ: «**رأيتُ إبراهيم ﷺ ليلة أُسريَ بي فقال: يا محمد، اقرأ أمّتَك منّي السلام، وأخبرهم أن الجنة طيّبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان** ـ أي: جاهزة للغرس ـ، **وغراسها** ـ أي: البذرة التي تُغرس ـ: **سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله**»[(١)].

الوصيةُ ذكرُ الله إذن!!

وأنا شخصياً أفهم من هذا أن إبراهيم عليه السلام يقول لنبيّنا ﷺ:

---

(١) رواه الترمذي في كتاب الدعوات (٣٤٦٢)، والطبراني في الكبير (١٠/ ١٧٣)، وفي الأوسط (٤١٧٠) وفي الصغير (١/ ٣٢٦) واللفظ له، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب»، وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٠٧): «رواه الترمذي باختصار «لا حول ولا قوة إلا بالله»، ورواه الطبراني في الصغير والأوسط، وفيه عبد الرحمن بن إسحاق أبو شيبة الكوفي وهو ضعيف»، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (١٥٥٠).

يا محمدُ، ستواجهُ في دعوتك المصاعبِ، ستُبتلى، ستُعادى، ستُحارَبُ، سيكفر بك الملأُ.. فإذا أردتَ السلاح لمواجهة ذلك كله فإليك هو: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

كأن هذه هي الدعامات الإيمانية التي ستثبِّت النبيَّ ﷺ في رحلته في الدعوة إلى الله.

وبهذا يتأكَّدُ عندك ما قررتُهُ من قبل، من أنَّ ذكر الله عزَّ وجلَّ يبعث في جسد الإنسان طاقةً ماديةً حقيقيّةً يستعين بها على صعوبات الحياةِ.

ولهذا أيضاً كانت وصيتُهُ ﷺ لابنتِهِ وزوجها: «**تكبِّران أربعاً وثلاثين، وتسبِّحان ثلاثاً وثلاثين، وتحمدان ثلاثاً وثلاثين، فهو خير لكما من خادم**».

وقد أخذت فاطمةُ وزوجها رضي الله عنهما بهذه الوصية النبوية الغالية، وحَرَصاً عليها غاية الحرص، حتى إنَّ علياً رضي الله عنه قال: والله ما تركتهنَّ بعدما سمعتهنَّ من رسول الله، قيل: ولا ليلة صفّين؟ قال: ولا ليلة صفِّين!!

ومن الفوائد التي نستفيدها من هذه القضية أنَّ الحياةَ الزوجيةَ تُبنى على الإحسان والعشرة بالمعروف، لا على المحاقَّةِ والمحاسبةِ.

حين دخل النبيّ ﷺ على ابنتِهِ وجد في يدِها أثر الرحى، مما يدلُّ على تعبِها رضي الله عنها في خدمةِ بيتِها وزوجِها، ومع ذلك لم يقل النبيّ ﷺ لعلي: يجبُ أن تحضر لها خادماً! وأيضاً لم يقل لفاطمة رضي الله عنها: هذا واجبٌ عليكِ، فلا تتشكّيْ!

بل أحال الأمر إلى الاستعانةِ بالله، والتعاون على شؤون البيتِ.

بعض الفقهاء يتكلمونَ عن عدم وجوب خدمة الزوجة في بيت زوجها! والبعض يقول: يجبُ على الزوج أن يحضر خادماً إذا أبتِ الزوجةُ العملَ في بيتها! وبعض الفقهاء يتحدثون عن عدم وجوب ثمنِ الكفنِ للزوجةِ على الزوج لأنَّ الاستمتاع الذي بِهِ استحقّت النفقةَ لم يعد ممكناً!!

وأنا هنا لا أثرِّبُ على الفقهاء ـ رضي الله عنهم وأرضاهم ـ فقد عالجوا المسألة علاجاً فقهياً صِرفاً، ولكنني أقول: إن الحياة الزوجيةِ لا تُبنى على مثل هذا التنازع في الحقوقِ.. بل هي قائمةٌ على الإحسان والإجمال والإفضال والتعاون.. تماماً كما لاحظناهُ في توجيه النبيّ ﷺ لابنتِهِ فاطمةَ وزوجها عليٍّ رضي الله عنهما.

وبعد..

فهذا موقف جميل من مواقف النبي ﷺ في المدينة المنوّرة في التوجيه الأسريّ، نستفيده من حياة هذا النبي الكريم، المربي الرحيم ﷺ.

❁ ❁ ❁

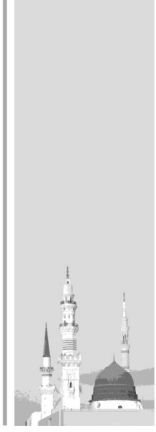

بشرية الأخطاء في المجتمع النبوي

المقدادُ بن عمرو بن ثعلبة، أو المقدادُ بن الأسود كما كان يُسمَّى قبل أن نزول قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٥]، فارسُ المسلمين يوم بدرٍ، وأحدُ أولِ سبعةٍ أظهروا الإسلام بمكةَ، وصاحبُ الكلمةِ البطولية المدوية يوم بدرٍ: «يا رسول الله، امض لما أُمرت به فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: «اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ»، ولكن: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون؛ فوالذي بعثك بالحق نبياً لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه، حتى نبلغه».

هذا الصحابيُّ الجليلُ على بطولتِهِ وشجاعتِهِ كان صاحبَ دُعابةٍ وطرفةٍ ومِزاح.

وقد وقعت له مع النبيّ ﷺ حكايةٌ طريفةٌ، وقصةٌ لطيفة[1].

ولنستمع إلى هذه القصةِ بلسانِ المقدادِ رضي الله عنه.

يقولُ ما حاصلُهُ: أقبلتُ أنا وصاحبانِ لي على المدينةِ مهاجرين من مكةَ، وقد كادت أسماعُنا وأبصارُنا أن تذهب من الجَهْدِ، وبلغ بنا الجوعُ مبلغه، فما نعقلُ شيئاً، ولا نحسنُ شيئاً، فجعلنا إذْ وصلنا المدينةَ نعرِضُ

(١) هذه القصة رواها مسلم في صحيحه: كتاب الأشربة، باب: إكرام الضيف وفضل إيثاره (٢٠٥٥) من حديث المقداد رضي الله عنه.

أنفسنا على أصحاب رسول الله ﷺ، ندورُ على بيوتِهم، ونطرقُ أبوابهم، فما وجدنا عند أحدٍ منهم مطعماً ولا مشراباً!! وذلك لما كان في المدينةِ من قلة اليدِ.

فلمّا لم يبق إلا رسول الله ﷺ توجَّهنا إليه، وسألناهُ أن يطعمَنا ويسقيَنا، فانطلقَ بنا إلى أهلِهِ فإذا ثلاثة أعنز، فقال ﷺ: «**احتلِبوا هذا اللبنَ بيننا**»، أي: احلبوا الأعنز وخذوا كفايتكم من اللبنِ ثم ارفعوا ما بقي لي ولأهلي.

قال المقدادُ: ففرحنا بهذا فرحاً شديداً، وكنّا نحتلِب، فيشرب كلُّ إنسان منّا نصيبَه، ونرفع للنبي ﷺ نصيبَه، فيجيء من الليل، فيسلِّم تسليماً لا يوقظ نائماً ويُسمِع اليقظانَ. ثم يأتي المسجدَ فيصلّي ما شاء الله له أن يصلّي، ثم يعود إلى بيته، ثم يأتي شرابَه فيشرب.

قال: فأتاني الشيطانُ ذاتَ ليلة وقد شربتُ نصيبي، فقال: إنّ محمّداً يأتي الأنصارَ، فيُتحِفونه، ويصيب عندهم نهمته، فما به حاجةٌ إلى هذه الجرعة، فلو شربتها فتقوّيت بها، فأتيتُها فشربتُها!

فلمّا استقرّت في بطني أتاني الشيطان فندَّمني، وخوّفني، وقال: ويحك! ما صنعتَ؟ أشربتَ شرابَ محمّد؟ فيجيء فلا يجده فيدعو عليك فتهلك فتذهب دنياك وآخرتك.

قال: وعليَّ شملةٌ إذا وضعتُها على قدميَّ خرجَ رأسي، وإذا وضعتُها على رأسي خرجت قدمَاي، وجعل لا يجيئني النومُ، وأمّا صاحباي فناما ولم يصنعا ما صنعتُ.

وإنّما فعل ذلك لأنَّ صاحبَ المعصيةِ والإثمِ إذا تنبّه لفعلتِهِ لا يقرُّ له قرار، ولا يغمضُ له جفنٌ:

ترى هل ينام وطيف الفجور ورائحة الإثْم فِي المضجع؟!
وكيف ينام أثيم الهوى وعيناه والسُّهد في موضع؟!

ثم إنَّ الهموم لن تتركه:

دعيني أنم لحظة يا هموم فقد آن للفجر أن يطلعا

قال المقداد: فجاء النبي ﷺ، فسلَّم كما كان يسلِّم، ثمّ أتى المسجدَ فصلى، ثم أتى شرابه فكشف عنه فلم يجد فيه شيئا! فرفع رأسه إلى السماء، فأُسقِطَ في يدي، فقلت: الآن يدعو عليَّ فأهلك، فقال: «**اللّهمّ أطعِم من أطعمني، وأسقِ من أسقاني**».

والمقداد بن الأسود يعرف أنَّ دعوةَ النبي ﷺ مستجابة، لذلك أراد أن يغتنم الفرصةَ ويظفرَ بهذه الدعوة النبويّة الكريمة، قال: فعمدتُ إلى الشملةِ فشددتُها عليَّ، وأخذتُ الشفرةَ ـ أي: السكين ـ فانطلقتُ إلى الأعنز أيّها أسمن فأذبحها لرسول الله ﷺ! مع أنه رضي الله عنه وأرضاه لم يُؤذَن له إلَّا في حلبها والشرب من لبنها، لكن أراد أن تصيبه دعوة النبيّ ﷺ.

ثمَّ نظر المقدادُ إلى بقيةِ الأعنز التي قد احتلبوها من قبل فإذا هي حفَّلٌ كلها!! مليئةٌ ضروعُها!! فتعجّب، وعمد إلى إناءٍ لآل محمد ﷺ ما كانوا يطمعون أن يحتلبوا فيه، فحلبَ فيه حتى علَته رغوةٌ، ثم جعل اللحمَ واللبنَ بين يدي رسول الله ﷺ.

فقال ﷺ: «**أشربتم شرابكم الليلة؟**»، قال المقدادُ: قلت: يا رسول الله اشرب، فشرب ثم ناولني، فقلت: يا رسول الله اشرب، فشرب ثم ناولني.

قال: فلمّا عرفتُ أنّ النبيَّ ﷺ قد رَوِي وأصبتُ دعوتَه ضحكتُ حتى استلقيتُ على الأرض!

فقال النبي ﷺ: «**إحدى سوآتك يا مقداد؟**».

أراد أنك فَعَلْت سَوْأَة مِنْ الْفَعَلَات مَا هِيَ؟

فأخبره المقداد خبره، وقال: يا رسول الله، كان من أمري كذا وكذا، وفعلت كذا. فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «**ما هذه إلا رحمة من الله، أفلا كنتَ آذنتني فنوقظَ صاحبَينا فيصيبان منها؟**».

فقال المقدادُ رضي الله عنه وأرضاه: والذي بعثك بالحقِّ، ما أبالي إذا أصبتَها وأصبتُها معك من أصابَها من الناس!!

وعلى طرافة هذه القصةِ فإنَّ فيها من العبرةِ والموعظة الشيء الكثير.

فأول ذلك أن ننظرَ كيف هو جهد الصحابة رضي الله عنه في نصرة الدين والدعوةِ، وهاهو المقداد ينصبُ ويتعبُ في الهجرة حتى ما يكادُ يرى ولا يسمع!

وكلُّ هذا النصب إنما هو استجابةٌ لأمر النبي ﷺ بالهجرةِ، مع ما فيها من التعبِ والمشقةِ، واليوم نجدُ في أنفسنا كثيراً من الضعفِ، واستسهال المعصية وعدم العزمِ على تركِها. فإذا قلت للمرء: دع الرشوةَ، قال: إذن لا تُنجز معاملاتي!! وإذا قلت له: دع العمل في هذا المطعم الذي يبيع الخمور، قال: إنهم يعطون راتباً جيدا!! وإذا قلت له: دع عنك هذه القنوات الفاسدة وانزعها من البيت، قال لك: من الصعب أن أخالف رغبة أهل البيت!!

وهكذا... في سلسلة طويلةٍ من التساهل وعدم الأخذ بالواجبات.. وما هكذا كان المقداد رضي الله عنه.. فقد كان وهو الصحابيُّ المزّاح يبذل وقته ونفسه وماله في سبيل الله والاستجابة لأمر رسوله ﷺ.

ومن عبر القصةِ أنَّ (الجود بالموجود)، فالنبيّ ﷺ أكرم ضيفه

بحسب المستطاعِ، لم يذبح لهم كل ماعنده فيبقى هو بلا شيء لأهله، بل قال: احلبوا واقسموا لي.

وأيضاً نلحظ سهَر النبي ﷺ في شؤون المسلمين، واهتمامه بضيفه في نفس الوقت، فقد كان يخرج في حاجة المسلمين يومه كله، ثم يرجع من الليل فيتفقّد ضيفه ويطمئن على طعامهم وشرابهم.

وأيضاً نلحظُ في الخبر تنقّل النبيّ ﷺ مابين محراب الصلاة ومحراب الحياة، يخرج يومَهُ في شؤون الحياة، ثم يرجع من الليل ليقف بين يدي ربه جل جلاله.

ومما نلحظه كذلك طلب الدعاء، وكيف أثّر الدعاء في الصحابي، «**اللهم أطعم من أطعمني، وأسق من أسقاني**».

وأخيراً نلاحظُ أثر التوبةِ والمغفرةِ في طيبِ النفس وصفائها، فقد كان المقداد متكدّر الخاطر، عكِرَ المزاجِ، بعد أن شرب شراب النبيّ ﷺ بدون إذن، فلما أصابتْه دعوةُ النبيّ ﷺ، واطمأنَّ إلى رضاه أصبح يضحكُ وينبسطُ، وهكذا تجلبُ الطاعةُ والتوبة الأنس والسرور.

❋ ❋ ❋

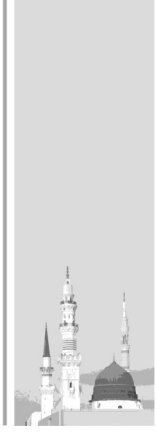

خيرية الناس في المجتمع النبوي

من أيّامِ المدينة الجميلةِ أيامُ عمرو بن عَبَسَة السلميّ رضي الله تعالى عنه وأرضاه، هذا الصحابيُّ الجليل الذي يقول عن نفسه: أنا رُبعُ الإسلام[1]، يعني: رابع من دخل في دين الإسلام.

ولإسلامه ﷺ حكايةٌ جميلةٌ يحكيها بنفسه فيقول[2]: كنتُ وأنا في الجاهليّة أظنّ أنَّ الناس على ضلالةٍ، وأنَّهم ليسوا على شيءٍ وهم يعبدون الأوثان، فسمعتُ برجلٍ بمكّةَ يخبر أخباراً، فقعدتُ على راحلتي فقدمتُ عليه، فإذا رسول الله ﷺ مُستخفياً، جُرَءاءُ عليه قومُه، قال: فتلطَّفتُ حتى دخلتُ عليه بمكة.

قال: فقلتُ له: ما أنت؟

قال عليه الصلاة والسلام: «**أنا نبيّ**».

فقلتُ: وما نبيّ؟

قال: «**أرسَلَني الله**».

---

(١) رواه أحمد (٤/ ١١١)، والطيالسي (١١٥٣)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ١٥)، وصححه ابن خزيمة (٢٦٠)، والحاكم (٤٤١٨، ٥٢٤٦، ٦٥٨٤).

(٢) روى قصته مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: إسلام عمرو بن عبسة عن أبي أمامة عن عمرو بن عبسة السلمي ﷺ (٨٣٤).

فقلتُ: بأيِّ شيءٍ أرسلك؟

قال: «**أرسلَني بصلةِ الأرحام وكسرِ الأوثان وأن يُوَحَّد الله لا يشرَك به شيءٌ**».

قلتُ: فمن معك على هذا؟

قال عليه الصلاة والسلامُ: «حرٌّ وعبدٌ»، ومعه يومئذٍ أبو بكر وبلالٌ ممَّن آمن به.

قلتُ: فإني متَّبِعُك.

قال ﷺ: «**إنَّك لا تستطيع ذلك يومَك هذا، ألا ترى حالي وحالَ الناس؟! ولكن ارجِع إلى أهلك، فإذا سمعتَ بي قد ظهرتُ فأتني**».

قال: فذهبت إلى أهلي.

هذه هي قصةُ إسلام عمرو رضي الله عنه، وفيها الكثير من العظاتِ والعبرِ.

منها قوله: (جُرَءاءُ عليه قومُه)، حيث بيّن عمرو أنّ قريشاً كانت جريئةً على محمد ﷺ وصحبِهِ، وهذه هي سنَّةُ الله في الأنبياء والمصلحين، أن يتعرّض لهم أهل الباطل بالأذى، وينبغي على كل داعيةٍ وعالمٍ أن يستحضر هذا المعنى، وألا يتصوّر لنفسه السلامة مما لم يسلم منه رسول الله ﷺ. وبعض الناس يظنُّ أنّه إذا تصدّر بالصفةِ الشرعيةِ فلا ينبغي أن يمسّه أذى ولاسوء! ولا ينبغي أن يكدّر أحدٌ خاطره!! وتلك أمانيُّ يكذّبها القرآن والواقع، أما القرآن فقد قال جلّ جلاله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢]، وأما الواقع فحسبُنا وصفُ عمرو لما وجد عليه النبيَّ ﷺ: (جُرءاءُ عليه قومه).

ومن عبر القصةِ ذكاءُ النبيّ ﷺ في حواره مع عمرو، فحين سأله عمرو عمّن معه لم يكشف النبيُّ ﷺ أوراق الفئة المؤمنة، لم يقل معي فلان وفلان، أو معي كذا وكذا من النساء والشباب والشيوخ والرجال، وإنما اكتفى ﷺ بقوله: (حرٌّ وعبدٌ) في إشارة عامةٍ إلى استيعاب دعوته لكافة الطبقاتِ دون أن يصرح بأحدٍ أو بعددٍ.

ما الذي حصل بعد ذلك؟ بعد أن أبدى عمرو رضي الله عنه قناعته بدين الحقّ، وأمره النبيّ ﷺ أن يتأخّر في إعلان إسلامِهِ حتى يسمعَ بظهور شأن الإسلام وأهله؟

لقد انصرف عمرو إلى قومِهِ، وبقي يكتم إيمانه ثلاث عشرة سنةً، حتى هاجر النبيُّ ﷺ إلى المدينةِ وشرع في تأسيس دولة الإسلام.

وما إنْ سمع عمرو بهجرةِ النبيّ ﷺ وظهور أمرِهِ حتى شرع يتسقَّطُ الأخبار، فلما تيقَّنَ من استقرار أمر النبيّ ﷺ وعَجْز قومه عن منعِهِ أو قتلِهِ قدم إلى المدينةِ.

ورأى عمرو رضي الله عنه المدينة على غير الوجه الذي كان يعرفُهُ، رأى قوماً آمنوا بالله، وعزّروا رسوله وآزروه، تآخوا على غير أرحامٍ بينهم، وتضافروا نصرةً لدينهم.

يقول عمرو: فَجَعَلْتُ أَتَخَبَّرُ الْأَخْبَارَ وَأَسْأَلُ النَّاسَ حِينَ قَدِمَ الْمَدِينَةَ حَتَّى قَدِمَ عَلَيَّ نَفَرٌ مِنْ أَهْلِ يَثْرِبَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةَ فَقُلْتُ مَا فَعَلَ هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي قَدِمَ الْمَدِينَةَ فَقَالُوا النَّاسُ إِلَيْهِ سِرَاعٌ وَقَدْ أَرَادَ قَوْمُهُ قَتْلَهُ فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا ذَلِكَ، فَقَدِمْتُ الْمَدِينَةَ فدخلتُ على النبيّ ﷺ فقلتُ: يا رسولَ الله، أتَعرِفني؟

قال: «**نعم، أنت الذي لقيتَني بمكة**».

وفي البخاري أنَّ النبي ﷺ كان يسجِّل أسماءَ الصحابة الذي يدخلون في دين الإسلام، وهذه أوّلُ عمليّة إحصاء في تاريخ الإسلام.

قال: فقلتُ: بلى، ثم قلت: يا نبيَّ الله، أخبرني عما علَّمك الله وأجهلُه، أخبرني عن الصلاة.

قال: «**صَلِّ صلاةَ الصبح، ثمّ أقصِر عن الصلاة حتى تطلعَ الشمس حتى ترتَفع؛ فإنَّها تطلعُ حين تطلع بين قرنَي شيطان، وحينئذ يسجدُ لها الكفّار، ثم صلِّ فإنَّ الصلاةَ مشهودة محضورَة حتى يستقلَّ الظلّ بالرمح، ثمّ أقصِر عن الصلاةِ؛ فإنَّ حينئذ تُسجَر جهنّم، فإذا أقبل الفَيء فصلِّ؛ فإنَّ الصلاةَ مشهودة محضورَة حتى تصلّي العصر، ثمّ أقصِر عن الصلاةِ حتى تغربَ الشمس؛ فإنها تغرُب بين قرنَي شيطان، وحينئذٍ يسجُد لها الكفّار**».

قال: فقلت: يا نبيَّ الله، فالوضوء حدِّثني عنه.

قال: «**ما منكم رجلٌ يقرِّب وَضُوءَه** ـ يعني الماء ـ **فيتمَضمَض ويستنشِق فينتثِر إلّا خرَّت خطايا وجهِه وفيه وخياشِيمِه، ثم إذا غسَل وجهَه كما أمره الله إلا خرَّت خطايا وجهَه من أطرافِ لحيته مع الماء، ثمّ يغسل يدَيه إلى المرفقين إلا خرَّت خطايا يدَيه من أنامله مع الماء، ثم يمسح رأسَه إلا خرّت خطايا رأسه من أطراف شعرهِ مع الماء، ثمّ يغسل قدمَيه إلى الكعبين إلَّا خرَّت خطايا رجليه من أنامله مع الماء.**

فإن هو قام فصلَّى، فحمِد الله وأثنى عليه ومجَّده بالذي هو له أهل، وفرَّغ قلبه لله ـ أي: لم يحدّث فيهما نفسه بشيءٍ من أمور الدّنيا ـ **إلا انصرف من خطيئته كهيئته يوم ولدته أمُّه**».

هكذا جرت المحاورة بين عمرو بن عبسة ﷺ والنبيّ ﷺ، وهي محاورةٌ جليلةٌ فيها الكثيرُ من الفوائد..

فمن فوائد هذا الحديثِ البشارةُ للمؤمنِ بمغفرةِ الذنبِ، وبيانُ أن الوضوءَ يغسلُ خطايا الإنسانِ حتّى إنها لتخرج من أطرافِهِ مع قطرات الماءِ، وتلك رحمةٌ من الله، فمن عصى خلال يومِهِ فزاغ بصرُهُ نظراً إلى حرام، أو أصاخ سمعَهُ إلى حرام، أو جرى لسانه بحرام، أو تحركت جوارحُهُ في حرام، من فعل شيئا من ذلك ثم أقبل على وضوئِهِ خاشعاً تائباً أوشكَ ألا يبقى عليه من ذنوبه تلك شيء!!

ومن فوائد الحديث الفقهيةِ كراهةُ بعضِ الفقهاء لاستخدامِ المنديلِ أو (المِنْشَفَة) بعد الوضوء، لما في ذلك من إزالةِ أثرِ الطاعةِ، ولكي تذهب هذه القطرات بذنوب صاحبها، واحتجّوا كذلك بحديثٍ فيه أنّ النبيَّ ﷺ أُتي بخرقة فلم يُرِدْها[1] أي: لم يأخذها.

على أنّ للكلمة ضبطاً آخر هو: فلم يَرُدَّها[2]، ومفادُها أنّه استخدمها ﷺ ولذلك نقول: إن الأمر في هذا واسع ولله الحمد.

ولعلنا نقف في هذا الحديث عند قوله: «**إلا انصرف من خطيئته كهيئته يوم ولدته أمُّه!**» ذلك أنَّ ثمَّتَ أعمالاً كثيرةً عظيمةً يقدمُ عليها الناس ويتحمّلون مشقتها لأجل هذه المغفرة، فلو سألتَ الذي يتحمّل نفقة

(١) رواه البخاري في كتاب الغسل (٢٦٦)، باب: من أفرغ بيمينه على شماله في الغسل عن ميمونة بنت الحارث ﵂ قالت بعدما وصفت غسل النبي ﷺ: فناولته خِرقة فقال بيده هكذا ولم يُرِدها.

(٢) قال ابن حجر في الفتح (١/ ٣٧٦): «ومن قالها بفتح أوّله وتشديدِ الدال فقد صحّف وأفسد المعنى، وقد حكى في المطالع أنها رواية ابن السكن قال: وهي وهم».

الحجّ ومشقّته لم تفعل ذلك؟ لذكر لك الحديث الصحيح: «**من حجَّ هذا البيتَ فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمُّه**»[١]، بل لو سألتَ المجاهدَ الذي خرج من ماله وأهله وجاد بنفسِهِ لم تقدم على كل هذا؟ لأخبرك برغبته في المغفرة المذكورة في الحديث: «**الشهيد يغفر له في أول دفقة من دمه**»[٢].

وها هو حديث عمرو الصحيح يخبرنا أنّ صلاةَ ركعتينِ خالصتين لا ينشغل فيهما المؤمن بغير ربه تحقق له هذه المغفرة المأمولة حتى يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه. ويالها من بشارةٍ نقلها لنا عمرو بن عبسة رضي الله عنه وأرضاه.

ولقد كان عمرو رضي الله عنه عالماً بقيمةِ هذه البشارة، لذا لم يدّخر وسعاً في نشرها، وتبليغها والتحديث بها.

وفي نفس رواية الحديث موقف جميل جليل..

فقد حدّث عمرو رضي الله عنه صحابياً جليلاً هو أبو أمامة بهذا الحديث، فقال أبو أمامة: يا عمرو بنَ عبسة، انظر ما تقول؛ في مقام واحد يُعطَى الرجلُ كل هذا؟! أي: أيُعقَل أن يتوضَّأ الواحد ويصلِّي ركعتين لا يحدّث فيهما نفسَه فيرجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه؟!

فقال عمرو بن عبسة لأبي أمامة وكان ذلك بعدما مات رسول الله ﷺ: يا أبا أمامة، لقد كبرت سنّي، ورقَّ عظمي، واقترَب أجلي، وما بي حاجَةٌ أن أكذِب على الله ولا على رسولِ الله، لو لم أسمعه من رسول

(١) رواه البخاري في أبواب الإحصار، باب: قول الله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ (١٧٢٣)، ومسلم في الحج، باب: فضل الحج والعمرة ويوم عرفة (١٣٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير برقم (٦٣٤).

الله ﷺ إلا مرة أو مرتين أو ثلاثاً ـ حتَّى عدَّ سبعَ مرّات ـ ما حدّثتُ به أبداً ولكنّي سمعته أكثرَ من ذلك.

أراد عمرو رضي الله عنه أنه ما حدَّث بهذا الحديث حتى سمعه من النبيّ ﷺ مراتٍ عديدةً، إذْ النبيُّ ﷺ يكثر من ذكر هذا الحديث للصحابة؛ لأنه حديث تفاؤل، والعلماء يسمونه: حديث الرجاء، لأنّه من أعظم أحاديث الرجاء.

لنعدِ الآن إلى سيرة عمرو بعد أن حلَّقنا مع هذا الحديث العظيم.

إنَّ الملفتَ في سيرة عمرو رضي الله عنه أنّه كان (يبحث) عن الحقيقةِ، لقد سمعَ ـ مجرد سماع ـ بأنّ رجلاً في مكةَ يحدث بأحاديث وأنّ قومه يكذّبونه ويشيعون حوله الشائعات، فلم يقنع بهذه الأخبار المشوشة، ولم يقل: وما شأني؟! بل ذهب يتقصّى ويبحث عن الحقيقة ليكون أسعد الناس بها، فسافر إلى المدينة ولقي النبيّ ﷺ، وحين ظهر له الحقُّ آمنَ، ولم يصدَّه ما كان يعلمه من تشويه قريش لسمعةِ محمدٍ ﷺ وأصحابِهِ.

وعلى شبابنا اليوم أن يتعلّم هذا.. أن يتعلم كيف يبحث عن الحقيقة وسط ركام الأكاذيب، وكيف يستخلص الحق من بين أكوام الباطلِ، وألا يسمح لأضاليل الإعلام أن تشوّه في نفسه صورَ الأبطال والمجاهدين ورجالات هذا الدين، وأن يتعلم كذلك كيف يصبرُ على الأذى في طريق الحقّ الذي آمن به واقتنع.

ومن دروس عمرو رضي الله عنه أيضاً أنّه (محَّص) الأمور، وفحص عن حقيقة ماجاء به محمدٌ ﷺ قبل أن يؤمن به، وقد رأينا كيف أرسل أسئلته تباعاً: ما أنت؟ مانبي؟ بأي شيء أرسلك؟ من معك على هذا؟ إنها أسئلة تدل على باحث عن الحقيقةٍ راغبٍ في عدم التسليم إلا بما يظهر له صوابُهُ

ويرضاه عقله وقلبه. ولو تعلمت أجيالنا ألا تسلم عقولها لكل متحدث، بل تفحص وتسبرُ وتخبر لكنا في خير كثيرٍ.

ومن دروس عمرو رضي الله عنه أيضاً (الصبر)، فقد صبر رضي الله عنه ثلاثة عشر عاماً حتى ظهر أمر النبيّ ﷺ فسار إليه، ظلّ طوال هذه المدة صابراً على دينه غير مفرّط فيه بالرغم من قلة الناصر والرفيق.

ونتعلم من عمرو أيضاً الحرص على الدعوةِ، فقد حمل رضي الله عنه هذا الحديث الجليل الذي تلقاه عن النبيّ ﷺ وظلّ يبلغُهُ ليسمعَه من لم يكن سمعه. وهكذا ينبغي على كل مسلمٍ أن يحرص على أن يكون له دوره في الدعوة بحسب إمكاناتِهِ وقدراته.. قد يسهم بعلمه، وقد يسهم بنشاطه وجهده، وقد يسهم بماله، وقد يسهم بعلاقاته، وقد يسهم بخبرته التقنية، وهكذا.

ودعوني أحدثكم بهذا الخبر...

كنتُ قد قدمتُ في عام مضى برنامجاً تلفزيونياً اسمه (الرسول والحياة)، وكان من ضمن من شاهده وتابعه شابٌّ حليقٌ مدخّنٌ قد يظنه من يراه بعيداً عن الخير والالتزام والدعوة، ويبدو أن البرنامج قد حرّك شيئا من فطرة الخير لدى هذا الرجل، فأقبل إلى إمام مسجدهم ـ وهو أحد أصحابي ـ وسأله عني، فأخذ رقمي ثم اتصل بي يرغب في اللقاء، فضربتُ له موعداً بعد رجوعي من السفر، وحين التقينا وجدتُهُ يحدثني عن رغبته في عمل الخير ونشر الدعوةِ من خلالِ مالِهِ، وظل ـ جزاه الله خيراً ـ داعماً لكثيرٍ من أعمال الخير والبر المعروفة.

إنّ هذا النمطَ في التعامل مع العمل الدعوي ـ أعني نمط مشاركة الجميع كل فيما يحسن- يفضي إلى تكامل الجهود، وتراصّ البنيانِ،

واستحكام العمل حيث يقومُ كل شخص بواجبِهِ في إطار ما يتقنه. ولولا مثل هذا التعاون لما كان لكثير من مشاريع الخير أن تنهض وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

وعلى الإنسان ألا يحقر من عمل الدعوة والمعروف شيئا ولو كان يسيراً، وقد استطعم عائشةَ رضي الله عنها مسكينٌ وبين يديها عنبٌ، فقالت لإنسانٍ: خُذ حبَّة فأعطه إيّاها، فجَعَل ينظر إليها ويعجَب! فقالت عائشة: أَتعجَب؟ كم ترَى في هذه الحبّة من مِثقال ذرّة؟!(١).

❁ ❁ ❁

(١) رواه مالك في الموطأ بلاغاً (٢/ ٩٩٧)، ومن طريقه البيهقي في الشعب (٣/ ٢٥٤).

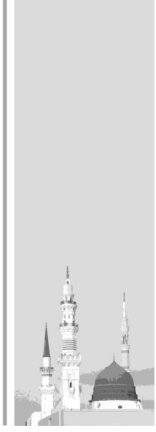

الأحوال الاجتماعية في المجتمع النبوي

رغم كل شيءٍ آثر ﷺ أن يعيش فقيراً ويموتَ فقيراً!!

رغم (أكوام) الغنائم التي كانت تُساق إليه عقِبَ الغزواتِ المظفّرة فضّل ﷺ أن يعيش كفافاً لا له ولا عليه!!

رغمَ أن الله فتح له البلاد، وأخضع له العباد، وبات يمثّل القوة المركزية في الجزيرة العربية وما حولها، رغم كل ذلك أحبّ ﷺ أن يعيش مسكيناً ويموتَ مسكيناً!! ودعا قائلاً: «**اللهم أحيني مسكيناً، وأمتني مسكيناً، واحشرني في زمرة المساكين**»(١).

هكذا كان النبيُّ ﷺ زُهداً في الدنيا، وترفّعاً عن حطامِها، وتعلقاً بما عند الله في الآخرة. وتأمَّلْ وصفَ عائشة رضي الله عنها لحالة البيتِ النبويِّ حيث تقول: «إِنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إِلَى الْهِلَالِ ثُمَّ الْهِلَالِ ثَلَاثَةَ أَهِلَّةٍ فِي شَهْرَيْنِ وَمَا أُوقِدَتْ فِي أَبْيَاتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَارٌ! فَقُلْتُ: يَا خَالَةُ مَا كَانَ يُعِيشُكُمْ؟ قَالَتْ: الْأَسْوَدَانِ التَّمْرُ وَالْمَاءُ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ جِيرَانٌ مِنْ الْأَنْصَارِ كَانَتْ لَهُمْ مَنَائِحُ وَكَانُوا يَمْنَحُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَلْبَانِهِمْ فَيَسْقِينَا»(٢).

---

(١) رواه الترمذي، برقم: (٢٢٧٥) من حديث أنس بن مالك.

(٢) رواه البخاري في كتاب الهبة وفضلها، باب: فضلها والتحريض عليها (٢٤٢٨)، ومسلم في الزهد والرقائق (٢٩٧٢) عن عائشة رضي الله عنها.

ولم يكن هو وحده على ذلك ﷺ، بل كان كثيرٌ من صحابتِهِ المقربين، ومستشاريه المؤتمنين على مثل ذلك التقشّف والتقلل.

ولنضربْ مثلاً على ذلك بأحدِ أكثر الصحابةِ ملازمةً للنبيِّ ﷺ، إنّه أبو هريرة رضي الله عنه وأرضاه.

كان أبو هريرةَ كاتمَ سرِّ رسول الله ﷺ، وحارسه الخاص، ومستشاره المؤتمن. وهو بكل هذه الصفاتِ والمراتب والمناصبِ جديرٌ بأنْ يُغدَقَ عليه المال لئلا يفشي سراً، أو يُسرِّبَ أذىً إلى القائد!

ولكنّ أبا هريرةَ لم يكن من ذلك النمط، ولم يكن بحاجة إلى ذلك.

كان يؤدِّي وظيفتَهُ حارساً ومستشاراً ومؤتمناً، ويعيشُ مع ذلك حياة الفقر كما يعيشها سيّده ونبيُّهُ ﷺ.

يقول أبو هريرة رضي الله عنه: اللهُ الذي لا إله إلا هو، إن كنتُ لأعتمد بكبدِي على الأرض من الجوع، وإن كنتُ لأشدُّ الحجر على بطني من الجوع!

وإليك هذه الحكاية التي تبيّن حال أبي هريرة وقلة ذاتِ يدِهِ.

يقول أبو هريرة: قعدتُ يوماً على الطريق وقد غلبني الجوعُ، رجاء أن يراني أحدٌ فيطعمني.

قال: فمَرَّ أبو بكر، فسألتُه عن آيةٍ من كتاب الله، ما سألته إلا ليشبعني! فمرَّ ولم يفعل!

قال: ثم مرَّ بي عمر، فسألته عن آية من كتاب الله، ما سألته إلا ليشبِعني! فمرَّ ولم يفعل!

قال: ثمَّ مرَّ بي أبو القاسم ﷺ، فتبسَّم حين رآني، وعرَف ما في

نفسي وما في وجهي، ثم قال: «**يا أبا هِرّ**»، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «**الْحق**».

فمضى واتَّبعتُه، فدخلَ فاستأذن فأَذِن لي، فوجد لبناً في قدح، فقال: «**من أين هذا اللبن؟**»، قالوا: أهداه لك فلان أو فلانة، أي: أحد الجيران أتى بهذا اللّبَن لك، وهو قدح واحد فقط.

قال: فقال النبي ﷺ: «**أبا هر**»، قلت: لبَّيك يا رسول الله، قال: «**الْحقْ إلى أهل الصُّفَّة فادعُهم لي**»!!

وأهل الصفة رضي الله عنهم كان عددُهم سبعين أو ثمانين رجلا؛ ولذا استغرب أبو هريرة رضي الله عنه؛ كيف يكفي هذا الطعام لأهل الصفة كلّهم؟!

قال أبو هريرة: وأهلُ الصّفَّة أضيافُ الإسلام، لا يأوون على أهل ولا مال ولا على أحدٍ، إذا أتته صدقةٌ بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئاً، وإذا أتته هديّة أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها.

هكذا أمر رسول الله ﷺ أبا هريرة أن يدعو أهل الصفةِ أجمعين ليسقيهم من ذلك القدح اليتيم!!

قال أبو هريرة: فساءني ذلك، وقلت: وما هذا اللبن في أهل الصفَّة؟! كنتُ أنا أحقَّ أن أصيبَ من هذا اللّبن شربةً أتقوَّى بها، فإذا جاء أمرني فكنتُ أنا أعطيهم، وما عسى أن يبلُغَني من هذا اللبن؟! ولم يكن من طاعةِ الله وطاعة رسوله ﷺ بُدٌّ.

قال: فأتيتُهم فدعوتُهم، فأقبلوا فاستأذنوا، فأذن لهم، وأخذوا مجالسهم من البيت.

ثم قال النبي ﷺ: «**يا أبا هرّ**»، قلت: لبيك يا رسولَ الله، قال:

«**خُذ فأعطهم**»! فقال أبو هريرة ﷺ وأرضاه في نفسه مرّةً ثانية: أنا أكثرُهم جوعاً، ولقد رأيتَ حالتي، فابدأ بي على الأقلّ، أخاف أن ينتهيَ اللبن ولا يبقى منه شيء، أو يبقى شيء قليل!

ولكن لم يكن من طاعةِ رسول الله ﷺ بُدٌّ.

قال: فأخذتُ القدحَ فجعلت أعطيه الرجل، فيشرب حتّى يروَى، ثم يردُّ عليّ القدح، فأعطيه الرجل، فيشرب حتى يروَى، ثمّ يردّ عليَّ القدح، فأعطيه الرجل، فيشرب حتى يروَى، ثم يردّ عليّ القدح، حتى انتهيتُ إلى النبيِّ ﷺ وقد روِي القومُ كلُّهم، فأخذ القَدح فوضعه على يدِه، فنظر إليَّ فتبسَّم فقال: «**أبا هرّ**»، قلت: لبّيكَ يا رسول الله، قال: «**بقِيتُ أنا وأنت**»، قلت: صدقتَ يا رسول الله، قال: «**اقعُد فاشرَب**»، فقعدتُ فشربتُ، فقال: «**اشرَب**»، فشرِبتُ، فما زال يقول: «**اشرَب**» حتى قلت: لا والذي بعثك بالحقَّ، ما أجِد له مسلكاً، قال: «**فأرِني**»، فأعطيته القدحَ، فحمد الله وسمّى وشرب الفضلةَ[1].

إنّ هذه القصة الطريفة لأبي هريرة ﷺ تعلمنا أشياء كثيرة.

إنّها تعلمنا أولاً مقدار ما كان يتحمّله الصحابة ﷺ من الجهد والتعب وهم في مسيرة الصحبةِ والدعوةِ، لقد بذل ذلك الجيل الفريد الكثير والكثير، بذل من مالِهِ ومن نفسِهِ ومن ولدِهِ ومن وقتِهِ ومن جهدِهِ كل ذلك لتستمر هذه الرسالة، وليعلو لواء هذه الدعوةِ، وكِفاء هذا البذل والجهد ﷺ، جعل الله لهم لسان صدقٍ في الآخرين، وأعلى مكانهم.

وبسبب هذا الجهد أيضاً -بعد فضل الله- كُتِب لهذا الدين العلوّ في

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه وتخليهم من الدنيا (٦٠٨٧) عن أبي هريرة ﷺ.

الأرض، وتحققت له هذه النتائج الباهرة، وخفقت ألويته في شرق الأرض وغربها.

والغريب أن بعض الدعاة اليوم يريدون النتائج الكبيرة العظيمة من غير جهد مكافئٍ يبذلونه! ورحم الله المتنبي إذ يقول:

لولا المشقة ساد الناس كلُّهمُ الجودُ يُفقِر والإقدام قتَّالُ

وتعلّمنا قصة أبي هريرة أيضاً أن الداعية ينبغي أن يكون عفيفاً، لا يسأل الناس إلحافاً، ولا يتعوّد مدَّ اليدِ، وقد قال ﷺ: «**إنَّ الله كرِه لكم قيل وقال، وكثرةَ السؤال، وإضاعةَ المال، وحرَّم عليكم عقوقَ الأمَّهات، ووأدَ البنات، وأخذاً وهات**»[1]، ماذا تعني كلمة: «**أخذاً وهات؟**» تعني: أن يجيء الواحد لصاحبه ويقول له: بالله أعطني كذا، ثمّ فترة وجيزة يقول له: لو تكرّمت أعطني كذا، وهكذا لاتكون عنده طريقة في الحياة إلا أعطني أعطني، أعطني، أعطني.

ولماذا هذا النهي؟

لأنه ينبغي أن لا تذِلّ نفسك، وألا يكون شغلك الشاغل الأخذ من الناس، بل لا بدّ أن تكونَ عفيفاً كما كان أبو هريرة رضي الله عنه وأرضاه.

وتعلمنا قصة أبي هريرة أيضاً أن على الداعيةِ أن يكون فطناً لأحوال مدعويهِ، مراعياً لظروفهم، وأن يخفف عنهم بالابتسامة ولطف التعامل، ثم بما أمكن من العونِ، نجدُ ذلك في تبسُّم النبيِّ ﷺ لأبي هريرة لما رآه وعرف ما فيه نفسِهِ، ثم في استضافته له وسدّ جوعتِهِ وظمئِهِ من ذلك اللبن.

---

(١) رواه البخاري في كتاب الاستقراض، باب: ما ينهى عن إضاعة المال (٢٢٧٧)، ومسلم في الأقضية (١٧١٧)، باب: النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

وقد انعكس هذا التعامل الراقي على نفسيةِ أبي هريرة ﷺ، فكان يفرح بلقاء النبيّ ﷺ، وبالتالي يتلقى عنه العلم بصدر رحبٍ فيحفظُ ويعي ويضبطُ. ولذلك قال أبو هريرة: أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَلتُ: يا رسول الله إِنِّي إِذَا رَأَيْتُكَ طَابَتْ نَفْسِي وَقَرَّتْ عَيْنِي، فَأَنْبِئْنِي عَنْ كُلِّ شَيْءٍ فقَالَ ﷺ: «**كُلُّ شَيْءٍ خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ الْمَاءِ**».

قَالَ: أَنْبِئْنِي بِأَمْرٍ إِذَا أَخَذْتُ بِهِ دَخَلْتُ الْجَنَّةَ.

قَالَ: «**أَفْشِ السَّلَامَ، وَأَطْعِمْ الطَّعَامَ، وَصِلِ الْأَرْحَامَ، وَصَلِّ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، ثُمَّ ادْخُلْ الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ**»(١).

وتعلمنا قصة أبي هريرة أيضاً كيف يربّي الداعيةُ مدعوّه تربيةً عمليةً مستغلاً المواقفَ، فهاهو النبيُّ ﷺ لما جاء الأضياف السبعون دفع أبا هريرة ﷺ ليبادر إلى خدمتهم وضيافتهم والقيام بحقهم.

وتعلمنا قصة أبي هريرة ﷺ أيضاً أنّ ضيق ذات اليد لا يمنع الإنسان عن الدعوة إلى الله، فهاهو أبو هريرة على ما كان عليه من الفقر والضائقةِ والخَلَّةِ مارس دوره في الدعوة وقام به على أحسن وجه وأكملِهِ، وهكذا هي بيوت الأخيار بيوت إكرام بالميسور، وما يشع منها من نور يكفي للأنس والطمأنينة.

❁ ❁ ❁

(١) رواه أحمد (٢/ ٢٩٥، ٣٢٣) عن أبي هريرة ﷺ، وصححه ابن حبان (٥٠٨، ٢٥٥٩)، والحاكم (٧١٧٤، ٧٢٧٨)، ووافقه الذهبي، قال الهيثمي في المجمع (٥/ ٧): «رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح، خلا أبي ميمونة، وهو ثقة»، وصححه الألباني في الإرواء (٣/ ٢٣٧).

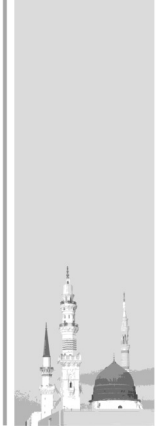

فقه التدين
في المجتمع النبوي

هل تديُّنُ الإنسان يعني انقطاعه من الدنيا؟

وهل التديُّنُ يعني أن ينشغل الإنسان عن مقتضيات الحياةِ، فيفرط في دراسته أو وظيفته أو علاقاته الاجتماعية؟

لماذا يتحوَّلُ البعضُ بمجرّدِ تديُّنِهِ من شخص فاعلٍ في مجتمعِهِ إلى شخصٍ سلبيٍّ لايُنتفَعُ به في شيء، وكل ذلك بحجّةِ الانشغال بالآخرةِ وفروض التدين؟!

لقد كان المجتمعُ المدنيُّ النبويُّ على خلاف هذه الصورةِ، وكان النبيّ ﷺ يحرص على تربية أصحابِهِ تربيةً تجمع بين القيام بواجبات الدين، والوفاء بمقتضيات التدين، وكان ﷺ يحرصُ على أنْ يكون أصحابُهُ مثالاً للجدّ والنشاطِ والحيويةِ لئلا يُقال: إنّ هذا الدين يُميتُ أتباعه.

انظر إلى تشريعه ﷺ للرَّمَلِ عند قدومهم للطواف، لقد أراد أن يُريَ أهل مكةَ قوةَ أصحابه ونشاطَهم رغم مانَهَكَهُم من حمّى يثرب، وانظر كذلك إلى إنشائِهِ ﷺ كثيراً من الغزوات في رمضانَ حيثُ يُظنُّ بالصائمين الوهنُ والتعبُ.

كلُّ ذلك ليُظهر ﷺ أن كمال التدين لا يلزمُ منه التماوتُ والضعفُ والانسحابُ من تكاليف الحياةِ وتبعاتِها.

وفي السيرة النبوية موقفٌ آخر يدلّك على قوةِ النبيّ ﷺ ونشاطِهِ حتى وهو في أصعب الظروف وأحلكها.

كان ذلك يوم الخندقِ حين عرضت للصحابةِ وهم يحفرونه صخرةٌ عظيمةٌ أعيتْ معاولَهم فما أفلحت في كسرِها، فشكوا أمرها إلى رسول الله ﷺ.. ما معنى هذا؟ معناه أنهم يعرفون أنه أقواهم بدناً، وأكثرهم نشاطاً، وأقدرهم على مجابهة تحدّي هذه الصخرة.

وهو بذلك يضرب مثلا ﷺ في الفاعلية الإيجابية الحياتية.

جاء رسول الله ﷺ ووضع ثوبه ثم هبط إلى الصخرة، فأخذ المعول فقال: «بسم الله»، فضرب ضربةً فكسر ثلثَ الحجر وقال: «**الله أكبر، أعطيتُ مفاتيح الشّام، والله إني لأبصِر قصورَها الحُمر من مكاني هذا**»!!

ثم قال: «**بسم الله**»، وضرب أخرى فكسر ثلثَ الحجر فقال: «**الله أكبر، أعطِيتُ مفاتيح فارس، والله إني لأبصر المدائن، وأبصر قصرَها الأبيض من مكاني هذا**»!!

ثم قال: «**بسم الله**»، وضرب ضربة أخرى، فقلع بقيّة الحجر فقال: «**الله أكبر، أعطِيتُ مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبوابَ صنعاء من مكاني هذا**»[(١)].

هكذا إذن!

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٣٠٣)، وابن أبي شيبة (٧/ ٣٧٨)، والنسائي في الكبرى (٨٨٥٨)، وأبو يعلى (١٦٨٥) عن البراء بن عازب رضي الله عنه، قال ابن كثير في السيرة النبوية (٣/ ١٩٣ ـ ١٩٤): «هذا حديث غريب تفرد به ميمون»، وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ١٨٩ ـ ١٩٠): «رواه أحمد وفيه ميمون أبو عبد الله، وثقه ابن حبان، وضعفه جماعة، وبقية رجاله ثقات».

وبينما الصحابةُ في كربٍ وشدةٍ، وخوفٍ من قريش وجيشها، يبشرهم النبيّ ﷺ بفتح الآفاقِ، ومُلكِ البلاد!!

لقد أراد ﷺ أن يحطّم جُدُر اليأس، ويفتح لهم الآفاق، ويكشف لهم شيئاً من حجُبِ الغيبِ ليعلموا ما ادّخره الله لهذه الأمة الشريفة. وقد كان لهذه البشارات أجمل الأثرِ، فانتفض الصحابة يعملون بجدّ وقد أيقنوا بنصر الله وتأييده وتوفيقه.

لم يكن الأمر سهلاً.. فقد كان الوضع الذي يعيشه الجيش المسلم صعباً جداً، هناك حصار، وهناك جيش ضخم مهاجمٌ، وهناك نقض للعهد من اليهود، وهناك وسوسةٌ داخليةٌ وإرجافٌ من المنافقين! كان الوضع صعباً وحسبنا ما وصفه به الله جل جلاله: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١].

لقد وصف الله الحال بأنّها (زلزال)! وكم في هذه الكلمة من دلالات!!

ومع كل ذلك الواقع الصعب كانت هناك مشكلة أخرى كبيرة.. إنها مشكلة الجوع!!

كان الجميع في جوعٍ شديد، وكان ﷺ أكثرهم جوعاً، فقد كان يربط على بطنِهِ حجرين إذْ يربطُ الباقون حجراً واحداً!

ومن هنا نبدأ حكاية يومٍ جميل من أيام المدينة النبوية المباركة.

لقد لاحظ الصحابيُّ الجليل جابر بن عبد الله ما كان عليه النبيّ ﷺ من الجوع، فأحبَّ أَنْ يطعمه ويسقيه، فانصرف إلى بيتِهِ يرى ماهنالك،

فلم يجد غير عَنَاقٍ [العناقُ: الأنثى من أولاد المعز] وصاعٍ من شعيرٍ، وهو طعام قليل يكفي الثلاثة أو الأربعة، فذبح العناق، وطحن الشعير، وجعل اللّحمَ في البرمة، ثم ولّى إلى رسول الله ﷺ يدعوه إلى الطعام، فقالت له زوجه: لا تفضحني برسول الله ﷺ وبمن معه. يعني: إيّاك أن يأتي مع رسول الله ﷺ العدد الكثير فلا يكفيهم طعامُنا، فيكون ذلك فضيحةً لنا.

ذهب جابر مباشرة إلى الرسول ﷺ وسارّه وقال: يا رسول الله، إنّا قد ذبحنا بهيمة لنا، وطحنَّا صاعاً من شعير كان عندنا، فتعال أنت ونفر معك. أي: أن الطعام الذي جهّزته لا يكفي للجميع، فاختر مجموعة وانتقِ من شئتَ حتى يأتوني إلى البيت!

فصاح رسول الله ﷺ وقال: «**يا أهلَ الخندق، إنّ جابراً قد صنع لكم سورا**، [السورُ: هو الصَّنِيعُ بالحبشية، ويروى سؤراً أي: بقيةً من طعام] **فحيّهلا بكم**»!

وهكذا دعا النبيّ ﷺ نحواً من ألفِ رجلٍ إلى وليمة جابر التي لا تتجاوز عَنَاقاً وصاعاً من شعير!

وأوصى ﷺ جابراً بقوله: «**قل لها** ـ أي: لزوجة جابر ـ: **لا تنزِع البرمة ولا الخبز من التنور حتى آتي**».

فلما دخل جابر رضي الله عنه على امرأته قال: ويحك! جاء النبي ﷺ بالمهاجرين والأنصار ومن معهم! فقالت: بِكَ وبك. يعني: كأنها تشتمه وتقول: ما هذا الذي فعلتَ بي؟! ألم أقل لك: لا تفضحني! فقال جابر: قد فعلتُ الذي قلتِ لي [أي: أسررتُ للنبيّ ﷺ ولم أعلن].

ثم إنّ النبيّ ﷺ جاء إلى دار جابر فأخرجوا له العجين فبصق فيه

وبارك، ثم عمد إلى البرمة فبصق فيها وبارك، ثم قال: «**ادعي خابزة فلتخبز معكِ، واقدحي من بُرمتكم ولا تنزلوها**».

فجعل النبي ﷺ يكسر الخبز، ويجعل عليه اللحم، ويخمّر البرمة والتنور إذا أخذ منه، ويقرّب إلى أصحابه. وفي هذا من تواضعه وخدمتِهِ لأصحابِهِ ما فيه، وفيه كذلك الإشارة إلى استحسان مساعدة الرجل أهل البيت في عمل البيت.

وقد كانت الكرامة النبويّةُ في هذه الحكاية ظاهرةً، فقد أكل الألف جميعاً من هذه البرمة حتى شبعوا!! قال جابر رضي الله عنه وأرضاه: فأقسم بالله، لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا، وإنّ برمتَنا لتغطّ كما هي، وإن عجيننا ليخبز كما هو، وبقيت بقيّة، فقال ﷺ: «**كلي هذا، وأهدي؛ فإنّ الناس أصابتهم مجاعة**»[(١)].

لهذا الموقف النبوي في بيت جابر رضي الله عنه وأرضاه دلالات كثيرة، من أهمها:

١ ـ فضيلةُ إكرام الضيفِ، وقد رأينا كيف سارع جابرٌ إلى استضافة النبيّ ﷺ وصحبِهِ، وكيف جنَّد نفسه وأهله لخدمة من وفد عليه من كرام الصحابة رضي الله عنهم.

ولا عجب في ذلك فإنّ النبيّ يقول: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه**»[(٢)]. وهذا الأمر من محاسن هذا الدين وفرائده،

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجهاد، باب: من تكلم بالفارسية والرطانة (٢٩٠٥)، وفي كتاب المغازي، باب: غزوة الخندق وهي الأحزاب (٣٨٧٥، ٣٨٧٦)، ومسلم في الأشربة، باب: جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه ذلك (٢٠٣٩) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٢) رواه البخاري في كتاب الأدب، باب: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره =

فأي شريعة في الدنيا تجعل إكرام الضيف مرتبطاً بالإيمان؟ وأي دين أو حضارةٍ يجعل إكرام الضيف جزءاً من عبادة الإنسان التي يتقرب بها إلى الله؟

٢ ـ قيام المرأة المسلمة بدورها الجهاديِّ، فهذه زوج جابر رضي الله عنها باشرت خدمة أضياف زوجها، ولم تقل: ماعندي وقت! كيف أخدم هذا العدد الكبير! عليك أن تتحمّل مسؤولية ضيفك! لم تقل شيئا من ذلك رضي الله عنها، بل تفهمت الموقف وبادرت ببذل وسعها فبارك الله فيما بذلت.

٣ ـ تكاتف المجتمع المسلم بكافة شرائحِهِ في القيام بواجبات الدعوة لهذا الدين، وواجبات حراسته وحمايته كذلك.

فقد كان الصغير والكبير، والذكر والأنثى، والقوي والضعيف، الجميع كان يعمل في ذلك اليوم في خدمة القضية، فهناك من يحفر، وهناك من يحمل الصخر، وهناك من يحمل التراب، وهناك من يُطعم الجائع، وهناك من يحمي ظهر المسلمين وهكذا يتكاتف المجتمع كله في ملحمةٍ فريدة تعلّم القاصي والداني فنَّ استثمار الإمكانات.

لقد أدرك النبي ﷺ أنّ لكل عضو في هذا المجتمع قدرةً ما على العطاء وأن القيادة الحقيقية هي التي تستطيع أن تستثمر هذه القدرة في مجالها الأنسب.

ذلك هو الصواب لا مانراه اليوم في مجتمعاتنا من الاستغناء عن

= (٥٦٧٢)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب: الحث على إكرام الجار والضيف عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الكفاءة حين تكون في أعلى درجات نضجعها بحجة بلوغها سنّ التقاعد.

يقول حفني ناصف في خطابه لرئيس الوزراء بعد أن أحالوه للتقاعد!

يا صاحبَ الدولة يا شيخ الوزارة حاجتي إن شئت تقضى بإشارة
نالها قبلي ألوفٌ لم أكن دونهم علما ولا أدنى جدارة
ناهز الستين عمري إنما لم أزل جمّ القوى جم الجدارة
وإذا لم يشكُ مثلي علةً هل من الحكمة أن يلزم دارَه؟!

وهذا للأسف من أوضاع الأمة المتخلّفة اليوم، إذا وصل الشخص لدرجة النضج العلمي أحيل إلى التقاعد!! فأين الخبرة التراكمية والجد والاجتهاد الذي كان عليه؟! أين هو؟! يذهب هباءً منثوراً، هكذا هي أوضاع بلادنا العربية وللأسف.

٤ ـ الموازنة بين واجب البيت وواجب الأمةِ، فالنبيّ ﷺ وهو في قلب المعركة يعلم جابراً رضي الله عنه كيف يقوم مع أهله ويعينهم في أمور البيت، بل يقوم هو ﷺ بنفسِهِ بتوزيع الطعام على الضيوف إشعاراً لرجل البيت بضرورة أن يكون عوناً لأهله وألا يستكبر عن حوائجهم، وأن يكون قريباً منهم.

ولو حرص الأزواج على مثل هذا القرب والعون لتغيرت البيوت ولوجد أهل البيت في أبيهم القدوة والمثل.

❁ ❁ ❁

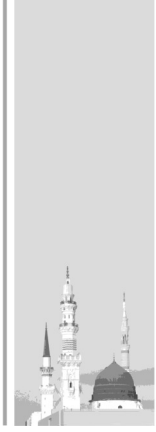

سمو الأخلاق في المجتمع النبوي

التواضعُ هو سمةُ العظماء الحقيقيين...

أما أولئك المتكبرونَ والمنتفخون فهم في الحقيقة أدعياء العظمة..

ولله درُّ من قال:

تواضعْ تكن كالنجم لاح لناظرٍ على صفحات الماء وهو رفيعُ
ولا تك كالدخان يسمو بنفسه إلى طبقات الجوّ وهو وضيعُ

ولأنّ نبيّنا ﷺ هو أعظم العظماء كان أكثر الناس تواضعاً ولِيناً: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وكانت صور تواضعِهِ ﷺ متعددة.. كان متواضعاً مع الكبير والصغير، والذكر والأنثى، والقريب والبعيد.

حين أُسِرتْ صفيّة بنت حيي بن أخطبَ رضي الله عنها وأرضاها خيَّرها النبي ﷺ بين أن تبقَى على دينها أو أن تختار دينَ الإسلام، لم يُكرهها النبي ﷺ، ولم يرغمها بل جعل الخيار بيدها، فاختارت رضي الله عنها وأرضاها اللهَ ورسولَه والإسلام، فأعتقها النبيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وتزوّجها، وجعل عتقَها صداقها[1].

---

(١) رواه البخاري في كتاب النكاح، باب: الوليمة ولو بشاة (٤٨٧٤)، ومسلم في كتاب النكاح، باب: فضيلة إعتاق أمة ثم يتزوجها (١٣٦٥) عن أنس رضي الله عنه.

ثم أتى بها النبيّ ﷺ إلى المدينة، فتساءل الصحابةُ: أتزوَّجها أم اتخذها أمَّ ولد؟ ثم قالوا: إن حجبها فهي امرأته، وإن لم يحجبها فهي أمُّ ولد، فلما أراد أن يركب حجَبها، فقعدت على عجز البعير، ومَدَّ الحجاب بينها وبين الناس، فعرفوا أنّه قد تزوجها ﷺ[١].

والشاهدُ في هذه القصةِ هو في الطريقة التي أصعدَ بها النبيُّ ﷺ صفيةَ إلى البعير.. لنستمع إلى ماقاله أنسٌ رضي الله عنه.. قال: فرأيت رسول الله ﷺ يحوِّي لها وراءه بعباءة ـ أي: يدير كساءً فوق سنام البعير ـ، ثم يجلس عند بعيره، فيضع ركبته فتضع صفيّة رجلَها على ركبته حتى تركب[٢].

وهكذا يجعلُ النبيّ ﷺ ـ وهو أعظم أهل الأرض ـ امرأةً تطأ على رجلِهِ وتتكئُ عليه لتصعد إلى بعيرها!!

لقد راعَ هذا المنظرُ صفيّة رضي الله عنها وهي سليلةُ بيت الشرف في قومِها، فقد اعتادتْ على صلفِ كُبراءِ قومِها وكِبرهم وتشامخهم على من دونهم، وهاهي ترى الآن رسول الله ﷺ ينحني لأجلها ويوطِّئُ لها ركبته لتصعد عليها!!

أيُّ تواضعٌ يشي بعظمةِ النفسِ وعزّةِ القلب؟!!

لننظر إلى قصةٍ أخرى...

أتى النبيَّ ﷺ رجلٌ يومَ الفتح، فكلَّمه فأخذته الرِّعدة هيبةً للنبيّ ﷺ

---

(١) رواه البخاري في كتاب النكاح، باب: اتخاذ السراري ومن أعتق جاريته ثم تزوّجها (٤٧٩٧)، ومسلم في كتاب النكاح، باب: فضيلة إعتاق أمة ثم يتزوجها (١٣٦٥) عن أنس رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري في كتاب البيوع، باب: هل يسافر بالجارية قبل أن يستبرئها؟ (٢١٢٠).

فجعل النبيّ ﷺ يقول له: «**هوِّن عليك، فإنِّي لست بملكٍ! إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد**»(١).

والقديدُ: اللحمُ المِلْحُ المجفَّفُ.

وعادة العرب أن تقول: أنا ابنُ فلان، لكن النبي ﷺ قال: «أنا ابن امرأة» مبالغةً في التواضعِ وتطييب خاطر المخاطَبِ.

ومن عجائب السيرةِ في باب التواضع النبويِّ الآسر مارواه الشيخانِ من خبر ذلك اليهوديِّ، وحاصلُ الخبرِ أنَّ يهوديّاً كان يعرض سلعته في سوق المدينة، فأُعطي بها شيئاً قليلاً كرهه ولم يرضه، فقال: لا والذي اصطفى موسى على البشر، ـ أي: لا أقبل هذا السّعر ولا أرضاه ـ؛ فسمعه رجل من الأنصار فقام فلطم وجهَه وقال: تقول: والذي اصطفى موسى على البشر والنبي ﷺ بين أظهرنا؟! فذهب اليهودي إلى رسول الله ﷺ يريدُ النَّصَفَةَ، ومن العجيبِ أنَّه يلتمسُ من رسول الله ﷺ النصرةَ على رجلٍ إنّما كانت غضبتُهُ لأجله ﷺ!! ولكنَّهُ العدلُ الذي عُرف به ﷺ، وبه أيقنَ اليهوديُّ أنّه إنْ كان له حقٌّ فسيأخذُهُ.

توجّه اليهوديُّ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا أبا القاسم، إنّ لي ذمة وعهداً، فما بال فلان ـ لرجلٍ من الأنصار ـ لطَمَ وجهي؟! فقال رسول الله ﷺ للأنصاري: «**لم لطمتَ وجهه؟**»، قال: قال يا رسول الله: والذي اصطفى موسى عليه السلام على البشر، وأنت بين أظهرنا، قال: فغضب النبي ﷺ حتى عرف الغضب في وجهه ثم قال: «**لا تفضِّلوا بين أنبياء**

(١) رواه ابن ماجه في كتاب الأطعمة، باب: القديد (٣٣١٢) عن أبي مسعود رضي الله عنه، وصححه الحاكم (٤٣٦٦)، وأقره الذهبي، وقال البوصيري في الزوائد: «هذا إسناد صحيح ورجاله ثقات»، وهو في صحيح سنن ابن ماجه (٢٦٧٧).

الله، فإنّه ينفَخ في الصّور فيَصْعَق من في السماوات ومن في الأرض إلَّا من شاء الله، ثم ينفَخ فيه أخرى فأكون أوّلَ من بعِث، فإذا موسى آخذ بالعرش، فلا أدري أحوسب بصعقته يومَ الطور أم بعث قبلي؟! ولا أقول: إنّ أحداً أفضل مِن يونس بن متّى»[1].

فانظر كيف أبى ﷺ أن يفضَّل على موسى عليه السلام! وهو خاتم الأنبياء وسيد المرسلين ﷺ.

وإذا كان النبيّ ﷺ رفض هذا النوع من المفاضلة، فمن باب أولى أن نكفّ نحنُ عن (التفضيلات) المطلقة: فلان أفضل العلماء، وفلان أصدق الدعاة، وفلان أكبر الأولياء وهلمّ جراً، مما قد يورث الخصام والعداوة والبغضاء دون أن تكون له فائدة.

كما أنّ في هذه الكلمة من النبيّ ﷺ أدباً آخر، هو احترام السابقين من ذوي الفضل، فالعالمُ الحقّ لا ينسى فضل معلميه، ولا حق من سبقه من أهل العلم فهو يذكرهم بخير، ويترحّم عليهم، ويأبى أن يُقايَسَ بهم. وكذلك الداعية الحق يرعى حقّ من علَّموه وربّوه ووطَّؤوا له طريق الدعوةِ، فيعرف لهم حقهم، ويثني عليهم، ولا يرى نفسه فوقهم وإن أوتي ما أوتي من العلمِ والتوفيق.

ولم يكن هذا كل شيء!

بل كان ﷺ يتواضع حتى مع الأطفال!! يلاعبهم ويداعبهم وهو من هو في مكانته ﷺ!!

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ (٣٢٣٣)، ومسلم في الفضائل، باب: من فضائل موسى عليه السلام (٢٣٧٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وقد ورد أنه ﷺ كان يأخذ على الأطفال طريقهم ممازحاً، فإذا أرادوا أن يتفلّتوا يميناً أو يساراً مدّ يديه وتحرَّك حتى لا يجد أحدهم منفذا!!

ولقد كان لهذا التواضع واللين أكبر الأثر في نفوس الصحابة ﷺ، فامتلأت قلوبهم بمحبته عليه الصلاة والسلام، وعمرت نفوسهم بهيبتِهِ وإجلالِهِ.

إنّ الهيبةَ الحقيقيّة ليست بالاسم، وليست بالرئاسة أو المسؤولية، وليست بالأموال والديار، الهيبةُ الحقيقيّة هي كَسْبُ احترامَ الآخرين وودِّهم لك. الهيبة الحقيقية هي قدرتك على احتواء الناس وتفعيلهم عن محبةٍ واقتناع. الهيبة الحقيقية هي امتلاكك طاعةَ الناس عن حبٍّ ورغبةٍ لا عن رهبةٍ وخوف.

والهيبة الحقيقية بعد ذلك كله وقبله هي في الخضوع لله والتذلل بين يديه.

كان رسول الله ﷺ في يوم فتح مكّة المكرّمة مطأطئا حتى إنّ عثنونَه ليكاد يمسُّ واسطة الرحل[1]، وما ذلك إلا تواضُعاً لله حينَ رأى ما أكرمه به من الفتح.

لقد جاء هذا النصر الربانيُّ بعد سنواتٍ طويلة من المعاناة والتضييق والإيذاء والحرب السرية والعلنية، وكان بوسعه ﷺ أن يجيءَ منتفشاً منتشياً منتقماً.. ولكنّه رسول الله! جاء متواضعاً لربه، خافضاً لرأسِهِ،

(١) رواه ابن إسحاق ـ كما في سيرة ابن هشام (٥/ ٦٣) ـ قال: ثني عبد الله بن أبي بكر أن رسول الله ﷺ ليضع رأسه تواضعاً لله... وضعفه الألباني في تخريج فقه السيرة (ص٣٧٩). وروى البيهقي ـ كما في البداية والنهاية (٤/ ٢٩٣) ـ من حديث أنس قال: دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح وذقنه على راحلته متخشِّعاً.

متسامياً عن جراحه الشخصية، قائلاً بأعلى صوته: اذهبوا فأنتم الطلقاء!!

وبمثل هذا التواضع لله عظُمَ ﷺ في أعين البشر.

وأنا أعرف أنَّ بعضاً من الموفقين في الحياة، الذين لهم مكانة رفيعة، ولكلمتهم أثر كبير في الآلاف، لم يكن سرُّهُ في حسن حديثه، أو جمال منطقه، أو سعة علمه، بل كان سره الأكبر في تواضعه لربه وإخلاصه له.

وقد قال ﷺ: «**إنَّك لا تسجدُ لله سجدةً إلا رفعك الله بها درجة**»[١]، وقال ﷺ: «**أقربُ ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**»[٢]؛ ولذلك بعض البسطاء والفقراء الذين يُكثِرون السجودَ لله سبحانه وتعالى هم أكثر الناس عزّةً، وأكثر الناس قوّةً، وأجرَؤُهم على قول الحقّ!

❁ ❁ ❁

(١) رواه مسلم في كتاب الصلاة، باب: فضل السجود والحث عليه من حديث ثوبان رضي الله عنه (٤٩٠).

(٢) رواه مسلم في كتاب الصلاة، باب: ما يقال في الركوع والسجود من حديث أبي هريرة رضي الله عنه (٤٨٤).

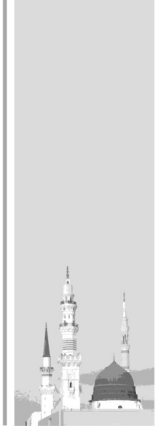

حقوق الإنسان والحيوان في المجتمع النبوي

نسمعُ أحياناً أنّ شابّاً من الشباب قد تغيرت معاملته لأهله بعد أن هداه الله للتديُّنِ والالتزامِ!

فبعد أن كان خفيض الجانبِ لين الطباعِ حلو المعشر أصبح غليظاً متجهماً كثير السخط والإنكار!

وهو في كل ذلك يحسب أنه يحسنُ صنعاً، وأنّه يقيمُ شرعَ الله، ويتأسى بالمصطفى ﷺ!!

إنّ أمثال هذا الشابّ إنّما يُؤْتَوْن من سوء فهمهم للدين والتدين، وتضخيمِهم لجانبٍ على حسابِ جوانب أخرى. فهم يُغفلون ـ عمداً أو جهلاً ـ أصلاً عظيماً من أصول الأخلاق الإسلامية هو: الرحمةُ والرفقُ واللطفُ واللين.

لقد كان النبيّ ﷺ صريحاً وواضحاً حين قال: «**إنّ الرفق لايكون في شيءٍ إلا زانه، ولا يُنزع من شيء إلا شانه**»[1]، وكذلك حين قال: «**مَنْ حُرِمَ الرِّفْقَ حُرِمَ الْخَيْرَ أَوْ مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ يُحْرَمِ الخيْرَ**»[2].

وكانت حياتُهُ ﷺ كلُّها تطبيقاً عملياً لهذا الأصل على مستوى الالتزام والتطبيق، وعلى مستوى التربية والتوجيه.

---

(١) رواه مسلم في باب (فضل الرفق) برقم: ٤٦٩٨.

(٢) رواه مسلم في باب (فضل الرفق) برقم: ٤٦٩٦.

وبلغ به الأمر ﷺ أن يكون رِفْقُه ولينه ولطف معشرِهِ سبباً في إسلام الناسِ، وسبباً في انتزاع بُغضِهِ ﷺ من قلوبهم. وحسبنا كلمةُ عبد الرحمن بن أبي عقيل الثقفي حين حدث بخبر قدوم قومه على رسول الله ﷺ فقال: قدمتُ على رسول الله ﷺ، في ثقيف فعلِقْنا طريقاً من طرق المدينة، حتى أنخنا بالباب، وما في الناس رجل أبغض إلينا من رجل نلج عليه منه، فدخلنا وسلَّمنا وبايعنا، فما خرجنا من عنده، حتى ما في الناس رجل أحب إلينا من رجل خرجنا من عنده!!

هكذا إذن!

في جلسة واحدة يتحوّل النبيّ ﷺ من أبغض الناس إلى أحبّ الناس!

أية أخلاق؟ وأي رفق؟ وأي لطف؟

لقد كان أولئك القوم من ثقيف يظنّون أن النبي ﷺ كسائر من عرفوه من عظماء العرب كِبراً وتَيْهاً وتشامخاً وصلفاً، فلذلك أبغضوه، فلما جلسوا إليه ورأوا من حسن أخلاقِهِ مارأوا رجعوا بغير الوجه الذي جاؤوا به.

بل أنسوا به حتى صاروا يسألونه ويحاورونه.. يقول له عبد الرحمن بن أبي عقيل الثقفي: يا رسولَ الله، ألا سألتَ ربَّك مُلكاً كمُلك سليمان؟! فضحِك النبي ﷺ وقال لهم: «**لعلَّ لصاحبِكم عند الله أفضل من مُلْك سليمان، إنَّ الله لم يبعث نبيّاً إلا أعطاه دعوةً**»، أي: مستجابة، «**فمنهم من اتَّخذ بها دنيا فأُعطِيَها**» وذلك مثل سليمان عليه الصلاة والسلام حين سأل الله أن يؤتِيَه مُلكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعده، وفي هذا أنه لاحرجَ على الداعية أن يسأل من الدنيا ماشاء شرطَ أن يحكمها ولا تحكمه، قال ﷺ: «**ومنهم من دعا بها على قومِه فأُهلِكوا بها**»، كما حصل مع نوحٍ وهود

وصالح عليهم الصلاة والسلام، ثم قال ﷺ: «**وإنَّ الله أعطاني دعوةً فاختَبَأتُها عند ربِّي شفاعةً لأمتي يومَ القيامة**»(١).

ولك أن ترى ما في هذا الاختيار النبويّ من الرحمة والرفق والشفقةِ بهذه الأمة، لقد ادّخر ﷺ دعوته المستجابة لتكون شفاعةً لأمته يوم القيامةِ، لم يعجل بها لنفسِهِ، ولم يجعلها هلاكاً للمكذبين من قومِهِ، بل أرادها رحمةً لأمتِهِ في ذلك اليوم العصيب.

ثم انظر كيف كان النبيّ ﷺ يربي صحابته على هذا الخلق الجليل.

هاهو أبو ذرٍ رضي الله عنه وأرضاه يُسابُّ رجلاً أمُّهُ أعجميةٌ سوداء، فتثور حميتُهُ ويقول له: يابن السوداء!

إنها كلمةٌ عنصريةٌ خادشةٌ مؤلمةٌ، لم يفوّتها النبيُّ ﷺ، بل غضب لها غضباً شديداً حين بلغته وقال لأبي ذر: «**يا أبا ذرّ، أعيَّرتَه بأمه؟! إنك امرؤ فيك جاهلية**»! ثم أتمّ ﷺ وصيته: «**إخوانُكم خَوَلُكم، جَعَلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يدِه فليُطعمه مما يَأكُل، وليُلبِسه مما يَلبَس، ولا تكلِّفوهم ما يغلِبهم، فإن كلَّفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم عليه**»(٢).

إنه منهجٌ نبويٌّ فريدٌ في التعامل مع الضعفة والخادم ..«**فليُطعمه مما يَأكُل، وليُلبِسه مما يَلبَس**».

---

(١) رواه ابن خزيمة في التوحيد (٣٩٠)، والحاكم عن عبد الرحمن بن أبي عقيل الثقفي رضي الله عنه، قال المنذري في الترغيب (٤/ ٢٣٤): «رواه الطبراني والبزار بإسناد جيد»، وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٦٧٣): «رواه الطبراني والبزار ورجالهما ثقات»، وهو في صحيح الترغيب (٣٦٣٥).

(٢) رواه البخاري في كتاب الأدب، باب: ما ينهى من السباب واللعن (٥٧٠٣)، ومسلم في الأيمان والنذور، باب: إطعام المملوك مما يأكل (١٦٦١).

وقد وعى أبو ذر رضي الله عنه الدرس وعياً تاماً.. فصار يلبسُ هو وخادمه اللباس نفسه، يقول المعرور بن سويد رضي الله عنه أرضاه: لقيتُ أبا ذرّ بالرَّبذَة وعليه حلّةٌ وعلى غلامه مثلُها.

وبمثل توجيهه لأبي ذر رضي الله عنه، وجه النبي ﷺ صحابياً آخر هو أبو مسعود الأنصاري رضي الله عنه، وقد كان أبو مسعودٍ رضي الله عنه يضرب غلاماً له فإذا به يسمع صوتاً خلفه يقول: «**اعلم أبا مسعود، اعلم أبا مسعود، اعلَم أبا مسعود، للهُ أقدرُ عليك منك عَليه**»، فالتفتَ فإذا رسولُ الله ﷺ، فسقَط السوطُ مِن يَدِه هيبةً له، وقال: يا رسولَ الله، هو حرٌّ لوجهِ الله، فقال ﷺ: «**أما لو لم تفعل للفَحتك النار**» أو قال: «**لمسّتك النار**»[1]!

إننا بإزاء نمطٍ رفيع من التربية النبوية على الرفق وحسن التعامل حتى مع الخدم والغِلمان.

ويتجاوز الرفقُ النبويُّ الإنسان ليظللَ الحيوان.

وإليك هذا الحديث العجيب.

بينما رسول الله ﷺ مع أصحابِهِ إذ أقبل رجلٌ عليه كِساء وفي يدِه شيءٌ قد التفَّ عليه، فقال: يا رسولَ الله، إني لما رأيتُك أقبلتُ إليك، فمررتُ بغيضَة شجرٍ فسمعتُ فيها أصواتَ فِراخِ طائرٍ، فأخذتهنّ فوضعتهنّ في كسائي، فجاءت أمّهنّ فاستدارت على رأسي، فكشفتُ لها عنهنّ فوقَعَت عليهنّ معهنّ ـ أي: رمت بنفسها حتى صارت داخل الكساء مع فراخها ـ، قال: فلففتُهنّ بكسائي، فهنّ أولاء معي، فغضِب النبي ﷺ من هذا التصرّف، وقال: «**ضعهنّ عنك**»، فوضعَهنّ وأبت أمّهنّ إلا لزومهنّ،

(١) رواه مسلم في الأيمان والنذور، باب: صحبة المماليك وكفارة من لطم عبده (١٦٥٩)، والبيهقي في السنن الكبرى (٨/ ١٠) عن أبي مسعود رضي الله عنه.

فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**أتعجبون لرحمة أمّ الأفراخ بفراخها؟**» قالوا: نعم يا رسول الله، قال: «**فوالذي بعثني بالحق، للهُ أرحم بعبادِه من أمّ الأفراخ بفراخِها، ارجِع بهنّ حتى تضعهنّ من حيث أخذتهنّ وأمهنّ معهنّ**»، فرجع بهنّ[١].

إنّها حمامةٌ عجماءُ لاتعقلُ، ولكنّ النبيّ ﷺ يدرك أنّ لها كبداً رطبةً، وأنها مخلوقٌ حيٌّ يجبُ الرفقُ به، ومراعاة مشاعرِهِ.

ربما كان النبيّ ﷺ بهذا الموقف الإنساني الرقيق الرفيق أحقّ بقول الشاعر:

ربّ ورقاء هتوفٍ بالضحى ... ذات شجو غرّدتْ في فننِ
ذَكَرَتْ إلفاً وعهداً ماضيا ... فبكت حزناً فهاجت حزني
فبكائي ربَّما أرَّقها ... وبكاها ربما أرقني
ولقد تشكو فما أفهمها ... ولقد أشكو فما تفهمني
غيرَ أني بالجوَى أعرِفها ... وهي أيضاً بالجوى تعرفني

وإليك موقفاً أعجبَ من هذا وأغرب!!

إنّه موقفٌ ظهرت فيه صورةٌ مشرقةٌ من صور الرفق النبويِّ بالحيوان.

روى الصالحيُّ في سبل الهدى والرشاد[٢] أنَّ النبيّ ﷺ لما كان في طريقه إلى مكةَ عام الفتحِ نظر إلى كلبة تهرُّ عن أولادها، وهن حولها

---

(١) رواه أبو داود في كتاب الجنائز، باب: الأمراض المكفرة للذنوب (٣٠٨٩)، ومن طريقه البيهقي في الشعب (٧١٣٠) من حديث عامر الرام أخي الخضر رضي الله عنه، وهو في ضعيف سنن أبي داود (٦٧٩).

(٢) (٥/ ٢١٢).

يَرْضَعْنها، فأمر ﷺ جميلَ بن سراقة ـ رضي الله عنه ـ أن يقوم حذاءها، لا يعرض لها أحد من الجيش، ولا لأولادها!!

أرأيت؟!

يقيم صحابياً حارساً على كلبةٍ تُرضع أولادها لئلا يفزِّعَها أحدٌ من الجيش!!

أيُّ خلُق هذا الذي تعامل به النبي محمد ﷺ مع الحيوانات؟! وعندما يرى الصحابة مثلَ هذه المناظر كيف سيتعاملون مع أنفسهم؟! وكيف سيتعاملون مع أهليهم؟!

إنَّ هذه الأخلاق الكريمة لو رآها الغربيّون وأعداء الإسلام لأدركوا خلُقَ المجتمع المسلم ونظافته ورحمته، وعدمَ قسوته وغِلظته، ولكان لنا معهم شأن آخر، وتاريخٌ مختلف.

❁ ❁ ❁

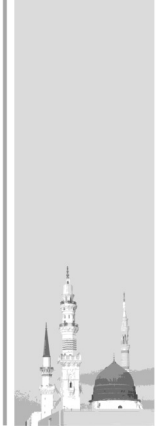

الحياة الإنسانية في المجتمع النبوي

يا من له الأخلاقُ ما تهوى العلا منها وما يتعشَّقُ الكبراءُ
زانتك في الخلق العظيم شمائلٌ يغرى بهنّ ويولع الكرماءُ

هكذا وصف أمير الشعراء شوقي أخلاق النبيِّ ﷺ.. إنها الأخلاقُ التي تهواها العلا، ويتعشقها الكبراء، ويولع بها الكرماء.

وحين أفضى شوقي بعد ذلك إلى تعداد أبرز تلك الخصال قال:

وإذا عفوتَ فقادراً ومقدَّراً لا يستهين بعفوك الجهلاءُ

العفو عند القدرة.. والمسامحةُ مع الإمكان..

طيُّ صفحة الماضي بما فيها.. وفتح صفحةٍ جديدة..

تلك هي خصلةٌ من أبرز خصال النبيّ ﷺ، وسمةٌ من أجمل سمات المجتمع المدنيّ الذي رباه النبيّ ﷺ.

والتسامحُ مفتاح كسبِ القلوب، به يدنو الوالدان من الأبناء ويكتسبان مودتهم فيحسنان بالتالي توجيه مسيرتهم، وبه يتمكّن الداعيةُ من استقطاب المدعوين وإبلاغهم رسالة الحق والهدى، وبه تتلاقى الجماعات الإسلاميةُ فينصر بعضها بعضاً، ويكون بعضها عوناً لبعضٍ، وبه تترقّى الدولُ حين تتسامح الحكومات مع شعوبها، والشعوب مع حكوماتها وينصرف الجهد للبناء والتحديث بدلاً من ضياعِهِ في الفتن والمكايد.

لقد كان النبي ﷺ أستاذ التسامح الأول.. كم أوذي! وكم حُوربَ! وكم هُجِي! وكم شُتِم! وكم جُرحَ! وكم قُتِل أحبابُهُ وأصحابه! ومع كل ذلك كان ﷺ يمتلك قوّة التسامح والقدرة على العفو عندما يجيءُ الخصمُ تائباً نادماً!!!

وإليك قصَّةَ هبّار بن الأسود رضي الله عنه وأرضاه.

لم يكن هبّارٌ ـ قبل إسلامِه ـ رجلاً (عاديّاً) في عداوتِهِ لرسول الله ﷺ، بل كان شديد الوطأةِ، كثير الأذى، لم يتركْ سبيلاً من سبل محاربة النبيّ ﷺ يقدر عليه إلا سلكَهَ، فأطلق لسانه، وحمل سنانه، وسعى بالتحريش والتحريضِ، وقدّر، وقدّم وأخر، كل ذلك بغضاً للنبيّ ﷺ وكراهة لدعوتِهِ.

ولم يكن ذلك كل شيء.. بل لقد اقترف هبّار جريمة عظمى لم يقترفها أحدٌ من المشركين قطّ! لقد كان سبباً في موتِ أحد أبناء المصطفى ﷺ!!

وذلك أنّه نخَسَ زينبَ بنت رسول الله ﷺ أثناء هجرتِها من مكةَ إلى المدينةِ، نخَسَها بسهمٍ في يدِهِ وهي حاملٌ فأسقطت جنينها رضي الله عنها.

وانظر ما رُوِي عن أبي هريرة رضي الله عنه لتعلمَ مقدارَ غضب النبيّ ﷺ على هبّارٍ.. رُوِيَ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعثاً أنا فيهم ثم قال لنا: «**إن ظفرتم بهبّار بن الأسود، وبنافع بن قيس فحرِّقوهما بالنار**» حتى إذا كان الغد بعث إلينا فقال لنا: «**إني كنت أمرتكم بتحريق هذين الرجلين إن أخذتموهما ثم رأيت أنه لا ينبغي لأحد أن يعذِّب بالنار إلا الله**»!

هكذا بلغ الغيظُ برسول الله ﷺ من هذا الرجل..

ومع ذلك.. فإنّ هبّاراً لما ضاقتْ به الأرضُ ولم يجد أمامه سبيلاً سوى أن يرجع إلى رسول الله ﷺ أقبل على رسول الله ﷺ وهو في مسجده بالمدينة ومعه نفرٌ من الصحابة، فلما رآه القوم تحفّزوا، فأشار إليهم النبيّ ﷺ أن يجلسوا، ووقَفَ هبّار فقال: السلام عليك يا نبيَّ الله، أشهد أن لا إله إلَّا الله وأشهَد أنَّ محمّداً رسول الله، ولقد هربتُ منك في البلاد وأردتُ اللّحاقَ بالأعاجم، ثمّ ذكرتُ عائدَتَك وفضلَك وصِلَتَك وبِرَّك وصَفحَك عمّن جَهلَ عَليك، وكنّا يا نبيَّ الله أهلَ شِرك، فهدانا الله بك وأنقذنا منَ الهلكةِ، فاصفَح عن جَهلي وعمّا كان يبلُغُك عنّي، فإني مُقِرٌّ بسوء فِعلي مُعتَرِف بذَنبي.

ما الذي كان من رسول الله ﷺ إزاء هذا الاعتذار؟

لقد غلبه ما جُبِل عليه من التسامح والحلم والصفح، فقال: «**قد عفوتُ عنك، وقد أحسن الله إليك حيث هداك إلى الإسلام، والإسلام يجبُّ ما قبله**»(١).

وهكذا ضرب ﷺ مثلاً أعلى في التسامح والتسامي.

وكان لهبّار بعد ذلك مواقِف رائعةٌ مع الصحابة الكرام في المدينة المنوَّرة وخدمة الدعوة ومباشرة كلّ ما فيه نفعٌ للإسلام والمسلمين.

وما حصل مع هبار حصل مثلُهُ مع كعبِ بن زُهيرٍ رضي الله عنه.

فقد كان كعبٌ سليطَ اللسانِ في هجاءِ رسول الله ﷺ وأصحابِهِ، وكان أخوه بجيرٌ قد قدم على رسول الله ﷺ فأسلمَ فبلغَ ذلك كعباً فقال:

---

(١) قصة إسلام هبّار رواها الواقدي من طريق سعيد بن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن جده. انظر: الإصابة (٦/ ٥٢٦)، وأسد الغابة (١/ ١٠٨٥)، وكتاب التوّابين لأبي محمد المقدسي (١٢٠ ـ ١٢١).

ألا أبلغا عني بُجيراً رسالة ... على أي شيء وَيْبَ غيرِك دَلَّكا
على خُلُقٍ لم تُلْفِ أماً ولا أباً ... عليه ولم تدركْ عليه أخاً لكا

فبلغت أبياته رسول الله ﷺ فقال: «**من لقي كعباً فليقتله**»[١].

ومع كل هذا فإنّ كعباً لما جاء تائباً معلناً إسلامه وسعه عفو النبيّ ﷺ!! لقد وقفَ كعبٌ ينشد لاميته الشهيرة:

بانَت سعاد فقَلبي اليومَ متبولُ ... متيَّمٌ إثرها لَم يُفدَ مَكبولُ

فبدأها كعب بن زهير بالغزل، إلى أن وصَل إلى المعنى الذي يريده وهو طلبُ العفو من النبيّ ﷺ فقال:

نُبِّئتُ أنَّ رسولَ الله أوعَدَني ... والعفوُ عند رسول الله مَأمُولُ

فعفا عنه النبيُّ ﷺ بعدما سمع هذه الأبيات الشعريّة[٢].

ومرّةً من المرّات بينما هو في مسيرِه عليه الصلاة والسلام إذ مرَّت قُتَيلة بنتُ النضر بنِ الحارث قبل إسلامها رضي الله عنها وأرضاها، وكان النبيّ ﷺ قد قتل أباها النضر لكثرة إيذائه للمسلمين، فلما لقيت النبيّ ﷺ أنشدته:

يا راكبا إنَّ الأُثَيْل مَظِنَّةٌ ... مِن صُبح خامسةٍ وأنت موفَّقُ
أبلغ به مَيْتا بأن تحيّة ... ما إن تزال بها النجائب تخفِقُ
مني إليه وعبرة مسفوحة ... جادت بواكفها وأخرى تُخنقُ
هل يسمعنَّ النّضرُ إن ناديتُه ... بل كيف تُسمع مَيّتا لا ينطقُ
ظلَّت سيوفُ بني أبيه تنوشُه ... لله أرحامٌ هناك تشقَّقُ

---

(١) انظر: الإصابة في معرفة الصحابة (٣/ ٢).

(٢) انظر: الاستيعاب (١/ ٤٠٧)، وأسد الغابة (١/ ٩٣٤)، والبداية والنهاية (٤/ ٣٦٠ ـ ٣٧٠).

صبراً يُقاد إلى المنيّة مُتعبًا ... رَسفَ المقيَّد وهو عانٍ موثَقُ
أمحمَّد وَلدَتك خيرُ نجيبةٍ ... مِن قومها والفحلُ فحلٌ مُعرِقُ
ما كان ضرَّك لو مننتَ وربَّما ... منَّ الفتى وهو المغيظ المحنَقُ
النّضرُ أقربُ مَن أسرتَ قَرابةً ... وأحقُّهم إن كان عِتقٌ يُعتَقُ

وقولها: «ما كان ضرَّك لو مننتَ» أي: ما الذي كان يضيرك لو أنّك مننتَ على أبي وعفوت عنه فلَم تقتُله؟!

فلما سمع رسولُ الله ﷺ ذلك بَكى حتّى اخضلَّت لحيتُه وقال: «**لو بلغني شِعرُها قبل أن أقتله ما قتلتُه**»(١).

أرأيت؟

كل ذلك التاريخ الأسود للنضرِ مُحِيَ بأبياتٍ من الشعرِ استعطفت بها قُتيلة رسول الله ﷺ! إنّه التسامحُ في أسمى تجلياتِهِ، وأروع صوره.

فهل يتعلم من هذا أولئك الذين يجعلون لكلّ شخص ممن حولهم (ملفاً) تُجمع فيه الأخطاءُ، وتحصى فيه التجاوزات! حتى إذا وقع خلافٌ أو دبَّ خصامٌ فُتِحت هذه (الملفات) فلم تُبقِ ولم تذر!

وإليك صورة مشرقةً من العفو (الجماعيّ)!

ترى فيها كيف انعكس هذا الخلق النبويُّ على الصحابة الكرام رضي الله عنهم.

في يومِ أُحدٍ كانت هندُ بنت عتبةَ أكثر قريشٍ إجراماً، فهي التي حرّكت الجيشَ، وأخرجت النساء معها يضربْنَ بالطبولِ، ويحمّسن الرجال على القتال، ثمّ كانت هي التي فرحتْ بمقتلِ حمزةَ رضي الله عنه ولاكت كبدَه!

---

(١) انظر: الاستيعاب (١/ ٦١٦ ـ ٦١٧)، وأسد الغابة (١/ ١٤٠٤)، والبداية والنهاية (٣/ ٣٠٦)، والإصابة (٨/ ٧٩ ـ ٨٠).

وتوجّع النبي ﷺ لمقتل حمزةَ توجّعاً شديداً، وآلمه أشدّ الألم ما فعلت به هندٌ من المُثْلةِ.

ومرتِ الأيام.. ودخل النبيّ ﷺ وصحبه مكة فاتحين منصورين.

يومها...

كان بإمكانهم أن يثأروا لكل ذلك الماضي.

أن ينتقموا من كل من ظلمهم وآذاهم.

أن يقابلوا الغلظةَ بالغلظةِ، والسيئةَ بمثلها.

كان بوسع النبيّ ﷺ أن يجعل من هندٍ عبرةً لمن يعتبرْ.

ولكنّهم ـ والنبيُّ ﷺ إمامهم ـ اختاروا السبيل الأرقى..

اختاروا العفو والصفح!

لم يحملوا السلاح ليقاتلوا القوم.. لم يخرّبوا بيوت سادة قريش الذين عذبوهم ذات يوم.. لم يميلوا بأسيافهم على أهليهم وذراريهم.

لم يفعلوا شيئا من ذلك.. بل صفحوا وعفّوا.. وبادروا إلى الكعبة يصلون!

ورأتهم هندُ بنت عتبة فقالت لأبي سفيان: والله ما عُبِدَ الله حقّ عبادته قبل هذا اليوم، والله إن باتوا إلا مصلِّين قِياماً وركوعاً وسجوداً[١].

وكانت هندٌ قد رأت في منامها قبل دخول النبي ﷺ أنها تَغرَق في بحر فيأتي النبيُّ ﷺ فينقِذها، رأت ذلك مرتين، وحين أُوِّلتْ لها رؤياها

(١) انظر: الاستيعاب (١/ ٦٢٣)، وأسد الغابة (١/ ١٤٢٤)، والبداية والنهاية (٧/ ٥١)، والإصابة (٨/ ١٥٥).

بأنّ النبيّ ﷺ ينقذها من الكفر استكبرت وقالت: أنا على دين آبائي وأجدادي.

فلما رأت من عفو محمد ﷺ وأصحابه وحسن تعبّدهم مارأت أسلَمَت. فعفا عنها النبيّ ﷺ.

وهكذا كان التسامحُ أقوى من السيف..

وأسلم به من كان يُظنُّ أنّه لا يسلمُ أبداً.

❁ ❁ ❁

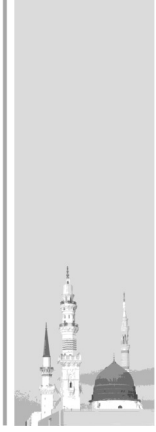

سياسة النصيحة في المجتمع النبوي

بعد أن قطعنا نصف الطريقِ..

نقف هنا وقفةً..

نتساءلُ: ما غايتنا من تتبع هذه المواقف النبوية الشريفة؟

وما الهدفُ من سياقة كل هذه القصص والحكايات؟

إنَّ الهدف ـ كما ألمحنا في أول الكتاب ـ تبيَّنُ معالم المنهج النبويِّ في إصلاح الفردِ، ثم الأسرةِ، ثم المجتمع، لأنّ هذا هو التدرج الطبيعي في الإصلاح، فالأفراد هم أنوية الأسر، فإن صلحوا صلحت أسرهم، والأسر هي أنوية المجتمع فإن صلحت صلح المجتمع.

وإذا كان الكتابُ كله تأكيداً لهذا المعنى فإني أحبّ في هذه الوقفة أن أركّز على (رعاية) النبيّ ﷺ لهذه المستويات الثلاثة في عملية الإصلاح.

عنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ: اسْتَيْقَظَ النَّبِيُّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَقَالَ: «**سُبْحَانَ اللَّهِ مَاذَا أُنْزِلَ اللَّيْلَةَ مِنْ الْفِتَنِ وَمَاذَا فُتِحَ مِنْ الْخَزَائِنِ أَيْقِظُوا صَوَاحِبَاتِ الْحُجَرِ فَرُبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٍ فِي الْآخِرَةِ**»(١).

وفي الحديث الآخر عند أحمد والترمذي وغيرهما عن كعبٍ رضي الله عنه

(١) رواه البخاري من حديث أم سلمة رضي الله عنها (١١٥).

قال: كان رسولُ الله ﷺ إذا ذهَب ثلُثا اللّيلِ قام فقال: «**يا أيّها النّاس، اذكُروا الله، اذكُروا الله، جاءتِ الرّاجفة، تتبَعُها الرادِفة، جاء الموتُ بما فيه، جاء الموتُ بما فيه**»(١).

إذا تأملنا هذين الحديثين وجدنا فيهما عناية نبوية بمجالات الإصلاح الثلاثة في جانب محدد هو قيام الليل والتعبد والتذلل.

فقد كان ﷺ أول القائمين الذاكرين العابدين.

ثم ثنّى بتنبيه (صواحب الحجر) زوجاتِهِ أمهات المؤمنين رضي الله عنهنّ، أي: أسرته.

ثمّ ثلَّث بـ (الناس) جميعاً.

ودعونا نركز قليلاً على تركيزِهِ ﷺ على صلاحِهِ في نفسِهِ، ليكون هو ﷺ الأسوةَ المثلى فيما يدعو إليه، ويحثّ عليه.

ذلك أنه أدرك ﷺ ما للقدوةِ من أثرٍ فعالٍ، وأدرك أنها أبلغُ من ألفِ موعظةٍ، فلذلك أخذ نفسه بالعزائم، وصدق فيه قول المولى جل جلاله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

قال ربيعةُ بن كعب الأسلميّ رضي الله عنه وأرضاه: كنتُ أخدم رسول الله ﷺ وأقوم له في حوائجه نهاري أجمَع حتى يصلّي رسول الله ﷺ العشاء الآخرة، فأجلس ببابه إذا دخل بيتَه أقول: لعلَّها أن تحدُثَ لرسول الله ﷺ

---

(١) رواه أحمد (٥/ ١٣٦) مختصراً، والترمذي في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤٥٧)، وعبد بن حميد (١٧٠)، والبيهقي في الشعب (١٤٩٩) عن أبي بن كعب رضي الله عنه، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح»، وصححه الحاكم (٣٥٧٨، ٣٨٩٤)، وهو في صحيح الترغيب والترهيب (١٦٧٠).

حاجةٌ، فما أزال أسمَعه يقول رسول الله ﷺ: «**سبحانَ الله، سبحانَ الله، سبحان الله وبِحمده**» حتى أملّ!!

وهذا هو الذكر الكثير الذي ذكره الله تعالى في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤١]، وفي قوله سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلٗا﴾ [الإنسان: ٢٦]. والذي جاء عنه في الأثر أنّ اللهَ سبحانه وتعالى قال لموسى عليه الصلاة والسلام: «**يا موسى، إذا ذكرتَني فاذكرني وأنتَ تنتفض أعضاؤُك، وكُن عند ذكري خاشعاً مطمئنّاً**»(١).

قال ربيعة رضي الله عنه: فأرجع أو تغلِبُني عيني فأرقُد، قال: فقال لي يوماً لِما يرى من خفَّتي له وخدمتي إياه: «**سلني يا ربيعة أعطِك**»، قال: فقلت: أنظُرُ في أمري يا رسولَ الله ثم أعلِمُك ذلك، قال: ففكَّرتُ في نفسي، فعرفت أنَّ الدنيا منقطِعة وزائلة، وأنَّ لي فيها رِزقاً سيكفيني ويأتيني، فقلت: أسأل رسولَ الله ﷺ لآخرتي؛ فإنّه مِنَ الله عزّ وجلّ بالمنزل الذي هو به، قال: فجئتُه فقال: «**ما فعلتَ يا ربيعة؟**» قال: فقلتُ: نعم يا رسولَ الله، أسألك أن تشفعَ لي إلى ربِّك فيعتِقَني من النّار، قال: فقال: «**مَن أمرك بهذا يا ربيعة؟**» قال: فقلتُ: لا والله الذي بعثك بالحقِّ، ما أمرني به أحدٌ، ولكنّك لما قلتَ: سلني أُعطِك وكنتَ من الله بالمنزل الذي أنتَ به نظرتُ في أمري وعرفتُ أنّ الدنيا منقطعةٌ وزائلة، وأنّ لي فيها رزقاً سيأتيني، فقلتُ: أسألُ رسول الله ﷺ لآخرتي، قال: فصَمَت رسول الله ﷺ طويلاً ثم قال لي: «**إني فاعِلٌ، فأعنِّي على نفسِك بكثرةِ السجود**»(٢).

---

(١) أخرجه أحمد في الزهد (ص٦٧)، ومن طريقه أبو نعيم في الحلية (٦/ ٥٥).

(٢) رواه أحمد في المسند (٤/ ٥٩) واللفظ له، والطبراني في الكبير (٥/ ٥٧)، قال =

وفي هذا الحديث مافيه من وصف ربيعة لعبادة النبيّ ﷺ وقيامِهِ وذكرِهِ.. تمثّل النبيّ ﷺ ذلك في نفسه قبل أن يقول لربيعة: «**أعنيّ على نفسك بكثرة السجود**».

وهذا التعبّد النبويّ في الخلوةِ دليلٌ آخرُ على صلاحِ الحال واستوائِهِ، وكمال القدوةِ وتمامها، كانت عبادته ﷺ هي هي في العلن والسرّ، في جوف بيته منفرداً، وفي المسجد على الملأ.

لقد أردتُ عبر هذه الوقفة أن أذكر بأننا إذْ نستعرضُ أياماً في المدينة نستعرضُ في الحقيقة سيرة أعظمِ أسوةٍ وقدوةٍ في حياة المسلمين، بل في حياة البشرية كلها.. لو عقلت!

❋ ❋ ❋

= الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ٥١٦): «رواه الطبراني في الكبير، وفيه ابن إسحاق، وهو ثقة ولكنه مدلس»، وحسن إسناده الألباني في الإرواء (٢/ ٢٠٩).

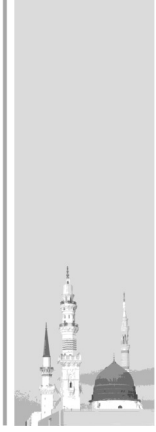

دور التربية في المجتمع النبوي

(التربية).. كلمة عظيمةٌ.. كثيرٌ من يتحدَّثُ عنها.. وقليل من يفهمها حقّ الفهم!

في هذا الموضع سنحاول أن نتفهّم بعض القضايا المتعلقة بالتربية من خلال الأيامِ المدنية النبويّة المباركة.

سنرى لمحاتٍ من (تربية) النبيّ ﷺ لأهل بيته وأصحابِهِ.

وسنرى إشراقات نبويّة رائعة في مفهوم (التربية).

دعوني أركِّز في هذا المقام على قضيتين اثنتين:

الأولى: مفهوم التربية.. ما المقصود بها؟ وهل هي مقصورة على تعويد الأبناء على الصلاة والصيام والشعائر الدينية الظاهرة؟ أم هي أوسع مدى من ذلك؟

والثانية: حدود التربية زماناً وإنساناً.. بمعنى: هل هناك (سنّ) معين يصبح الإنسان فيه غير محتاج إلى تربية؟ وهل التربية مقصورة على (أناس) بعينهم كالأبناء والطلاب مثلاً، أم هي شيءٌ يفتقر إليه كل إنسان مهما كان عمره ووضعه الاجتماعيّ؟

كعادتي في هذا الكتاب..

لن أجيب أنا..

بل سأجعل (الأيام المدنية) بحوادثها ونصوصها هي التي تجيبُ.

وقبل ذلك علينا أن نتأكّد من أنَّ (التربية) هي موجِبُ خيرية هذه الأمة وتفضيلها على غيرها، تأمَّلوا قولَ الله سبحانه وتعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، إنَّ الآية صريحةٌ في أنّ (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) سببُ كونِ هذه الأمة (خير أمةٍ) أخرجت للناس، وهل التربية في نهاية المطاف إلا أمرٌ بالمعروف ونهي عن المنكر؟

من هنا نتبيّنُ أنَّ (التربية) في جوهرها هي ميزة هذه الأمة وسرّ خيريتها.

ما الذي تقدِّمُهُ لنا (الأيام المدنية) من جديد في مفهوم التربية؟

هناك لفتةٌ جميلةٌ جداً نجدُها في قوله ﷺ: «**إن قامتِ الساعةُ وفي يَد أحدِكم فسيلةٌ فإن استطاع أن لا تقومَ حتى يغرسَها فليغرِسْها**»(١).

إنّ النبي ﷺ يوسّع مفهوم التربية هنا لتشمل التربية على العمل والجدّ والفاعلية والعطاء.

ليست التربيةُ الإسلامية هي التربية على الصلاة والصوم وسائر العبادات فحسب ـ مع جلالة هذه الأمور ـ ولكنها مع ذلك تربيةٌ على (إعمار الحياة) و(إعمال الحضارة).

وأكثر من هذا أنّ النبيّ ﷺ كان يعرف عن طريق الوحي أنّ مجموعةً من أصحابه سيُقتلون، ويعرِف أن هناك فتنةً ستحدث في عهد عثمان رضي الله عنه وأرضاه، وأنَّ قوماً سيُقتلون فيها، بل يقول لعمار بن ياسر: «**تقتُلُك الفئة**

(١) رواه أحمد (٣/ ١٩١)، وعبد بن حميد (١٢١٦)، والبخاري في الأدب المفرد من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩).

الباغية»[١]، ومع ذلك لم يقل لعمار: يا عمّار اتَّجه إلى المحراب وصلِّ! لم يقل له: اعتزل الحياة كلها وتفرّغْ للصلاة.. بل قال له كما قال لغيره: «فليغرسها»، إنها تربية نبوية صريحة على الجد والعمل والعطاء، لم يقل ﷺ إذا قامت القيامة وبيد أحدكم فسيلة فليرمها وليصل! بل قال: فليغرسها! مع أنّ صاحبها على يقين أنّه لن يجني منها ثمرةً فقد قامت الساعة! ولكنّه الدرس التربويّ: العمل الإيجابي يستمرُّ إلى آخر لحظة! والدرس التربوي الآخر: ليست التربية الإسلامية محصورةً في العبادات بل هي تربية كذلك على الفاعلية في الحياة.

بعض الآباء اليوم يقول: «الحمد لله أنا ما قصَّرت، ربَّيتُ ولدي، انظروا إليه فهو يصلي»، لكنّه لا يسأل عن ولده إذا خرج مع أصدقائه!

والبعض يقول لنفسه: الحمد لله أنا إنسان كريم وخلوقٌ، ولكنّه لا يسأل نفسه: كيف هو في إتقان وظيفته؟ كيف هو في المطعَم إذا أكل؟ هل يأكل ما حرّم الله سبحانه وتعالى أو يشرب ما حرّم الله؟ هذه الأسئلة قد لا تخطر على ذهنه؛ لأنّ مفهوم التربية قاصرٌ عنده.

لننتقل الآن إلى (حدود التربية).. هل للتربية حدود؟ هل هناك زمانٌ أو مكانٌ أو سنٌّ أو ظرفٌ أو وضع اجتماعيّ يصبح معه الإنسان في غنى عن التربية؟

مرة أخرى تجيبنا الأيام المدنيّةُ المباركة.

في عام الفتح مرَّ بلال بن أبي رباح، وصهيبٌ الروميّ، وسلمان الفارسي رضي الله عنهم بأبي سفيانَ وكان إذْ ذاك على كفرِهِ، فقالوا: والله ما أخذتْ

(١) رواه مسلم في كتاب الفتن، باب: لا تقوم الساعة حتى يمرّ الرجل بقبر الرجل فيتمنّى أن يكونَ مكان الميت من البلاء (٢٩١٦) من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

سيوف الله من عنق هذا الكافر مأخذها. فسمعهم أبو بكرٍ ﷺ فقال لهم: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم؟

فلما بلغ ذلك النبيّ ﷺ قال: «**يا أبا بكر، لعلّك أغضبتهم، لئن كنتَ أغضبتَهم لقد أغضبتَ ربَّك**»، فأتاهم أبو بكر ﷺ فقال: يا إخوتاه، أغضبتكم؟ قالوا: لا، يغفِر الله لك يا أخي[(١)].

ما الذي نراه هنا؟

النبيُّ ﷺ يربِّي أبا بكرٍ ويوجّهه!!

أبو بكر الصديق أفضل هذه الأمة بعد نبيّها ﷺ لم يكن في غنى عن التربية والتوجيه!

فكيف يزعمُ أحدٌ أنه بلغ من السنّ أو المكانةِ أو المعرفةِ ما يجعلُه أكبرَ من التربية؟

وانظر شيئاً آخر.. أبو بكر الذي يقول عنه النبيّ ﷺ: «**لو كنت متَّخذاً خليلاً لاتخذتُ أبا بكر خليلاً**»[(٢)] لم تكن محبتُهُ هذه سبباً للامتناع عن نصحه وتوجيهه!

إنّ الصداقة الوثيقة، والأخوة العميقة، لا ينبغي أن تكون سبباً في امتناع أحد الطرفين عن نصح الآخر وتربيته إذا وقعت الحاجة.

وهذا يوسف عليه الصلاة والسلام يعرف أنّ أحدَ أصحابه في

---

(١) رواه مسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب: من فضائل سلمان وصهيب وبلال رضي الله تعالى عنهم (٢٥٠٤) من حديث عائذ بن عمرو ﷺ.

(٢) رواه مسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب: من فضائل أبي بكر الصديق ﷺ (٢٣٨٣) من حديث ابن مسعود ﷺ.

السّجن سيُصلَب وتأكل الطيرُ من رأسِه، ومع ذلك كان يستمرّ في تربيته وهدايته وتعريفه بالله سبحانه وتعالى.

إذنْ ليس للتربية حدودٌ زمانيّةٌ أو مكانيّة..

إنّها وظيفةٌ تصلح للإنسان ماصلحت به الحياة.. يظلُّ الإنسان فاعلاً للتربية منفعلاً لها إلى أن يفارق الحياة.

هذا ما تعلّمنا إياه الأيام المدنية النبوية.

ليس هناك كبير عن التربية، يمكن لإمام المسجد أن يتربّى من الطالب، أو يتربى من الصغير في المسجد، ويمكن للأب أن يتعلّم من ابنه، والابن يتعلّم قطعاً من أبيه، وكلّ إنسان يتعلّم من الطرف الآخر مادامت التربيةُ مستمرَّة ولا تقف عند لحظة معينة.

النّشءُ اليومَ يظنّون أنّ التربيةَ تقِف عند مَرحلةٍ معيّنة، ويطالبون بذلك، وتجد أنّ الصحافة والإعلام وغيرها تريد أن تجعلَ الشباب يتحرّكون لوحدهم دون موجِّه، دون أب، ودون أسرة، ومنطقهم: هذه قراراتُنا، هذه حرّيّة شخصيّة! لا يريدون أن يربّيَهم أحَد، وقد نسوا أنّ التربية لا تقف عند مرحلةٍ معيَّنة، ولا تقف عند شخصٍ معيَّن، بل يظل الإنسان إلى أن يموتَ محلاً للتربية.

ولنختم فصلنا هذا بموقفين تربويين من النبيّ ﷺ.. نرى في أحدهما تربيته لزوجِهِ، وفي الآخر تربيته لنفسه ﷺ.

كان النبيُّ ﷺ عند بعض نسائه وهي عائشة رضي الله عنها وأرضاها، فأرسَلَت إحدى أمّهات المؤمنين بِصَحفة فيها طعام، فضرَبَت التي النبيّ ﷺ في بيتها يدَ الخادم فسقطت الصحفة فانفلَقت، فجمع النبيُّ ﷺ فَلقَ الصّحفة

ثم جعل يجمع فيها الطعام الذي كان في الصحفة ويقول: «**غارت أمُّكم**»، ثم حبس الخادم حتى أُتيَ بصحفة من عند التي هو في بيتها، فدفع الصحفة الصحيحة إلى التي كُسِرت صحفتها وأمسك المكسورة في بيت التي كَسَرت(١).

لقد غارتْ عائشة رضي الله عنها من ضرتِها، وأغضبها أن ترسل لرسول الله ﷺ طعاماً وهو في بيتها، ومثل هذه الغيرة حقٌّ لها لأنّها امرأةٌ، ولذلك عذرها النبيّ ﷺ بقوله: «**غارت أمُّكم**» لكنّ غيرالمقبول أن تفضي هذه الغيرة إلى إتلافِ مال الغيرِ، وهنا تدخّل المربي ﷺ فأخذ من بيت عائشة إناءً عوضاً عن الذي كسرته.

وفي غزوةِ بدرٍ عدّل رسولُ الله ﷺ الصفوفَ وفي يدِه قِدْحٌ يعدّل به القومَ، فمرَّ بسواد بن غَزِيَّة حليف بني عديّ بن النجار وهو مستَنتِل من الصفِّ، فطعَنه رسول الله ﷺ بالقِدْحِ في بطنه وقال: «**استوِ يا سَواد**»، فقال: يا رسول الله، أوجعتَني وقد بعثَك الله بالحقّ فأقِدني، فكشف رسول الله ﷺ عن بطنِه وقال: «**استَقِد**»، أي: تعالَ خُذ حقَّك مما صنعتُ، فضَع الرمح عليّ مثل ما صنعتُ بك، إنه أمرٌ تربويّ، فاعتنقه سوادٌ رضي الله عنه وقبّل بطنَه، قال: «**ما حملك على هذا يا سواد؟**» فقال: يا رسول الله، حضَر ما ترى، ولم آمن القتلَ، فإني أحبُّ أن أكونَ آخر العهد بك أن يمسَّ جِلدي جلدَك، فدعا له رسول الله بخير(٢).

❁ ❁ ❁

(١) رواه البخاري في كتاب النكاح، باب: الغيرة (٤٩٢٧) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) رواه ابن إسحاق ـ ومن طريقه ابن الأثير في أسد الغابة (١/ ٤٩٢) ـ قال: حدثنا حبان بن واسع، عن أشياخ من قومه به.

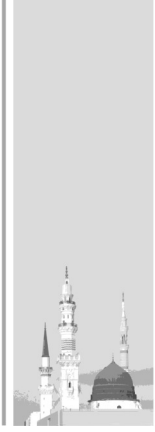

الترابط الأسري في المجتمع النبوي

في يوم من الأيّام كان عليه الصلاة والسلام في بيت عائشة، فلمّا حان وقت النوم وضع ﷺ رداءه، وخلع نعليه فوضعهما عند رجليه، وبسط طرف إزارِهِ على فراشِهِ فاضطجع.

وبقي ﷺ هنيهةً مضطجعاً فلما ظنّ أن عائشة رضي الله عنها قد نامت أخذ رداءه، وانتعل، وفتح الباب فخرج ثم أجافه رويداً.

فلمّا رأتْ عائشة رضي الله عنها ذلك لم تطق صبراً، ووقع في نفسها أنه يقصد بيت إحدى زوجاته!! فتقنّعت واختمرت وانطلقت في أثره ﷺ، فإذا هو قد سار إلى البقيع فقام فأطال القيام، ثم رفع يديه ثلاث مرات، وأخذ يدعو لهم ويقول: «**السلام على أهلِ الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدِمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم للاحقون**».

فلما فرغ النبيّ ﷺ انحرفَ لينصرفَ، فانحرفتْ عائشةُ رضي الله عنها، ثمَّ أسرعَ فأسرعَتْ، ثم هرولَ فهرولَتْ، ثم أَحْضَرَ ـ وهو ضربٌ من السير السريع ـ فأحضرتْ، فدخلت البيت قُبيل دخوله ﷺ، فما هو إلا أن استلقت على فراشها حتى دخل النبيّ ﷺ، فنظر إليها فإذا هي تلهثُ من التعبِ، فقال ﷺ: «**ما لكِ يا عائش حَشْيا رَابِية؟**» أي: لماذا صدرك يتحرّك هكذا؟ فقالت: لا شيء يا رسولَ الله، فقال: «**لتخبريني أو ليخبرَنِّي اللطيف الخبير**»، فقالت: يا رسولَ الله بأبي أنتَ وأمي، ثم

أخبرته رضي الله عنها وأرضاها خبرها وما ظنَّتْهُ، فقال ﷺ: «**فأنتِ السوادُ الذي رأيتُ أمامي؟**»، قالت: نعم، فلَهَدها ـ أي: ضربها ـ في صدرها لَهْدةً أوجعتها، وقال: «**أظنَنتِ أن يحيفَ الله عليك ورسوله؟**»، فقالت: مهما يكتُمِ الناس يعلمه الله.

ثم إنّ النبيّ ﷺ بيّن لها علةَ خروجِهِ بقوله: «**فإنَّ جبريلَ أتاني حين رأيتِ، فناداني فأخفاه منكِ، فأجبته فأخفيتُه منك، ولم يكن يدخُلُ عليك وقد وضَعتِ ثيابَك، وظننتُ أن قد رقدتِ، فكرهتُ أن أوقظَك، وخَشِيت أن تستوحِشي، فقال: إنَّ ربَّك يأمُرك أن تَأتيَ أهلَ البقيع فتستَغفِر لهم**»[(١)].

هذه الحكايةُ من حكايات البيت النبويّ فيها الكثير من العبر والدروس.

العبرةُ الأولى هي ما يتعلق بزيارة المقابر.

فقد كان ﷺ حريصا على زيارتِها، بل كان يأمرُ بذلك ويُؤمر بذلك، وقد رأينا كيف نزل عليه جبريل عليه السلام ليأمره بزيارة البقيع والدعاء لأهله رضي الله عنهم.

وكان ﷺ يأخذ الصحابة للمقابر ويعظهم عندها مستغلاً رقةَ قلوبهم برؤية الأمواتِ، وقد قال عليه الصلاة والسلام مرة لأصحابه وهو يشير إلى قبر: «**ركعتان خفيفتان مما تحقِرون وتنفَّلون يزيدهما هذا في عمله أحبّ إليه من بقية دنياكم**»[(٢)]، إنها موعظةٌ عمليةٌ مؤثرةٌ، إنَّ هاتين

(١) رواه مسلم في كتاب الجنائز، باب: ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها من حديث عائشة رضي الله عنها (٩٦٦).

(٢) رواه ابن صاعد في زوائد الزهد (ص١٠)، والطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال ابن صاعد: «هذا حديث غريب»، وقال الهيثمي في المجمع =

الركعتين اللتين قد لا تلقون لهما بالاً هما عند الميت خيرٌ من الدنيا وما فيها، فمالكم تفرطون؟

وهذه الموعظةُ النبويةُ رسالةٌ إلى كلِّ مسلم تعلمه أنّ هذه الحياة الدنيا هي زمن العمل، وبناء عليه يتفاوت الناس في منازلهم في الآخرة: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٢]، فهناك فرق بين الإنسان الذي يكثر من طاعة الله سبحانه وتعالى وبين الإنسان الذي يغفل وينسى الله جل جلاله.

فلا تستحقِر ـ أخي ـ العملَ الصالح، إذا استيقظتَ في الليل فقُم وتوضأ وصلِّ لله سبحانه وتعالى، وتذكر حديث عمرو بن عبسة ﷺ عندما وصف له النبي ﷺ الوضوء ثم قال: «**فإن هو قام فصلَّى فحمِد الله وأثنى عليه ومجَّده بالذي هو له أهل وفرَّغ قلبه لله إلا انصرف من خطيئته كهيئته يومَ ولدته أمه**»[(١)]، فماذا يريد الإنسان أكثر من ذلك؟! يرجع من ذنوبه كيوم ولدته أمّه، ثم إنه بالركعتين الخفيفتين ترفع درجاتُه عند الله، كما قال ﷺ: «**إنّك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة**»[(٢)]، وفي قصة ربيعة بن كعب الأسلمي ﷺ وأرضاه لما قال للنبيِّ ﷺ: أريد مرافقتَك في الجنة، قال له ﷺ: «**فأعِنّي على نفسك بكثرةِ السجود**»[(٣)].

= (٢/٥١٦): «رواه الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات»، وهو في السلسلة الصحيحة (١٣٨٨).

(١) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٨٣٤)، باب: إسلام عمرو بن عبسة عن عمرو بن عبسة السلمي ﷺ.

(٢) رواه مسلم في كتاب الصلاة (٤٩٠)، باب: فضل السجود والحث عليه من حديث ثوبان ﷺ.

(٣) رواه مسلم (٤٩٠)، باب: فضل السجود والحث عليه، من حديث ربيعة بن كعب، ورواه أحمد في المسند (٤/٥٩)، والطبراني في الكبير (٥/٥٧)، قال الهيثمي في =

وهكذا تتابع الأحاديث على ضرورة تحقيق العبادة والطاعة، فكيف يرضى مسلم لنفسه ألا يصلي الفريضة؟ وأن تذهب عليه صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر؟

نجد البعض أحياناً لا يصلِّي أياماً، أو يخرج وقت الصلاة وهو لا يصلي، هل هذا هو المسلم الحقيقيّ الذي يريد أن يدخل الجنّةَ ويريد أن يرافق النبيَّ عليه الصلاة والسلام؟!

ألا يخشى أمثال هؤلاء أن يشملهم الحديث العظيم، حديث الذي يُردُّون عن الحوضِ، فإذا سأل عنهم النبي ﷺ قيل: «**إنّك لا تدري ما أحدثوا بعدك**»(١).

العبرة الثانيةُ من هذه القصة النبوية المدنية هي في التعامل مع المرأة وما رُكِّبَ فيها من طباع.

لقد حملتِ الغيرةُ عائشة رضي الله عنها على أن تسيء الظنّ برسول الله ﷺ، وتحسبه ذاهباً إلى غيرها من زوجاتِهِ في ليلتها، ولم تكتف بسوء الظنّ بل تتبعتْه ﷺ وراقبته!!

ماذا لو فعلت زوجة أحدنا هذا؟!

لا أستبعد أن تكون ردةُ الفعل عنيفةً: شتماً أو ضرباً أو.. طلاقاً!

ولكنّ النبي ﷺ بحكمتِهِ لم يزد على أن ضرب على صدرها وقال:

= مجمع الزوائد (٢/ ٥١٦): «رواه الطبراني في الكبير، وفيه ابن إسحاق، وهو ثقة ولكنه مدلس»، وحسن إسناده الألباني في الإرواء (٢/ ٢٠٩).

(١) رواه البخاري في الرقاق، باب: كيف الحشر (٦١٦١)، ومسلم في كتاب الجنة، باب: فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (٢٨٦٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

«**أتخافين أن يحيف عليك الله ورسوله**» ثم شرح لها بعد ذلك ما حصل تطييباً لخاطرِها.

إن هذا الوعي والفقه لطبيعة المرأة، وآليات التعامل معها هومن أهم دروس هذه القصةِ.

المشكلةُ أننا نفهم الأمور أحياناً على غير وجهها.

يقرأ بعضنا قوله ﷺ: «**إنَّ المرأةَ خلِقَت من ضلعٍ أعوج، وإنّ أعوجَ شيءٍ في الضِّلع أعلاه، إن ذهبتَ تقيمُه كسرته**» فلا يفهم من هذا إلا أن المرأة ناقصة عوجاءُ لا أمل في إصلاحها!! وربما تبرع بشتمِ زوجتِهِ بمثل هذه المعاني كلما وقع خلاف!!

وفاعل هذا غفل عن القصة التي سقناها في أول الحديث، إنَّ الذي وصف المرأة بأنها خلقت من ضلعٍ أعوج هو الذي تفهّم موقف عائشة وأحسن التعامل معها، وهو أيضاً الذي قال بعد وصف المرأة بأنها خلقت من ضلع أعوج: «**فاستوصوا بالنساء خيراً**»[(١)].

إذن لم يكن النبيّ ﷺ يريدُ أن يعيبَ المرأة، بل أراد أن يبين الصفةَ التي خلقها الله عليها ليتمكن الزوج من التواؤم معها والتعامل بمقتضاها. ولذلك جاء في الرواية الأخرى للحديث قوله ﷺ: «**فدارِها تَعِش بها**»[(٢)].

لاحظوا ثلاث كلمات: «فدارها تعِش بها»، إن أردتَ أن تعيش مع

---

(١) رواه البخاري في كتاب النكاح، باب: الوصاة بالنساء (٤٨٩٠)، ومسلم في كتاب الرضاع، باب: الوصية بالنساء (١٤٦٨)من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه أحمد (٥/ ٨)، والطبراني في الكبير (٧/ ٢٤٤) من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه، وصححه ابن حبان (٤١٧٨)، والحاكم (٧٣٣٣)، وهو في صحيح الترغيب والترهيب (١٩٢٦).

الزوجة فدارها ولاطفها وأعطِها بعض الهدايا، إذا أخطأَت يوماً ما فتجاوز واصفَح ولا تشدّد عليها.

وفي موقف النبي مع عائشة رضي الله عنها ما يوحي بأنّه لابأس للزوج أن يسمح للزوجةِ بالتحقق من بعض ما يوجب لها شكاً، نعم لا نجيز لها أن تفتح الجوال كل مرة وأن تفتش الأدراج والملابس، ولكن من حكمة الزوجة أن يسمح لها بالاطلاع على ما يزيل شكها من فترة لأخرى.

ومما يلحظ كذلك أن عائشة رضي الله عنها أمّ المؤمنين خرجت من البيت لتتأكد من بعض الأوضاع وترى بعض الأمور، فلم يمنعها النبي ﷺ، ولم يقل لها: لماذا خرجتِ من بيتك؟! بل تركها النبي عليه الصلاة والسلام وشأنَها.

العبرة الثالثة مفادُها أن الذي يطوي صدره على خطيئةٍ يظهر ذلك في ملامحِهِ اضطراباً وقلقاً! فعائشة رضي الله عنها كانت حشيا رابية، صدرها يتحرك وجسمها يتحرك بسبب القلق.

ومثل ذلك وقع للصحابي الجليل المقداد بن الأسود رضي الله عنه لما شرِب كوبَ لبنِ النبي عليه الصلاة والسلام بغير إذنه، حيث لم يستطع أن ينام إذْ نام صاحباه(١).

فالذي يقع في الأخطاء وفي التجاوزات لا تقل إعانة وتوفيق الله سبحانه وتعالى له، ويُلحظُ هذا على فلتات لسانه أو على قسمات وجهه.

❁ ❁ ❁

(١) قصة المقداد هذه رواها مسلم في صحيحه: كتاب الأشربة، باب: إكرام الضيف وفضل إيثاره (٢٠٥٥) من حديث المقداد رضي الله عنه.

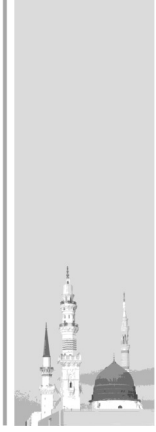

الفاقة والحاجة في المجتمع النبوي

كيف كان المجتمعُ المدنيُّ النبويُّ يتعامل مع الدَّيْنِ؟

هل كان يتوسَّعُ فيه؟ ويتساهل في أمر قضائِهِ؟ أم كان على العكس من ذلك يشدِّد فيه أخذاً ووفاءً؟!

دعونا نتلمّس ملامح هذا الجانب (الماليّ) من خلال هذه القصة.

استدان الصحابيُّ الجليل عبد الله بن أبي حَدْرَدٍ الأسلميّ أربعةَ دراهمَ من رجلٍ يهوديٍّ، فلمّا حانَ أجل السدادِ جاء اليهودي يطالبُ بمالِهِ، ولم يكن عند عبد الله شيءٌ، فاعتذر منه فما قَبِلَ عذره، ورفع أمره إلى النبيّ ﷺ ـ وانظر ثقة اليهوديّ بعدالة نبيّ الرحمة مع أنّه يشكو إليه رجلاً من أصحابه! ـ، فلما بلغَ الخبرُ رسول الله ﷺ نادى عبد الله وقال له: «**أعطِه حقَّه**» أي: دراهمه الأربعة، فقال: والذي بعثك بالحقّ ما أقدِر عليها، فقال عليه الصلاة والسلام: «**أعطه حقَّه**»، قال: والذي نفسي بيده، ما أقدِر عليها، قد أخبرتُه أنك تبعثُنا إلى خيبر فأرجو أن تغنمَنا شيئاً فأرجع فأقضيه، فقال عليه الصلاة والسلام: «**أعطِه حقَّه**»، وكان النبي ﷺ إذا قال ثلاثاً لم يُراجَع.

فخرج ابن أبي حدرد إلى السوق وعلى رأسه عِصابة وهو متَّزِر ببردة، فنزع العمامةَ عن رأسه فاتَّزر بها، ونزع البردَةَ فقال لليهوديّ: اشتَر منّي هذه البردةَ، فباعها منه بأربعة دراهم.

فبينا هو راجعٌ من السوقِ إذْ مرّت به عجوز، فتعجبت من هيئتِه وقالت: ما لك يا صاحبَ رسول الله ﷺ؟! فأخبرها خبره مع اليهوديِّ، فقالت المرأة العجوز: ها، دونك هذا، ببردٍ عليها طرحَته عليه[١].

ولعلنا لاحظنا ما في هذا الحديث من تشديده ﷺ على قضاء الدين. إنه لم يقبل من الصحابي الجليل محاورةً ولا مراجعةً، ولم يلتفتْ إلى شكواه من الافتقار، بل قال له في أمر صريح لا يقبل المراجعة: «**أعطِه حقَّه**»، كرر ذلك ثلاثاً ليُشعر هذا الصحابيّ ومن ورائه أمةَ الإسلام كلها أن الإسلام لا يتراخى في حقوق العباد، ولا يتساهل في أموالهم.

ولم تمنع النبيَّ ﷺ يهوديّةُ الرجلِ من أن يقضيَ له بحقِّه، ويشدّد على صاحبِهِ في القضاءِ، ولم يمنع عبدَ الله فقرُهُ وحاجتُهُ من أن يحتالَ للسدادِ ببيعِ إزارِهِ!!

إنّ المعنى التربوي العميق الذي نخرجُ به من هذا الحديثِ هو ضرورة أن يستشعر الإنسانُ خطرَ الدَّيْن، وأهمية الوفاء بالحقوقِ، وأن يدرك المرءُ أنّ عليه بذْلَ أقصى جهده ليفي بما التزمَ به. إن سدادَ الديونِ ليس مرهوناً بيسار الحالِ، وسعةِ المال، بحيثُ يكون عند الإنسانِ (فائضٌ) ماليٌّ يسدد منه، لا، بل الوفاءُ يقتضي أن تضيّق على نفسِكَ، وتتخفف من الكمالياتِ من أجل أن تتخلص مما عليك من ديونٍ.

لقد باع عبد الله رضي الله عنه (إزاره) ليسدد دينه، وأحدنا اليوم يتهربُ من

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٤٢٣)، والطبراني في الأوسط (٤٥١٢) وفي الصغير من حديث عبد الله بن أبي حدرد رضي الله عنه، قال الهيثمي في المجمع (٤/ ٢٣٣): «رواه أحمد والطبراني في الصغير والأوسط، ورجاله ثقات، إلا أن محمد بن أبي يحيى لم أجد له رواية عن الصحابة، فيكون مرسلا صحيحا»، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥/ ١٤٢).

السداد بحجة أنّه لايستطيع، على حين تجدُهُ يملك سيارةً فارهةً!! وبيتاً فاخراً!! ويغير أثاثه كل سنة!! ويسافرُ كل صيفٍ سائحاً!!

وأغربُ من هذا وأعجبُ أن تجد بعض المستدينين إذا استدانَ من مليءٍ تلكأ في السداد بحجةِ أن المقرِضَ عنده (مال كثيرٌ) وهو في غنى عن سداد هذا الدين!!!

سبحان الله!!

وكأن السداد مرهونٌ بسعةِ المقرضِ أو ضيق ذاتِ يدِهِ، وليس هو حقاً واجباً له.

لقد قبل النبيّ ﷺ من هذا اليهوديِّ إلحاحه على (دراهمه الأربعة) مع أنّ يهودَ كانوا في غالبيتهم أهل مالٍ وتجارة، قبل منه إلحاحَهُ رغم فقر ابن أبي حَدْرد رضي الله عنه وأرضاه، لماذا؟ لأن اليهوديّ صاحب حق، والرسول ﷺ يقول: «**إنَّ لصاحِب الحقِّ مقالاً**»[١].

ومن قضايا الدَّيْنِ التي تربّى عليها المجتمعُ المدنيُّ ضرورةُ تضييق نطاقِهِ إلى أقصى حد، واقتصاره على المهمّ الضروريّ من أمور الحياةِ، فقد قال ﷺ: «**إن الله حرَّم عليكم أخذاً وهات**»[٢]، وهذا واضح الدلالة في تحريم الأخذ بغير حاجةٍ، وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أنّ الإقدام على الدَّين الذي لا حاجة له ـ والحاجة هنا بمعناها الأصولي ـ حرامٌ لا

(١) رواه البخاري في كتاب الاستقراض، باب: لصاحب الحق مقال (٢٢٧١)، ومسلم في كتاب المساقاة، باب: من استلف شيئا فقضى خيرا منه (١٦٠١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري في كتاب الاستقراض، باب: ما ينهى عن إضاعة المال (٢٢٧٧)، ومسلم في الأقضية، باب: النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة (٥٩٣) عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

يجوزُ، وحملوا عليه حديث الجنازة الشهير، حيث كان ﷺ يسأل إذا جاءت الجنازة: «**هل عليه من دين؟**» فإن قالوا: نعم قام عليه الصلاة والسلام ولم يصلِّ وقال: «**صَلُّوا على صاحبكم**»(١).

ومع كل هذا التشديد فإنك تجد الناس اليوم ـ وللأسف ـ يتساهلون في الدَّيْن، ويركبون متنه لحاجةٍ ولغير حاجةٍ، ولا سيما مع هذه (التسهيلات) ـ هي في الحقيقة توريطات! ـ التي تقدمها المصارف والبنوك وشركات التقسيط.

نعم، لسنا ننكر أن الإنسان قد يكون بحاجةٍ للدَّيْنِ لقضاء بعض أمور الحياة الضرورية، وهذا لابأس به فقد توُفّي النبيّ ﷺ ودرعُه مرهونةٌ عند يهوديّ بثلاثين صاعاً من شعير(٢).

ولكن المشكلة الآن هي في التوسع الزائد، فتجد من يقترضُ ليسافر في نزهة! ومن يقترضُ ليلقي بأمواله في الأسهم! ومن يقترض ليشتري أثاثاً جديداً على حين أن أثاثه صالحٌ ونظيفٌ! ومن يقترض ليشتري سيارةً فارهةً وعنده مايفي بالغرض! ومن يقترض لكي يعيش في مستوى ماديّ هو أعلى من دخلِهِ!

ثم ينشأ عن ذلك كله كوارث وسجون ومطالبات ومطاردات!!

دعونا نرجع إلى المجتمع المدنيّ لنرى صوراً أخرى من صور التعامل النبوي مع قضية الدَّيْنِ.

---

(١) رواه البخاري في كتاب الكفالة، باب: من تكفّل عن ميت ديناً فليس له أن يرجع (٢١٧٣) من حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري في كتاب الجهاد، باب: ما قيل في درع النبي ﷺ والقميص في الحرب (٢٧٥٩)، ومسلم في المساقاة، باب: الرهن وجوازه في الحضر والسفر (١٦٠٣) من حديث عائشة رضي الله عنها.

ها نحن أمام قصةٍ تبيّن مدى إجلال النبيّ ﷺ لحقِّ صاحب الحقِّ.

جاء أعرابيٌّ إلى النبي ﷺ يتقاضاه ديناً كان له عليه، فاشتدَّ عليه حتى قال له: أُحرِّجُ عليك إلا قضَيتَني! فزجره الصحابة رضي الله عنهم وانتهروه وقالوا له: ويحك! تَدري من تكلِّم؟! أي: كيف تقول هذا لرسولِ الله ﷺ؟! وكيف ترفع صوتَك فوق صوته؟!

فقال: إنّي أطلُبُ حقّي.

فما الذي قاله النبيّ ﷺ؟ أأقرَّ الصحابةَ على زجرِ الأعرابيِّ وهو صاحبُ الحقِّ؟!

كلا، وما كان ليفعل بأبي هو وأمي ﷺ.

بل قال: «**هلَّا مع صاحبِ الحقِّ كُنتُم؟**».

هكذا!

يأمرُهُم أن يكونوا مع هذا الأعرابيّ رغم سوء تصرفه لأنه صاحبُ حقٍّ، أو ليس هو القائل ﷺ: «**إن لصاحِب الحقِّ مقالاً؟**»[1].

لم يكتفِ النبيُّ ﷺ بذلك، بل أرسل إلى خولة بنت قيس وهي زوجة حمزةَ رضي الله عنه وأرضاه فقال لها: «إن كان عندك تمر فأَقرِضينا حتى يأتينا تمرنا فنقضيك»، فقالت: نعم بأبي أنت يا رسول الله، فأقرضته فقضى الأعرابيَّ وأطعَمَه، فقال هذا الرجل للنبي عليه الصلاة والسلام: أوفيتَ أوفى الله لك، فقال النبيّ عليه الصلاة والسلام: «**أولئك خِيار الناس، إنّه**

(١) رواه البخاري في كتاب الاستقراض، باب: لصاحب الحق مقال (٢٢٧١)، ومسلم في كتاب المساقاة، باب: من استلف شيئا فقضى خيرا منه (١٦٠١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

لا قدِّسَت أمّةٌ لا يأخُذ الضعيف فيها حَقَّه غيرَ مُتَعتَعٍ»[١].

إنّه المعيارُ النبويّ.. الأمة التي لا يأخذ فيها الضعيفُ حقه دون مشقة تعتريه، أو مذلةٍ تؤذيه، هي أمةٌ لا تستحق التقدير ولا الاحترام.

وللأسف.. فإن كثيراً من بلاد المسلمين لا تطبِّق هذا المعنى، بل كثير منها يعاني فيها الفقراءُ الأمرَّين، ويعاني الضعفاء حتى يعيهم الجهد لكي يحصلوا على حقوقهم، هذا إن حصلوا عليها!!

وانظر إلى قوله عليه الصلاة والسلام: «**إنّه ليس مِن غَريم يخرُج من عِند غريمِه راضياً إلَّا صلّت عليه دوابّ البرّ ونون البحار، وليس من غريمٍ يلوِي غريمَه وهو يجِد إلَّا كتَب الله عليه في كلِّ يومٍ وليلة إثماً**»[٢].

تصوّر!!

في كل يوم وليلة إثماً!!

هل يعي هذا من تورط في الدَّيْن بلا حسابٍ، وتراخى في أداء الحقوق؟

رسالةٌ أبعثُها إلى كلِّ مسلم وإلى كلِّ مؤمن أن يحصيَ الديونَ التي عليه، سواء كانت من صاحب أو من صديق أو حتى من زوجة أو أبٍ أو أمّ، لا تَبيت ليلتك إلا وقد سجَّلتَ الديون حتى يَقضي الله عنك إذا كنتَ تريد أن تؤدِّيَها.

---

(١) رواه ابن ماجه في كتاب الصدقات، باب: لصاحب الحق سلطان (٢٤٢٦)، وأبو يعلى (١٠٩١) مختصراً، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال البوصيري في الزوائد: «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات»، وهو في صحيح الترغيب والترهيب (١٨١٨).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٢٤/ ٢٣٣) عن خولة رضي الله عنها، قال الهيثمي في المجمع (٤/ ٢٤٩): «رواه الطبراني في الأوسط والكبير، وفيه حبان بن علي، وقد وثقه جماعة وضعّفه آخرون»، وهو في ضعيف الترغيب والترهيب (١١٤٠).

ومن المنكر أنّ البعض إذا كانت ديونه على (الدولة) تهرّب من سدادِها وقال: هذه دولة عندها مال كثير فما تصنع بهذا المال اليسير؟

وهذا لا يقوله مؤمن يخشى الله، ويعلم أنه أخذ المال بشرط إرجاعِهِ، فهو بذلك دينٌ في ذمتِهِ يلزمُهُ أن يفي به.

❋ ❋ ❋

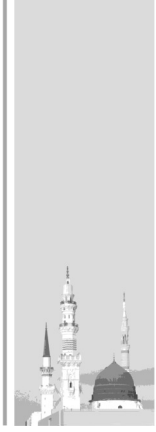

إشاعة النبل والوفاء في المجتمع النبوي

في سجل كل واحدٍ منّا (صفحات شرف) لأناسٍ من حولِهِ وقفوا معه، وآزروه، وعاونوه أحوجَ مايكونُ إلى العون.

ومن تمام خلق الإنسان، وكمال نفسِهِ، وجمال مروءتِهِ، أن يقابل إحسانهم بإحسانٍ، وأن يجعل (الوفاء) سيّدَ التعامل معهم.

لقد كان النبيّ ﷺ حريصاً على ترسيخ هذا الخلقِ العظيم في المجتمع المدنيّ الذي رباه على عينِهِ، كان يعلِّم أصحابه أن يكونوا أوفياء لآبائهم، لأمهاتهم، لأزواجهم، لأصدقائهم وإخوانهم، لكل من له عليهم جميلٌ أو إحسانٌ أو سابقةُ فضلٍ.

وسنرى هنا كيف هو وفاء النبيّ ﷺ لأزواجِهِ، ووفاؤه لإخوانِهِ، ووفاؤهُ لكل ذي فضل من المسلمين.

أما وفاؤه ﷺ لأزواجه فنراه في خبره مع عائشة رضي الله عنها، وذلك حين دعاه رجلٌ فارسيٌّ كان طيِّبَ المرقِ، فأشار النبيّ ﷺ إلى عائشةَ وقال: «**وهذه؟**» يعني: هل تحضر معي؟ فقال الرجل الفارسي: لا، فقال عليه الصلاة والسلام: «**لا**»، فعاد الرجل الفارسيّ مرةً أخرى يدعوه، فقال عليه الصلاة والسلام: «**وهذه؟**» قال الفارسي: لا، قال عليه الصلاة والسلام: «**لا**»، ثم عاد مرّة ثالثة يدعوه، قال عليه الصلاة والسلام:

«**وهذه؟**» قال الفارسي: نعم، فقاما يتدافعان حتى أتيا منزل هذا الرجل الفارسيّ[١].

ما الذي نقرؤه في هذه القصة؟

إنّه وفاء رسول الله ﷺ لزوجه عائشة رضي الله عنها.

فقد كان في يومها، وكان الوقتُ وقتَها، وكانت أملك له، فلم يشأ ﷺ أن يجيب هذه الدعوة حتى تكون هي معه، لئلا يجورَ على الوقت المخصص لها.

وهذا نمطٌ نادرٌ من الوفاء للزوجاتِ نفتقده اليوم في كثير من الرجال الذين يذهبون حيث شاؤوا ومتى شاؤوا وكيف شاؤوا دون أدنى مراعاةٍ لحال زوجاتهم وما يحتجْنَ إليه من الأنس بهم والجلوس معهم.

وانظر صورة أخرى من صور الوفاء النبويِّ للزوجات، كان ﷺ يكثر من ذكر خديجة رضي الله عنها بعد وفاتها، وربما ذبح الشاة ثم قطعها أعضاءً ثم بعثها في صدائق خديجة، أي: صاحباتها، فتغار عائشة رضي الله عنها وتقول: ما غِرت على أحدٍ من نساء النبي ﷺ ما غرتُ على خديجة وما رأيتُها، وتقول له ﷺ: كأنّه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة، فيجيبها ﷺ: «**إنها كانت وكانت، وكان لي منها ولد**»[٢].

هذا وفاؤه ﷺ لزوجاته.

وأما وفاؤُهُ لصاحبِهِ وخليلِهِ أبي بكرٍ رضي الله عنه فانظره في هذه القصة.

---

(١) رواه مسلم في كتاب الأشربة، باب: ما يفعل الضيف إذا تبِعه غير من دعاه صاحبُ الطعام واستحباب إذن صاحب الطعام للتابع (٢٠٣٧) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب: تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها رضي الله عنها (٣٦٠٧) عن عائشة رضي الله عنها.

كان الصحابة ﷺ جلوساً مع النبيّ ﷺ، إذ أقبل أبو بكر آخذاً بطرف ثوبِه حتى أبدى عن ركبته، فقال النبي ﷺ: «**أمّا صاحبكم فقد غامر**»، فسلّم وقال: إني كان بيني وبين ابن الخطاب شيء، فأسرعتُ إليه ثم ندمتُ، فسألته أن يغفرَ لي فأبى عليَّ، فأقبلتُ إليك، فقال: «**يغفر الله لك يا أبا بكر**» ثلاثاً، ثم إنَّ عمر ندِم فأتى منزلَ أبي بكر فسأل: أثَمَّ أبو بكر؟ فقالوا: لا، فأتى إلى النبي ﷺ فسلّم، فجعل وجه النبيِّ ﷺ يتمعَّر حتّى أشفق أبو بكر، فجثا على ركبتيه فقال: يا رسول الله، والله أنا كنتُ أظلَمَ، مرتين، فقال النبي ﷺ: «**إنَّ الله بعثني إليكم فقلتم: كذبتَ، وقال أبو بكر: صدق، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركو لي صاحبي؟!**» مرتين، فما أوذي بعدها[(١)].

ما الذي يعنيه قوله ﷺ: «**وواساني بنفسه وماله؟**» إنَّ كل ما يقدمه الإنسان خدمةً لهذ الدين لا منَّة له فيه، بل هو واجبٌ عليه، ولكنّ النبي ﷺ أراد بذلك أن يرسخ قيمة الوفاء، الوفاء للصاحب الذي ثبَّتَ حين خذَّل الناس، وثَبَتَ حين انهزمَ الناس.

فمَنْ مِنَ الناس اليوم يعترفُ بفضل الآخرين عليه؟ أين الابن الذي يعترف بفضل أبيه؟ والبنت التي تعترف بفضل أمها؟ والتلميذ الذي لا ينسى فضل أستاذِهِ؟

إنّ البعض إذا كبرَ وصارَ ذا شأنٍ نسِيَ رجالَ البداياتِ، ونسي الذين وقفوا معه في أوّليتِهِ، وها هو رسول الله ﷺ لاينسى الاعتراف بفضل أبي بكر عليه حين صدَّقه وواساه بنفسه وماله.

إنّه الوفاء.. يتمثّله النبيّ ﷺ في صورته العليا.

---

(١) رواه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب: قول النبي ﷺ: «**لو كنت متَّخذاً خليلاً**» (٣٤٦١) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

ولم يكن وفاؤه ﷺ مقصوراً على المقرّبين، بل كان وفيّاً لكل ذي فضل.

وهل أجملُ وأغربُ من وفائه لامرأة سوداء عجوز كانت تنظّف المسجد؟!

كانت هذه المرأة تتعاهد مسجد رسول الله ﷺ بالتنظيفِ، فذكرها النبيّ ﷺ ذات يوم وسأل عنها، فأُخْبِر أنها قد ماتت ودُفنت، فقال ﷺ: «**أفلا كنتُم آذنتموني؟**»، يعني: هلا أخبرتموني بشأن هذه المرأة السوداء؟ وقال ﷺ: «**دلوني على قبرها**»، فدَلّوه فصلّى عليها ثم قال: «**إنّ هذه القبورَ مملوءة ظلمةً على أهلها، وإنّ الله عزّ وجلّ ينوِّرها لهم بصلاتي عليهم**»[(١)].

أرأيتم هذا الوفاء النادر؟ امرأة عجوزٌ لا شأن لها بين الناس، حتّى إن روايةً للبخاري قد جاء فيها أنّ الصحابة حَقَروا شأن المرأة وقالوا: إنها كانت كذا وكذا!

ومع ذلك يذهب النبيّ ﷺ إلى قبرها ويصلي عليها ويدعو لها وفاءً لإحسانِها بتنظيفها لمسجده ﷺ!

لقد أراد ﷺ أن يربي مجتمع المدينة على الوفاء.. الوفاء للأقربين، الوفاء للأصدقاء، الوفاء لكل ذي فضل مهما صغر؛ لأن الوفاء هو عِمادُ العلاقات في المجتمع الإنسانيّ، عندما ينتشر الوفاء ينتشر الخير، وتعمّ المحبةُ، وتقلّ المشكلاتُ، وتتصافى القلوب، ويُحفظ لكل ذي حقّ حقه.

ومن عجبٍ أنَّ عالم الطير لم يخلُ من وفاء!!

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجنائز، باب: الصلاة على القبر بعدما يدفن (١٢٧٢)، ومسلم في كتاب الجنائز، باب: الصلاة على القبر (٩٥٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فقد حُكِيَ أنَّ سفيانَ الثوريَّ رحمه الله زاراً أخاً له فوجد في داره عصفوراً محبوساً في قفص، فقال: ألا تطلقُ هذا الطير؟ فقال: هو لابني يتسلّى بالنظر إليه وملاعبته، فقال: اتخذ لابنك شيئاً يتسلى به وأطلق سراحه فإنما ميدانُهُ الفضاءُ الرحبُ لا القفصُ الضيّق، فاستجاب الرجلُ.

فلمّا تُوفي سفيان رحمه الله ـ بعد ثلاثة أيام من ذلك الموقف ـ رأى الناس ذلك الطير يطيرُ فوق الجنازة! فلما دُفِنَ حطّ الطيرُ على قبره، وبقي ثلاثة أيام ثم ماتَ في مكانِهِ!!

فيا عجباً من وفاء طير..

ويا عجباً من تنكُّرِ بعض بني البشر..

❋ ❋ ❋

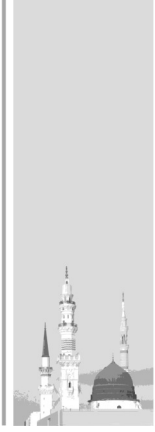

علم الاجتماع والسياسة في المجتمع النبوي

الحديث عن علم الاجتماع والسياسة، فقد كان في المجتمع النبويّ ما يسمَّى اليوم بالوعي، أو الوعي في القضايا الخاصة والقضايا العامة الكبرى في حياة المسلمين.

كان عليه الصلاة والسلام يهتمّ بالفقراء والمساكين، والموكَّل بهذا الأمر من قِبَل الصحابة والمسؤول عنه هو بلال رضي الله عنه وأرضاه، فكلّما جاء فقير أو مسكين يأمر النبي عليه الصلاة والسلام بلالاً أن يبحثَ مَن يوفِّر له اللباس والطعام والشراب. فهذا الصحابي الجليل هو الموكول له هذا الأمر.

فكان النبيّ ﷺ إذا أتاه الإنسان مسلماً فرآه عارياً يأمر بلالاً فينطلِق فيستقرِض فيشتري له البردَة فيكسوه ويطعمه، فإذا لم يجد صار الدَّين على النبي ﷺ؛ لأنه لا يوجد أحدٌ يقضي الدّين، فكان الدّين عليه. فمرّت فترات وتراكمت الدّيون، لأنّ هناك فقراء ومساكين، وليس بيد النبي ﷺ شيء، فهو لا يملك شيئا من الدنيا، فكان يستدين من الأول والثاني والثالث، فتجتمع فترة ثم يسدِّدها بما فتح الله عليه.

فمرّةً من المرّات بينما بلال يبحث عن مجموعة من التجار أو مجموعة من المحسنين على أن يأخذَه دَينا اعترضه رجلٌ منَ المشركين فقال: يا بلال، إنَّ عندي سَعةً فلا تستقرِض من أحدٍ إلَّا منّي، يعني: أنا

إنسان عندي قدرةٌ مالية، وعندي تجّار، فأريد أن تأخذَ المال مني. وبدأ بلال يأخذ منه المال، ولكن المشرك كانت له فكرة أخرى.

فبعد مرور فترة في نهاية الشهر توضّأ بلال ثم قام ليُؤذِّن بالصلاة، فإذا المشرك قد أقبل في عصابةٍ من التجّار، فلما أن رآه قال: يا حَبَشيّ، قال بلال: يا لبَّاه، فتجهَّمه ـ أي: تلقاه بوجه كريه ـ وقال له قولاً غليظاً، وقال له: أتدري كم بينك وبين الشهر؟ قال: قريب، قال: إنما بينك وبينه أربعٌ، فآخذك بالذي عليك فأردّك ترعى الغنم كما كنتَ قبل ذلك!

فأدرك بلال رضي الله عنه الأمر، وأنّ هذا الرجل خدَعه، وأراد تجميع هذه الأموال ليس من أجل أن يخدِم الفقراء والمساكين ويُقضى فيما بعد، لكن من أجل أن يهينَه.

فأخَذ في نفسِ بلال ما يأخذ في أنفس الناس، وطلب من الرجل أن يمهله وينظِره. ومن حِنكته رضي الله عنه وأرضاه لم يخبر أحداً بهذا الأمر، حتى إذا صلى العتمة رجع رسول الله ﷺ إلى أهله، فاستأذن عليه فأذن له، فقال: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، إنَّ المشرك الذي كنتُ أتديَّن منه قال لي كذا وكذا، وليس عندك ما تقضي عني ولا عندي، وهو فاضحي، فأذن لي أن آبق إلى بعض هؤلاء الأحياء الذين قد أسلَموا حتى يرزقَ الله تعالى رسولَه ﷺ ما يقضي عني.

فاختبأ رضي الله عنه في مكان ما، فهو لا يريد أن ينتشرَ الخبر، ولا يريد أن يُهانَ رضي الله عنه وأرضاه، فبقي مختبئاً فترة ليحافظ على مكانة النبيّ ﷺ، ولكيلا يهينه أحد، ولا تتكلم وسائل القوم ويُنتَقَص دِين الإسلام، وفي الوقت نفسه يحاول أن يدبّر الأمر.

ومرّة من المرات خرج حتى إذا أتى منزله فجعلَ سيفه وجرابه ونعله

ومجنّه عند رأسه، حتى إذا انشقَّ عمود الصبح الأوّل أراد أن ينطلقَ فإذا إنسان يسعى يدعو: يا بلال، أجِب رسول الله ﷺ.

فانطلَقَ بلال رضي الله عنه وأرضاه حتى أتى النبيَّ ﷺ، فإذا أربع ركائب مناخاتٌ، عليهنّ أحمالهنّ، فاستأذن فقال له رسول الله ﷺ: «**أبشر، فقد جاءك الله تعالى بقضائك**»، **ثم قال**: «**ألم تر الركائب المناخات الأربع؟**» فقال: بلى، فقال: «**إن لك رقابَهن وما عليهن، فإنَّ عليهن كسوةً وطعاماً أهداهنّ إليّ عظيم فدَك، فاقبضهنّ واقضِ دينك**»(١).

ويجلس النبيّ ﷺ مرّةً مع الصحابة في غزوة الأحزاب، وكانت ليلةً قويّة الريح شديدةَ البرد، والمسلمون يحتاجون إلى المعلومات والأخبار، فيقول ﷺ: «**ألا رجلٌ يأتيني بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة؟**» فسكتوا فلم يجبه منهم أحد، ثم قال: «**ألا برجلٍ يأتينا بخبر القوم جعَله الله معي يوم القيامة؟**» فسكتوا فلم يجبه منهم أحد، ثم قال: «**ألا برجل يأتينا بخبر القوم جعَله الله معي يوم القيامة؟**» فسكتوا فلم يجِبه منهم أحدٌ.

قد يقول القائل: هل يُعقَل أن لا يستجيبَ لأمر الرّسول ﷺ أحدٌ؟! والجواب أنّ الصحابةَ بشرٌ!

فأشار النبيُّ ﷺ إلى حذيفة، فقال: «**قم يا حذيفة، فأتنا بخبر القوم**»، فلم يجِد بُدّاً إذ دعاه باسمه أن يقوم، قال: «**اذهب فأتني بخبر القوم، ولا تذعرهم عليَّ**»(٢).

---

(١) رواه أبو داود في كتاب الخراج، باب: في الإمام يقبل هدايا المشركين (٣٠٥٥)، والبزار (١٣٨٢)، والطبراني في الكبير (١/ ٣٦٣) والأوسط (٤٦٦)، والبيهقي في الكبرى (٦/ ٨٠) عن بلال رضي الله عنه، وصححه ابن حبان (٦٣٥١)، وهو في صحيح سنن أبي داود (٢٦٢٨).

(٢) رواه مسلم في كتاب الجهاد والسير، باب: غزوة الأحزاب (١٧٨٨) عن حذيفة رضي الله عنه.

وحذيفةُ كاتم سرِّ الرسول ﷺ، وعنده تربية عمليّة شديدة، فخرج حذيفة رضي الله عنه إلى القوم، فوصل إليهم والجوُّ في غاية البرودة، إلا أنه لما استجاب لأمر الرسول ﷺ رزقه الله العافية وكان جسمه سليما صحيحاً. وصل في جنح الظلام وأبو سفيان قد جمع القومَ في المجلس، فبدَأ يحسّ أن هناك أمراً ما، فقال للقوم وكانوا في ظلامٍ شديد: ليختَبر كلٌّ منكم صاحبه! فباشر حذيفة بذكائه فتفقّد من بجِواره عن اليمين وعن اليَسار، فضرب من بِيساره وقال: من الرجل؟ قال: فلان، وضرب من بيمينه وقال: من الرجل؟ قال: فلان، لكن هو لم يسأَله أحد، وهكذا خرج رضي الله عنه وأرضاه بهذا الأسلوب الحكيم بعد أن لقط الأخبار إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

وفي قصة سلمة بن الأكوع رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يأمره فيقول: «**ائتنا بأخبار القَوم**»، فكان الحصان الأبلق يسرِع، وكان سلمة يسرع، وسرعة سلمة أكثر من سرعة الحصان، وكان هذا بسبب التدريب، وكان سلمة رضي الله عنه معروفاً بالتدريب، وأنه كان يحمل الأثقال، وأنه كان كثير الجري والهرولة، حتى إنّه لو جرى الفرس وجرى هو رضي الله عنه وأرضاه فهو يسبق الفرسَ، وكل رواة السيرة يقولون: إن هذا لتدريبه الذي علّمه إيّاه النبيّ ﷺ، فيلقط الأخبار السياسية والمعلومات ويأتي بها إلى النبي ﷺ.

ومن التربيَة السياسية عند الصحابة الكرام أنه ﷺ أرسل مرّةً مجموعة من الصحابة ليأخذوا الخبر، فوصلوا عند رجل يهودي، والوقت شديد، والفترة قصيرة، وهو ذكيّ، وعنده حرص شديد جدّاً، فكيف صنع هؤلاء الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم ليقتلوا هذا الرجل اليهودي؟ أخذوا يفكّرون في مسألة العلاقات، فوجدوا أنَّ امرأةً عندها دِينٌ وعندها إسلام وعندها محبّة لهذا النبيّ الكريم ﷺ، فالتقوا معها في مكان خارج

الحِصن، وتحدَّثوا معها بما يريدون أن يفكّروا به لقتل هذا الرجل الذي كفر بالله سبحانه وتعالى، فاستطاعوا قتلَه بهذه الطريقة الذكيّة، بطريقة العلاقات.

واستطاعوا كذلك ﷺ وأرضاهم أن يقتلوا رجلا آخر من طريق الاستدراج في الفنّ، فأحد الرجال ذهب إليه مجموعة من الصحابة وكانَ له أقارب فقالوا: نريد أن نتحدَّث معك ونسمر، فتأكَّد بهذا عن طريق الفن، يعني: نحن عندنا أنغام وعندنا فنون وعندنا طرق ووسائل جيِّدة، فاستجاب لهم هذا الرجل الكافر، وخرج مع هؤلاء الصحابة، إلى أن ابتعدوا عن المنطقة التي يقرُب منها قصرُه، وباشروا قتلَه ﷺ وأرضاهم، إلا أنَّ الرجل من قوَّته وغِلظته وشِدَّته رفع صوتَه، فمن شدّة الصوت أدرك الجنود الأمر، فاقترب مجموعة من الرجال وتأثّر أحد الصحابة بضربة بالسيف؛ لأنهم لما صدر الصوت وبدأ يتحرّك جاء السيف على أحد الصحابة، فجرح في مكانه، والصحابة الآن في أمر سياسي هنا أيضاً، هل يتركون الصحابيَّ ويفرّون أم أنهم يحملونه؟ فقرروا ﷺ وأرضاهم أن يحملوا هذا الرجل والله سبحانه وتعالى سيعينهم، ومباشرة حملوا هذا الصحابيَّ، وذهبوا به إلى النبي ﷺ، وكان في استقبالهم ﷺ وأرضاهم.

كلّ هذه الخطط الذكية وكل هذه الأفكار والوسائل في قتل القوم أو في مجاهدة أعداء الإسلام أو في الاستفادة من العلاقات، كلّها طرق ووسائل سياسيّة علَّمها النبيُّ ﷺ صحابتَه الكرام رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم.

وللأسف، اليوم بعض الناس لا يريدون للمسلم ولا للدّين أن يتدّخل في السياسة، ولا يريدون للعلماء ولا لطلبة العلم والمشايخ أن يكون لهم علاقة بالسياسة، فيقولون لهم: السياسة أمر آخر، أنتم لكم

القضايا الدينية وقضايا الفتوى، بل يهيِّئون أحيانا طبقة مشيخيّة معيّنة تقول: عموما القضايا السياسية قضايا الحكومات لا دخلَ لكم بها، لا علاقةَ لكم بهذه الأمور، بل هذه القضايا خاصّة بجهات معنيَّة، وليس لكم أن تتحدّثوا فيها، بل كان عليه الصلاة والسلام يسمَح بإنشاء الأحزاب ـ إن صحّ التعبير ـ أحزاب المعارضة، لها أن تعارض ولكن بالطريقة المدنية والسلميّة.

فمرّة أذن عليه الصلاة والسلام للأزواج بضربِ الزوجة التي تنشز وتعصي زوجَها، فسمع الرجال هذا الأمر فكلّما نشزَت الزوجة ولم تطع الزوجَ ضربها زوجُها، لكن تعدّت القضية الحدودَ وأصبح النساء يُضربن ضرباً شديداً، فأنشأ مجموعة من النساء حزبَ معارضةٍ لهذا القرار الذي اتُّخذ، قرار سياسيّ، فطاف بآل بيت النبي ﷺ سبعون امرأة يشتكين الأزواج، يقلنَ: نحن الآن حزب معارضة، ونرفع صوتنا ونقول: هؤلاء الأزواج ضربونا وآذَونا، فسمع النبيّ ﷺ شكواهنّ فقال حين أصبح: «**لقد طاف بآل محمّد الليلةَ سبعون امرأة، كلُّهنّ يشتكين الضّرب، وايمُ الله لا تجِدون أولئك خيارَكم**»[(١)]، يعني: لستُ أنا الذي أمرت بهذا، إنما أمرت بأسلوب التدريج، فأول شيء الوعظ، ثم بعد ذلك الهجر، فإذا لم تستجب الزوجة لهذا تُضرَب ضرباً خفيفا حتى تفكّر وترجع إلى رشدها، ولما لم يحدث هذا الأمر بالمنهج النبويّ مباشرة بادر النسوة والتقَوا فيما بينهنّ حتى اجتمعنَ عند بيت النبيّ ﷺ ورفعن أصواتهنّ، وهذا بيان ودليل

(١) رواه أبو داود في كتاب النكاح، باب: في ضرب النساء (٢١٤٦)، وابن ماجه في كتاب النكاح، باب: ضرب النساء (١٩٨٥)، والبيهقي في الكبرى (٧/ ٣٠٤، ٣٠٥) عن إياس بن عبد الله بن أبي ذباب رضي الله عنه، وصححه ابن حبان (٤١٨٩)، والحاكم (٢٧٦٥، ٢٧٧٤)، وهو في صحيح سنن أبي داود (١٨٧٩).

على أن المرأة يمكن أن تتكلم، ويمكن أن ترفع صوتها، ويمكن أن تعارضَ ما رأته منافياً لدين الإسلام أو منافياً للحياة الصحيحة، سواء في بيت الزوجة أو في المجتمع الذي من حولها.

ومما كان النبي ﷺ يربي الصحابة الكرام عليه في الأمر السياسي التربية على البطولة والمقاومة في سبيل الله، والإنسان الذي فيه الترف وفيه الانشغال بأمور الدنيا كان يعاقبه النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم؛ لأن مسألة البطولة ومسألة الجهاد هي مسألة سياسية في عرف اليوم، فالثلاثة الذين خُلِّفوا عن غزوة تبوك انشغلوا ببعض الأمور وبعض القضايا، فلما عاد النبي ﷺ بالصحابة الكرام كان العقاب أن تُركوا أربعين يوما، هذه المدة الطويلة لا يسلِّم عليهم الصحابة، ولا يكلّمهم أحد من الصحابة، بل إن أحدهم كان يأتي إلى مجلس النبي ﷺ عن يمينه فيشيح النبي ﷺ إلى شماله، فيأتيه من شماله فيشيح النبي ﷺ إلى يمينه[١]، تربية للموقف، لأنه لما نحتاج إلى البطولة ونحتاج إلى الجهاد في سبيل الله تتركوننا ولا تجعلون أجسامكم جِسراً لإخوانكم حتى يستفيد مَن بعدكم، كما قال أبو ريشة:

تقضي البطولةُ أن نمُدَّ جسومَنا جسراً فقل لرفاقنا أن يعبروا

نحن كمسلمين وكمجاهدين علينا أن نضع جسومنا جسراً فقل لرفاقنا أن يعبروا؛ ولذلك الآن لاحظوا الصحابة الكرام فمن زار تركيا يجد أبا أيوب الأنصاري، ويجد من نساء النبي ﷺ من هن مدفوناتٌ في

(١) قصة الثلاثة الذين خلِّفوا رواها البخاري في المغازي، باب: حديث كعب بن مالك وقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ [التوبة: ١١٨] (٤١٥٦)، ومسلم في كتاب التوبة، باب: حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه (٢٧٦٩) عن كعب بن مالك رضي الله عنه.

حدود تركيا؛ لأنهم كانوا يبذلون أنفسَهم رخيصةً في سبيل الله. هذا لا يكون إلا بالتربية الحقيقيّة البطوليّة السياسيّة التي رباهم عليها نبي الله ﷺ.

ونلحظ كذلك أن الصحابة الكرام الذين تربَّوا على المنهج الصحيح وكانوا حفظة لكتاب الله سبحانه وتعالى وتربّوا في دروس العلم في مسجده النبويّ هم الذين يحرسونه عليه الصلاة والسلام في بيته، وعندما جاءت الفتنة في أيام عثمان لم يحفَظ عثمان في الأيام الأولى إلا شباب الصّحابة، أبناء الزبير رضي الله عنهم وأرضاهم، ومجموعة من الصحابة هم الذين خدموه وحفظوه، فلمّا قال أمرَهم عثمان رضي الله عنه بالانصراف خرج هؤلاء الشباب السياسيون الذين تعرّفوا على المحافظة والمقاومة والبطولة في سبيل الله، وترَك عثمان رضي الله عنه هذا الأمر، فقُتِل في تلك الليلة التي أمرهم فيها أن يبتعدوا عن داره.

فما أحوجنا إلى معرفة المنهج السياسيّ الذي كان عليه النبيّ ﷺ في فقه المصالح، وفي فقه المفاسد، وفقه الأولويات، وفقه الموازنات، هذه أمور علّمها النبي ﷺ لصحابته في الموقف.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يحيينا دائما على منهجِه وسنّته وسيرته.

وإلى يوم آخر من أيّام المدينة أستودعكم الله، وصلى الله وسلّم وبارك على نبيّنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

❁ ❁ ❁

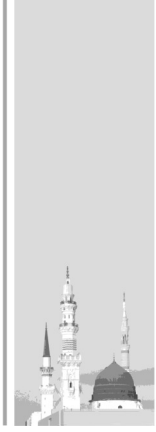

مظاهر التدين في المجتمع النبوي

يا ترى، ما التفسير الحقيقي لمفهوم التدين؟ هل المفهوم الحقيقي للتدين أن ينعزل الإنسان عن الدنيا وأن لا يجمع المالَ وأن لا يخطئ؟ هل المفهوم الحقيقي للتدين ألا يكثِر الإنسان من الأمور التي تنفعه في الحياة من ناحية التعلّم أو التجارة التي تُكسِبه خبرة وتجربة؟ هل هناك عزل بين الحياة الدنيا وبين الحياة الآخرة؟ وهل في مفهوم الإسلام أنَّ الإنسانَ لا يخطئ، ولا يزلّ؟ وهل من شرع الإسلام أن يعامَلَ من يلقاهم كفاراً كانوا أم غيرهم بالغلظةِ في كل مكان وعلى كل حال؟

كل هذه التساؤلات سنجد جوابها في هذه القصة العجيبة التي رواها الشيخان[1].

أمرَ النبي ﷺ الصحابة أن يتجهَّزوا لسفرٍ، فأعدّوا طعامهم وشرابهم، وخرجوا من المدينة المنوَّرة، فلما كانوا في بعض الطريق أذِن لهم النبيُّ عليه الصلاة والسلام بالنوم فناموا، فوقعوا وقعةً ولا وقعةَ أحلى عند المسافر منها، فما أيقظهم إلا حرُّ الشمس! أفاقوا والشمسُ قد سطَعت وحرُّها قد مسَّ جلدهم.

---

(١) رواه البخاري في كتاب التيمم، باب: الصعيد الطيب وضوء المسلم يكفيه من الماء (٣٣٧)، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب: قضاء الصلاة الفائتة (٦٨٢)، والطيالسي في مسنده (٨٥٧)، والطبراني في الكبير (١٨/ ١٣٢) عن عمران بن حصين رضي الله عنه.

ولم تكن تلك عادتهم، بل كانوا ﷺ يقومون الليل ولا يطلع الفجر إلا وهم ركّعٌ سجودٌ مستغفرون، وقد ذكر ثمامةُ بن أثال ﷺ أنّه لما رُبِط في سارية المسجدِ قبل إسلامِهِ كان يرى الصحابة يصلُّون طوال الليل جماعاتٍ جماعاتٍ، ولا يؤذِّنُ مؤذن الفجر إلا وقد امتلأ المسجدُ عن بكرة أبيه.

أفاق الصحابةُ بعد نومتهم تلك واحداً بعد واحدٍ، وكان عمرُ ﷺ رابعهم، والنبيّ ﷺ ما زال نائماً، فتحيروا ما يصنعون؟ فقام عمر ﷺ فكبّر، وكان ﷺ أجوفَ ـ أي: رفيع الصوت، يخرج الصوت من جوفِهِ ـ، فما زال يرفع صوته بالتكبير حتى استيقظ النبيّ ﷺ، فشكا له الصحابةُ ما أصابهم من فوتِ صلاةِ الفجرِ، فالتفت إلى بلالٍ وكان قد أوصاه بالحراسة فقال: «ما منعك أن توقظَنا؟» قال: أنامَني الذي أنامَكم.

فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «لا ضيرَ، ارتحلوا»، وفي هذه الكلمة تسليةٌ للصحابةِ وتأنيس لقلوبهم لما عرض لهم من الأسف على فوات الصلاة.

ثم سار الرسولُ ﷺ فاشتكى إليه الناس من العطش الشديد، فنزل فدعا عمران بن حصين ودعا عليّاً فقال: «**اذهَبا فابتغِيَا الماء**»، فانطلقا ﷺ وأرضاهما، فلقيا امرأة سادلةً رجليها بين مزادتين أو سطيحتين من ماء على بعير لها، فقالا لها: أين الماء؟ قالت: إنه لا ماء، فقالا: كم بين أهلك وبين الماء؟ قالت: يوم وليلة، قالا لها: انطلقي إذاً، قالت: إلى أين؟ قالا: إلى رسول الله ﷺ، قالت: الذي يقال له الصابئ؟ قالا: هو الذي تعنين فانطلقي، ـ والصابئ هو من لا دين له ـ.

فذهبت المرأة مع عليّ وعمران إلى رسول الله ﷺ، فلما وصلت إليهم استنزلوها من بعيرها بهدوء ورفق، فنزلت، ودعا النبيُّ ﷺ بإناءٍ،

فأفرغ من أفواه المزادتين أو السطيحتين، ونودِي في الناس: اسقوا واستقوا، فسقى من شاء واستقى من شاء، وهي قائمةٌ تنظر إلى ما يُفعل بمائِها، ولقد أقلع عنها وإنه ليخيَّل إليهم أنها أشدّ مَلْأةً منها حين ابتدأ فيها!

ثم قال ﷺ للصحابة: «**اجمعوا لها ما بين عجوة وسويقة ودقيقة**»، فجمعوا لها طعاماً في ثوب وحملوها على بعيرها ووضعوه بين يديها، فقال لها رسول الله ﷺ: «**تعلمين والله، ما رزأناكِ في مائك شيئاً، ولكنّ الله هو الذي سقانا**»، فانطلقت إلى أهلها.

وقد أثَّرتْ هذه الكلمةُ «ولكنّ الله هو الذي سقانا» في نفس المرأةِ تأثيراً كبيراً؛ لأنّها رأتْ رجلاً لا ينسب الفضل لنفسه، بل يردُّه كله لله، وأثّر فيها أيضاً ما رأته من المعجزة، وما لاحظته من أدب الصحابة رضي الله عنهم وحسن تعاملهم، فلذلك رجعت إلى أهلها وقد بُذِرتْ في قلبها بذرة الإيمان.

وأمر النبيّ ﷺ الصحابة ألا يعرضُوا للصِّرْم الذي منه هذه المرأةُ وفاءً لها ـ والصِّرْمُ: الطائفةُ من البيوتِ ـ، فكان المسلمون يغيرون على من حولها من المشركين ولا يصيبون الصِّرم الذي هي منه، فتعجّبت من هذا الأمر، فأخذت تستفسر من الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، فقيل لها: إنَّ النبي عليه الصلاة والسلام أمرنا أن لا نقربَ قريتَك للفضل الذي أعطيتِنا إيّاه، فلما رأت هذه المرأة كرم النبي ﷺ وحسن تعامله قالت لقومها: ما أرى أنَّ هؤلاء القوم يَدَعُونكم عمداً، فهل لكم في الإسلام؟ فأطاعوها فدخلوا في الإسلام، فهدى الله ذاك الصِّرم بتلك المرأة، فأسلمت وأسلموا.

هذه القصة النبوية فيها الكثيرُ من العبرِ.

منها حُسنُ تعامل النبيّ ﷺ مع خطأ الصحابةِ رضي الله عنهم، لقد نام بلالٌ عن الصلاة، فنام بنومه الصحابةُ، وضيّع الجميعُ صلاة الفجر، ومع ذلك لم يسخط النبيّ ﷺ ولم يزجر، بل قال كلمةً واحدة: «لا ضير»!

لماذا؟

لأنه علم أنهم لم يفرطوا، أخذوا بالأسباب وأراد الله أن يأخذ النومُ بأعينهم.

ومن دروس القصةِ أنّ على الإنسان أن يبتعد عن المكان أو البيئة التي عصى اللهَ فيها ما أمكنه ذلك، يُؤخذ هذا من أمره ﷺ بالارتحال، وقضائه الصلاة في مكان آخر غير المكان الذي ناموا فيه عنها.

وكلّ إنسان يريد أن يخرج من جوّ المعصية والقلق وجوّ الاكتئاب والغفلة عن الله سبحانه وتعالى عليه أن يترك مكان المعصية إلى مكان آخر، فالصاحب والموقع الإلكتروني والقناة الفضائية وأيّ شيء يشغلك ويبعِدك عن طاعة الله عليك أن تتركه.

ومن دروس القصةِ إكرامُ المرأة وحسن التعامل معها واحترامها، وقد بدا ذلك جلياً في تعامله ﷺ والصحابة الكرام مع صاحبة المزادتين رغم كونها كافرةً وصفتْ النبيّ ﷺ بالصابئ! فقد عاملوها برفق وتلطّفوا لها، ولم يُنقصوا من مائها شيئا، بل زادوها دقيقاً وسويقاً، ثم حملوها على ناقتها وصرفوها معززةً مكرمةً.

وفي القصةِ أنّ على الإنسانِ أن يدعو إلى الله بقدر مايستطيع، ويبذل في حدود إمكاناتهِ، فهذه المرأة التي لم تلق الرسول وصحبه إلا ساعةً من نهارٍ لم يمنعها ذلك أن تدعو إلى الله بالقدر الذي تعرفه، لقد عرفت وشعرت أن محمداً على حق، هذا كل ما تعرفه عن الإسلام، ومع ذلك

فقد دعت إلى هذا الذي تعرف، فنصحت قومها باتباع النبيّ ﷺ وشهدت له بالأمانة والصيانةِ وحسن التعامل، فما كان من قومها إلا أن استجابوا لها أجمعين! فأسلمتْ هي وأهل صِرْمِها.

إن على المسلم أن يكون سفير الإسلام وداعيته في كل مكان، الراعي في مزرعته، والموظَّف في شركته، والأستاذ في مدرستِه، والأب في بيته، وكلّ إنسان عليه أن يمارسَ أساليب الدعوة بالكلمة الطيبة وبالدعوة وبالكتابة وبالمراسلة وعن طريق الإنترنت.

وإذا عجز عن ذلك كلِّه فلا أقل من المشاركة الوجدانية، فيشارك الدعاة في همومهم وآلامهم وآمالهم وحرصهم على هداية الناس ويدعو لهم بالتوفيق والتسديد.

وهذه المشاركة الوجدانية لها أصلٌ فقد وجد عمر رضي الله عنه وأرضاه رسولَ الله ﷺ يبكي، ووجَد كذلك أبا بكر يبكي، فسأل النبيَّ عليه الصلاة والسلام: يا رسولَ الله، أخبرني من أيّ شيء تبكي أنت وصاحبك؟ فإن وجدتُ بكاءً بكيتُ، وإن لم أجد بكاءً تباكيتُ لبكائكما[1]، يعني: أشارِككم في الأحزان وفي البكاء، وإنها لمشاركة وجدانية عظيمة!

❋ ❋ ❋

(١) رواه مسلم في كتاب الجهاد والسير، باب: الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم (١٧٦٣) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

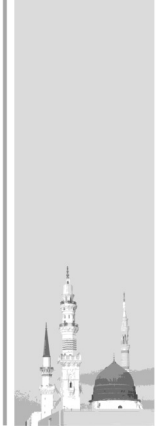

الحياة الطبيعية
في المجتمع النبوي

يقول الشاعر:

قد نملك الشيء لا ندري نفاستَه حتى يضيع فنأسى بعدما ضاعا

حقاً..

قد يملك الإنسان شيئاً ثميناً نفيساً، ولكنّه لا يدرك قيمته حق الإدراك إلا إذا فارقه! وحينئذٍ يندمُ حيث لا ينفع ندم.

يمرضُ الإنسانُ فيدرك أنّ الصحةَ كانت نعمةً لاتوزن بذهب الدنيا! وهو قد كان من قبل لايرى نعمةً سوى المال!!

ويفقد الرجل أبويهِ فيوقنُ بعد فوات الأوان أن أبواباً من أبواب الجنّة قد أوصدت دونه! فيتمنّى حينها أنْ لو يعود به الزمان.. وهيهات!!

وتستخفّ المرأة بالطلاقِ فإذا بان عنها زوجُها وباتت وحيدةً لا أنيسَ ولا جليسَ معها أدركت أيَّ شيء فقدت بفقدها زوجها!!

هكذا هو الإنسان..

كثيراً ما يشعر بقيمة الشيء بعد أن يفقده.

وبين يدينا قصةٌ عجيبةٌ تصوِّر لنا جانباً من هذه الطبيعة.

وتكشفُ لنا في ذات الوقت عن جوانب مضيئةٍ من التعامل النبويِّ.

فلنعش معاً أخبارها.. ثم لنتوقّفْ بعد ذلك عند دروسها وآثارها.

شرحبيل بن الأعور[١] فارسٌ من فرسانِ بني عامر بن صعصعة، عُرفَ بالشجاعةِ والبسالةِ، وبالمنطقِ العقليِّ الذي يحسب الأمور حساباً مادياً بمقاييس الربح والخسارة.

وعُرِف كذلك بشاعرية ثريّةٍ، تأمَّلْ قوله مفتخراً:

منعتُ الحجاز وأعراضَه وفرّتْ هوازنُ عني فِرارا
وأعددتُ للحرب وثّابةً وأَجْرَدَ نهداً يصيد الحمارا

[الوثابةُ: الفرسُ سريعةُ الوثبِ، والأجردُ من الخيلِ: السبَّاقُ، والحمارُ هاهنا: حمارُ الوحش]

وفضفاضةً مثلَ مَوْر السّراب ينكسر السهم عنها انكساراً

[يريدُ درعاً واسعةً سابغةً]

هذا هو شرحبيلُ فروسيةً وشاعريةً.

وقد قيل: إنه لقيَ كسرى فأهداه درعاً نفيسةً فسُمِّيَ (ذا الجَوْشنِ)، والجوشنُ: الدرعُ. وقيل: إنما سُمِّي بذلك لبروزٍ في صدرهِ.

سمعَ ذو الجوشنِ بانتصار النبيّ ﷺ في بدر، وتعجّب من هذا الرجل الذي استطاع أن يكسر قريشَ، وينال من هيبتها، وهي كبرى قبائل العرب، والقائمة على بيت الله الحرام.

إزاء هذه الحادثةِ حكَّم ذو الجوشنِ منطقه العقليَّ الماديَّ، وتساءل: هل سيغلب محمدٌ على الجزيرة وتكون له الكلمة؟ هل سيقضي على زعامة قريش؟ وهذا كله يقتضي أن أكون معه، وأضع يدي في يده ليكونَ لي من بعدُ شأنٌ ومنزلة!

---

(١) انظر ترجمه في الاستيعاب (١/ ١٣٨)، وأسد الغابة (١/ ٣٤٠)، والإصابة (٢/ ٤١٠).

أم أن ما حدث كان مجرَّدَ حالةٍ استثنائية تعود بعدها قريشُ إلى سابق عهدها وتقضي على محمد وأصحابه؟ وهذا يقتضي ألا تكون لي به صلةٌ لئلا أخسر علاقاتي بمركزِ القوةِ.

تحيّر ذو الجوشن.. ثم رأى أن أفضل ما يمكن أن يفعله هو أن يمدَّ يده على استحياء إلى محمد ﷺ، بحيث يبتعدُ عن اتّباعِهِ ونصرتِهِ، وفي نفس الوقتِ ينأى عن عداوتِهِ والمظاهرةِ عليه.

ولذلك قرر أن يُهديَ إلى النبي ﷺ هديةً ويهنئهُ بالنصر دون أن يدخل في الإسلام.

أخذ ذو الجوشنِ ابناً لفرسٍ له تسمى: القرحاء، وارتحل إلى رسول الله ﷺ يريدُ إهداءه هذا المهر، فلما وصل إلى المدينةِ تلقّاه الرسول ﷺ بحفاوةٍ وهشَّ له وبشَّ، فقال: يا محمّد، إني قد جئتُك بابنِ القرحاء لتتَّخِذه، قال ﷺ: «**لا حاجةَ لي فيه، ولكن إن شئتَ أن أَقِيضَك به المختارةَ من دروع بدر فعلتُ**»، فقال: ما كنتُ لأَقِيضَه، قال: «فلا حاجةَ لي فيه».

ثم قال له النبي ﷺ: «**يا ذا الجوشن، ألا تسلم فتكون من أوّل هذا الأمر؟**» قال: لا، قال: «**لم**»، قال: إني رأيتُ قومك قد وَلِعُوا بك، قال: «**فكيف بلغك عن مصارعهم ببدر؟**» قال: بلغني، قال: «**فأنى يهدى بك؟**» قال: أن تغلِبَ على مكّة وتقطنها، فقال له النبي ﷺ: «**لعلك إن عشت أن ترى ذلك**»، ثم قال النبي ﷺ: «**يا بلال، خذ حقيبةَ الرجل، فزوِّده من العجوة**».

فلما أدبر قال ﷺ: «**أما إنه من خير فرسانِ بني عامر**».

ثمّ مرت الأيامُ وفتحَ النبيُّ ﷺ مكةَ، ودانتْ له جزيرة العربِ كلها،

وبلغَ ذلك ذا الجوشن، أخبره به راكبٌ قدم من مكةَ وذو الجوشن إذ ذاك عند أهله بالغَوْر، وحينئذ تذكّر ذو الجوشن كلمة النبيّ ﷺ: «**لعلَّك إن عشت أن ترى ذلك**»، وندم على تأخره في اللحاق بالنبيّ ﷺ، وقال: هَبِلَتني أمي ـ أي: فقدتني أمي ـ فوالله لو أسلمتُ يومئذ ثم أسأله الحيرة لأقطعنيها[1]، ولكنّه مع ذلك استدرك وقال: لئن فاتتني الدنيا فلن تفوتني الآخرة، وقدِم على النبي ﷺ وشهد الشهادتين.

هذه القصةُ فيها كثيرٌ من مواطن العبرةِ.

من أهمِّها خطورةُ (التسويف) في أمورِ الخيرِ، لقد كان تسويف ذي الجوشنِ وعدم مبادرته للإسلام سبباً في تفويتِ خير كثير لا سبيل له إلى تعويضه، لقد فاته أن يكون من السابقين الأولين، وأن يشهد المشاهد مع رسول الله ﷺ، وأن يكون في طبقة أبي بكر وعمر وابن مسعودٍ وغيرهم من أوائل الصحابةِ الكرام رضي الله عنهم. فاته كثير من المجالس النبوية، وضيع كثيراً من بركات النبوة والرسالة كل ذلك بسبب قراره ـ الذي كان يظنه عقلانياً ـ بأن يصبر ويتربّص حتى يرى لمن تكون الغلبة.

ولأجل ألا يقع المسلم في مثل هذه الحسراتِ، حسراتِ فوتِ الأعمال الصالحةِ، نَدَبَنا القرآنُ للمسارعة في الخيراتِ: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٤٨٤، ٤/ ٦٧)، وابن أبي شيبة (٧/ ٣٦١) والطبراني في الكبير (٧/ ٣٠٧)، قال الهيثمي في المجمع (٦/ ٢٣٨): «رواه عبد الله بن أحمد وأبوه ولم يسق المتن والطبراني ورجالهما رجال الصحيح»، وفي سنده انقطاع.

والأحاديث النبوية مليئةٌ بمثل هذا المعنى أيضاً.

كذلك من دروسِ هذه القصة، فنونُ التعامل النبويّ مع المدعوين، يتجلى ذلك في تعامله ﷺ مع ذي الجوشنِ رضي الله عنه، فقد هشَّ له وبشَّ، وأكرمه بخير تمرِ المدينة (العجوة)، وأثنى عليه بأنه خير فرسان عامر بن صعصعة.

هذه البشاشةُ هي مفتاحُ الدعوةِ الأول، ولم يمنع النبيَّ ﷺ كفرُ ذي الجوشن في ذلك الوقت من أن يحسن معاملتَهُ تأليفاً لقلبِهِ. ولعل مما يشهد لهذا الأصل ما تذكره كتب السيرة من أن عدد الداخلين إلى الإسلام بعد صلح الحديبية هو أكثر من الداخلين فيه قبله!! مع أن صلح الحديبية يتضمن شرطاً يلزم المسلمين بإعادة من جاءهم من مكة مسلماً، ولا يلزم قريشاً بإعادة من جاءها ممن كفر بعد إسلامه!! والسبب في هذه الظاهرة أن إلقاء السلاح أتاح فرصة للاحتكاك بين الطرفين فرأى المشركون من سَمتِ المسلمين وجمال دينهم وحسن تعاملهم ما حملهم على الدخول في الدين أفواجاً.

ومع كل هذا الحفاوة النبويّة بذي الجوشن إلا أن رسولنا ﷺ أبى أن تكون لكافرٌ منة على المسلمين، فردَّ هديةَ ذي الجوشنِ.

انظر كذلك للبراعة النبويةِ في مخاطبة المدعوِّ بالمنطق الذي يؤمن به، ومحاورته بالطريقةِ التي تناسبه، وقد أدرك النبيُّ ﷺ أنَّ ذا الجوشن رجلٌ عقلانيٌّ، ظهر له ذلك من كلامِهِ وتصرفاتِهِ فلذلك جعل السبيل لدعوتِهِ طرح التساؤلات العقلية في النقاط الجوهرية التي يهتمّ هو بها. لقد سأله: «**فكيف بلغك عن مصارعهم ببدر؟**»، وهو منطقٌ محاصِرٌ لعقليةِ ذي الجوشن لأنه كان يفكر في أن يكون مع الغالبِ، فنبهه الرسول ﷺ إلى انتصاره في بدر، ولم يُحِرْ ذو الجوش جواباً، فجاءه السؤال الثاني

الصادم: «**فأنى يهدى بك؟**». وفي ظني أنّ هذين السؤالين مع الخبر المستشرف للمستقبل: «**لعلك إن عشت أن ترى ذلك**» كانت سببَ بَذْرِ بذْرةِ الإيمان في قلب ذي الجوشن رضي الله عنه.

❁ ❁ ❁

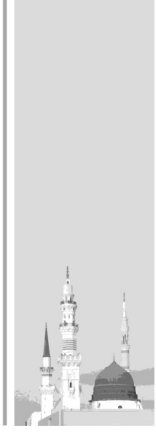

المداراة الدعوية في المجتمع النبوي

بين يدينا قصةٌ تعلّمُ الإنسانَ كيف تكون الأَناةُ...

وتعلم الداعية فضيلةَ التريُّثِ، وجدوى الإقناع، وقيمة المحاورة...

إنّها قصة الحكم بن كيسانَ رضي الله عنه وأرضاه.

كان الحكمُ مولىً لهشامِ بن المغيرة المخزومي والدِ أبي جهلٍ، وكان يخرج في تجارتِهِ وقضاءِ مصالحِهِ، فخرج يوماً إلى الطائف هو وعمرو الحضرمي، وعثمان بن عبد الله، ونوفل بن عبد الله.

وبينا هم عائدون إلى مكةَ في قافلة قد امتلأت زبيباً وأدماً إذْ صادفتهم سريةٌ استطلاعية لعبد الله بن جحش رضي الله عنه كان قد بعث بها النبيّ ﷺ إلى نخلةَ لتترصّد قريشاً وتأتي بأنبائها، فلما التقى الفريقانِ تحاجزا، ثمَّ إن ابن جحش ومن معه رضي الله عنهم تشاوروا، وقالوا: إن تركناهم أفلتوا منا ودخلوا الحرمَ، وإنْ قتلناهم قتلناهم في شهرٍ حرام!! فما زالوا يتباحثون حتّى شجع بعضهم بعضاً وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم، فقتلوا عمرو بن الحضرميِّ، وفرّ نوفل بن عبد الله، واستأسرَ الحكمُ وعثمان فأُسِرا.

وكاد عبد الله أن يقتل الحكمَ لمكانه من هشامٍ لولا أن المقداد بن عمرو رضي الله عنه قال: دَعه حتى يأمر رسولُ الله ﷺ. فاستاق القوم الأسيرين والعير إلى المدينة.

فلما قدموا على رسول الله المدينة قال: «**ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام**»، وأبى أن يأخذ شيئاً مما غنموه، وقالت قريش: قد استحل محمدٌ وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم. فما زالوا على ذلك حتى نزل قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

نعود إلى الحكم بن كيسانَ الذي استفتحنا باسمه الحديث، لقد سِيقَ الحكمُ أسيراً، بعد أن كاد يُقتل، وحين وردَ المدينة رأى فيها مجتمعاً غير الذي كان يعرفُ في مكة، لقد كان الحكم يعرفُ مجتمع الخمور واللهو والعبثِ والفحشِ والعنجهية والكبر، فإذا به يرى مجتمعاً آخر فيه الخضوع لله، والتذلل له، فيه التراحم والتواد، فيه العفة والفضيلة، فيه الزهد في الدنيا والإقبال على الآخرة.

ولا شك أنَّ هذه المناظر قد تركت أثرها في نفسه.

وحين لقي رسولَ الله ﷺ أحسن النبيُّ وفادته، وأكرمه، وأطعمه من عجوة المدينةِ، وسكَّن من روعهِ، ثم أخذ يحاوره في شأن الإسلام، فبغَّضه في الشرك والكفر ورغَّبه في الجنة، ولكنّ الحكم أبى! وقال: يا محمّد، إنك كريمٌ وابن أخ كريم، فامنُن عليَّ ولا تُكرِهْني على دخول دِينٍ لا أرغبُ فيه!!

وهكذا رفض الحكم أن يسلم رغم كل الحفاوة والإكرام اللذين حظي بهما، ورغم امتناع المسلمين عن قتلِه وهو الكافر المحارب.

ومع ذلك لم يعجل عليه النبيّ ﷺ بل تركه مدةً ثم عاد له مرة أخرى

ودعاه إلى الإسلام وقال له: «**قل: لا إله إلا الله تُفلح**»، فقال له الحكم: لا أقولها حتى يقولها أشرافُ مكّة!!

فلمّا وصل به الأمر إلى هذا الحدّ غضب عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال: يا رسول الله، دعني أضرِبْ عنقَه.

يريدُ أنّ مثل هذا الرجل الذي دُفِعَ عنه السيف ثلاث مراتٍ ودُعي إلى الإسلام مرتين ثم لم يسلم، بل هو مايزال متعلقاً بأكابر مكة الذين حاربوا رسول الله ﷺ مثل هذا يجب أن يقتل.

وإزاء ثورة عمر لم يزد ﷺ على قوله: «**اتركه**»، فتركه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه.

وبعد مدة عاد إليه النبيّ ﷺ وشرح له الإسلام، وبين له معالمه، ورغبه فيه، وشرح له محاسنه وجماله، فلما رأى الحكمُ عجيب حلم النبيّ ﷺ وكريم تعامله، وسمع عن هذا الدين ما عرّفه بصدقه وأنه سبيل المنجاة، لما كان ذلك انشرح صدره للإسلام فأسلم، وشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

وحينئذٍ اتَّجه النبيُّ عليه الصلاة والسلام إلى عمَر وإلى عبد الله بن جَحش وبعضِ الصّحابة الذين كانت تضطرِم في نفوسهم شعلة الغضب، فقال: «**لو استجبتُ لأمركم لدخَل في النار**»[1].

ليس هذا فحسب بل لم تمضِ سنتانِ حتى كان الحكمُ من قراء الصحابة وفقهائهم، وواحداً من سبعين صحابياً قارئاً أرسلهم النبيّ ﷺ

(١) انظر قصة إسلام الحكم بن كيسان في سيرة ابن هشام (٣/ ١٤٨ ـ ١٥١)، وتاريخ الطبري (٢/ ١٥ ـ ١٧)، والبداية والنهاية (٣/ ٢٤٩ ـ ٢٥١).

إلى بئر معونة، واستشهد مع أولئك الكرام رضي الله عنهم في الحادثة المعروفة[١].

ولاحِظوا كيف كانت الخاتمة!

انتهى به المطاف ليكون شهيداً ضمن كوكبةٍ من قراء الصحابة وفقهائهم، وقد كاد ـ لولا إرادة الله ـ أن يقتل على الكفر! فهل رأينا قيمة التأني والتروّي وإعطاء الفرصة وتكرار الدعوة؟

لا بدّ من أسلوب الحكمة وأسلوب الفنّ في التعامل والهدوء والأناة والصبر على التعامل مع الناس، كم من الآباء اليوم ليس عنده قدرة على تحمّل أبنائه؟ وكم من زوج لا يستطيع أن يتحمَّل أخطاء زوجته؟ وكم من قريب لايحتمل معاشرة قريبه؟ وكم من داعية يريد أن يصبح المدعوون أئمة في يوم وليلة!!!

إن هذه القصة من حياة النبي ﷺ تعلمنا أن الدعوة تحتاج إلى هدوء وسعة بال، وتكرار، وشرح، وصبر، وأناةٍ.

وتعلمنا أيضاً كيف تكون القيادة الحكيمة، وكيف يكون الامتثالُ لها.

ما أجمل خلُقَ الصبر عندما يجتَمع مع التقوى لتكونَ الإمامة في الدين، ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

❁ ❁ ❁

(١) انظر ترجمته في الاستيعاب (١/ ١٠٤)، وأسد الغابة (١/ ٢٧٦)، والإصابة (٢/ ١٠٩).

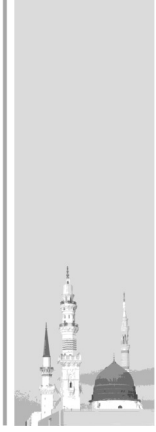

المال والتجارة في المجتمع النبوي

نحاول في هذه الموضوع أن نستجلي علاقة المجتمع المدني بالمال.

هل كان هذا المجتمع النبوي الراشد يخضع للمال؟ هل كان يرفضه بالكلية؟ هل كان يتعاطى معه بإيجابية أم بسلبية؟

باختصار ما فلسفة المال في ذلك المجتمع الذي صنعه النبيّ ﷺ على عينه؟

الذي يتأمل في أخبار المجتمع المدني النبويّ يجدُ أن علاقته بالمال يمكن إجمالُها في قاعدةِ: امتلك المال في يدك، وإياك أن يمتلك قلبَك.

فليست هناك عداوة مع المال في ذاته، وإنما هناك نفورٌ شديد من امتلاكه لقلب الإنسان، وسيطرته على سلوكياتِهِ وتصرفاته.

ويمكننا أن نستجلي ملامح هذه المسألة عبر الجوانب التالية:

١ ـ الإنفاق الكثير

فقد كان ﷺ ينفق إنفاقاً عجيباً، ويعطي عطاء من لا يخشى الفقر، ويبذل في اللحظة الواحدةِ كل ما حصل له من مال!!

كانت الوفودُ تأتي إلى النبيِّ ﷺ وفداً إثرَ وفد، فكلّما جاء وفد أعطاهم النبي ﷺ من الدنيا، وأعطى ذات مرةٍ رجلاً ملء وادٍ من الغنم تأليفاً لقلبه.

وعلى مثل ذلك كان أصحابُهُ ﷺ، فقد أنفق أبو بكر ﷺ ماله كله في سبيل الله! وأنفق عمر نصفَ ماله في سبيل الله[١].

هل تصورنا مامعنى أن ينفق الإنسان ماله كله؟

هل نتصور اليوم رجلاً يذهب للبنك و(يصفّر) حسابه؟!

أورجلاً مساهماً في شركاتٍ عديدة يبيع أسهمه كلها ثم يضع ماله تحت تصرف مؤسسة خيرية؟

ذلك ما فعله أبو بكر ﷺ.

إنّ هذا الإنفاق العجيبَ مبنيٌّ على قناعة راسخةٍ بالعوض الربانيّ، فكل من أنفق شيئا في سبيل الله عوضه الله خيراً منه، ولذلك كانوا ينفقون ولا يخشون ثقةً بموعود الله ورزقه.

إضافةً إلى أنّ التربية النبوية لذلك الجيل كانت تركز على تزكية النفس، بحيث تخلص عبوديتها لله، وتتخلص من كل عبودية أخرى بما في ذلك عبودية المال. ألم يقل ﷺ: «**تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش**».

إنهم قومٌ لديهم يقينٌ تامّ بأنّ هذا المال إنما هو عارِيَة لديهم، وأنّه يأتي ثمّ يذهب، فلذلك لا يبالون بإنفاقه.

---

(١) رواه أبو داود في كتاب الزكاة، باب: الرخصة في ذلك (١٦٧٨)، والترمذي في كتاب المناقب، باب: في مناقب أبي بكر وعمر ﷺ كليهما (٣٦٧٥)، والدارمي (١٦٦٠) عن عمر بن الخطاب ﷺ، قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح»، وصححه الحاكم (١٥١٠)، وقال ابن حجر في التلخيص الحبير (٣/ ١١٥): «قوّاه البزار، وضعفه ابن حزم بهشام بن سعد، وهو صدوق»، وهو في صحيح سنن أبي داود (١٤٧٢).

٢ ـ الزهد في المال رغم وفرته

ونجدُ صورةً صادقة رائعة لهذا الجانب في حكاية سعيد بن عامر الجمحي مع عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

وذلك أن عمر رضي الله عنه أراد أن يولي سعيداً على حمص، فتأبّى، وقال: أعفني يا أمير المؤمنين. فغضب عمرُ وقال: تركتموها في عنقي وانصرفتم؟ لا والله حتى تكونوا معي.

فحينئذٍ وافق سعيدٌ وتولى أمر حمص، وكانت حمص تُسمّى (الكويفة الصغرى) لتشبه أهلها بأهل الكوفة في كثرة شكاياتهم من ولاتهم وعدم رضاهم عن أحدٍ.

وبعد مدة أرسل عمرُ وفداً إلى حمص يسأل عن أميرها، فشكرالناس وأثنوا، إلا أنهم شكوا من أربعة أمور:

الأول: أنه لايجيب أحداً بليل.

والثاني: أنّه لا يخرج إلى الناس حتى يتعالى النهار.

والثالث: أن له يوماً في الشهر لا يخرج فيه إلى الناس أبداً.

والرابع: أنّه يغنُظُ الغَنْظَة بين الأيام (أي: يُغشى عليه فجأة من حين لآخر).

وحين رجع عمرُ من بيت المقدس بعد استلام مفاتيحها عرّج على حمص ولقي واليه سعيد بن عامر رضي الله عن الجميع، وجلس معه جلسة مصارحةٍ، فقال له: والله، إنني لأعلم أنك من خير خَلق الله، وإنني لأحسِن الظنَّ بك، ولكنّ القوم قد وجدوا عليك أربعة أمور، وذكر له الملاحظات السابقة.

فقال سعيدٌ: يا أمير المؤمنين، إن كنتُ لأكره ذِكرَه. إني جعلتُ النهار لهم، وجعلت الليل لله عز وجل.

فقال عمر: الحمد لله الذي أحسَنَ ظنِّي بك، والثانية؟

قال: ليس لأهلي خادم، فأعجن عجيني، ثم أجلس حتى يختمر، ثم أخبز خبزي، ثم أتوضّأ، ثم أخرج إليهم.

قال عمر: الحمد لله الذي أحسَنَ ظنِّي بك، والثالثة؟

قال: يا أمير المؤمنين، ليس لي خادم يغسل ثيابي، ولا لي ثياب أبدّلها، فأجلس حتى تجفّ، ثم أدلكها، ثم أخرج إليهم من آخر النهار.

فقال عمر: الحمد لله الذي أحسَن ظنِّي بك، قال: والرابعة؟

قال: يا أمير المؤمنين، شهدتُ مصرَعَ خُبيب الأنصاريّ بمكة، وقد بَضَعَتْ قريشٌ لحمه، ثم حملوه على جَذعة فقالوا: أتحبّ أنّ محمّداً مكانك، فقال: والله، ما أحبّ أني في أهلي وولدي وأنَّ محمداً ﷺ يشاك بشوكة، ثم نادى: يا محمّد، فما ذكرتُ ذلك اليومَ وتركِي نصرتَه في تلك الحال وأنا مشرِك لا أؤمن بالله العظيم إلا ظننتُ أنَّ الله عز وجل لا يغفر لي بذلك الذنب أبداً، قال: فتصيبني تلك الغنظة[1].

وخلاصة خبر خبيب الذي أرّق سعيداً رضي الله عن الجميع أن قريشاً أَسَرَتْه وصلبتْهُ وآذته في حبيبه محمد ﷺ، فثبت وأنشد:

ولستُ أبالي حين أُقتَل مسلماً ... على أيِّ جنبٍ كان في الله مَصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشَأ ... يباركْ على أشلاء شلو ممزّعِ

(١) قصة سعيد بن عامر الجمحي رضي الله عنه هذه أخرجها أبو نعيم في الحلية (١/ ٢٤٥ ـ ٢٤٦)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٢١/ ١٦١ ـ ١٦٢).

ثم قال لكفّار مكة: ائذنوا لي أن أصلِّيَ ركعتين، فصلّى ركعتين خفَّف فيهما، قال: والله، لولا أن تقولوا: جزعاً من الموت لأطلتُ الصلاة، ثم رفَع يديه فقال: اللهم أبلِغ رسولَك ما لقينا، اللّهمّ أبلِغ رسولَك ما لقينا، اللهمّ أبلغ رسولَك ما لقينا، وقد سمعه النبيُّ ﷺ وهو في المدينة فأشار بيدَيه وقال: «**وعليك السلامُ يا خُبيب، وعليك السلام يا خُبيب، وعليك السّلام يا خُبيب**».

ومع أنّ سعيداً رضي الله عنه قد تابَ وأناب وأسلم، والإسلام يجبّ ما قبله، إلا أن خذلانه لخبيب رضي الله عنه في ذلك الموقف مازال يؤرقه إلى درجة أن يغشى عليه كلما تذكر مقامه ذاك!!

٣ ـ الاعتراف بالمال وسيلةً من وسائل الحياة

فالإسلام حين قرر أن المال مال الله، وحين رغّب في الزهد، لم يقصد بذلك أنه من العيب على الإنسان أن يكتسب المال، أو أن من العيب عليه أن يطلب على عمله المباح أجراً.

لا..

بل كان المراد أن يظل المالُ دائماً في اليد لا في القلب.

ويدلك على عناية الإسلام بالكسب، ما جاء في خبر جابر بن عبد الله رضي الله عنهما مع رسول الله ﷺ حين بايعه على جملٍ له فقال ﷺ: «**أتبيعُنيه بأوقية؟**» فاستحيى جابر بن عبد الله رضي الله عنهما لأنه لم يكن لهم ناضحٌ غيره، فقال: «**باثنتين؟**»، فما رضي جابر بن عبد الله، فقال: «**بثلاث**»، فلم يرضَ، فقال: «**بأربع**»، فحينئذٍ قبل جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

لقد أبى جابر رضي الله عنه ـ وهو من هو ـ أن يبيع جمله بثمنٍ بخسٍ وإن كان المشتري رسول الله ﷺ، وفي هذا إشارة صريحةٌ إلى أنه ليس من

العيب أن يبايع الإنسان ويبحث لنفسه عن الربح الحال، ويراجع حساباته المادية ليسلك أفضل الطرق ربحاً.

كل ذلك جائز لابأس به، ما بقي المال في اليد ولم يسيطر على القلب.

ثم انظر إلى بقية القصة لترى كيف هي مراعاة النبيّ ﷺ لهذه المسألة.

أخذ النبي ﷺ الجمل فما إن وصل إلى داره حتى أمر أحدَ الصحابة أن يردَّ الجملَ إلى جابر!! وحين تعجب جابر من هذا الأمر، قال له ﷺ: «**أتُراني ماكستُك لآخذ جملك؟! خُذ جملَك ودراهمَك فهو لك**»(١).

ومن دلائل هذه المسألة أيضاً أنه ﷺ كان ينزل الناس منازلهم، فمن كان في قومه شريفاً من أهل الجاه والمال قدّر له ذلك، وعامله بما يعامل به مثله مما يليق بالمقام والحال.

وتجدُ ذلك واضحاً في استقباله ﷺ لجرير بن عبد الله البجلي أحد أعيان اليمنِ وكبرائها.

وكذا في استقباله لوائل بن حجر سليل الملك والجاه والثراء.

يقول جابر رضي الله عنه: «ما حجَبني النبيّ ﷺ منذ أسلمتُ، ولا رآني إلا تبسَّم في وجهي»(٢)، وفي الخبر أن جريراً قدِم على النبيّ ﷺ في المدينة، وأناخ راحلتَه عند المسجد النبويّ، ثم لبسَ حلّته ودخلَ المسجد، فإذا

---

(١) رواه مسلم في كتاب المساقاة، باب: بيع البعير واستثناء ركوبه (٧١٥) عن جابر رضي الله عنه، وقد وقع فيه اختلاف كثير في تحديد سعر الجمل.

(٢) رواه البخاري في كتاب الأدب، باب: التبسم والضحك (٥٧٣٩)، ومسلم في مسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب: من فضائل جرير بن عبد الله رضي الله عنه (٢٤٧٥).

النبي ﷺ يخطُبُ، فرماه النّاس بالحدق، فلما رآه النبيّ ﷺ عرض له في خطبته فقال: «**إنّه سيدخل عليكم من هذا الباب** ـ أو: من هذا الفجّ ـ **مِن خير ذي يمَن، ألا وإنَّ على وجهه مسحةَ مَلَك**»(١).

وفي أخبار السيرة أيضاً أنّ وائل بن حجر لما قدم على النبيّ ﷺ مسلماً تاركاً كل ما كان فيه من الجاه والملك بسط له النبيّ ﷺ رداءَه وأجلسه عليه، ثم صعد منبره وأقعده معه، فرفع يديه فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبيِّين، واجتمع الناس إليه فقال لهم: «**أيّها الناس، هذا وائل بن حجر، قد أتاكم من أرضٍ بعيدة من حضرموت، طائعاً غيرَ مكرَه، راغباً في الله وفي رسوله وفي دينه، بقيَّة أبناء الملوك**»(٢). ثم أمَر عليه الصّلاة والسلام أن يعطَى أرضاً(٣).

إنّ هذه المواقف تعزز المعنى الذي ذكرته في البعد الثالث من أبعاد علاقة الإسلام بالمال، والذي سميته: (الاعتراف بالمال وسيلةً من وسائل الحياة).

وحين استقرّت هذه الأبعاد الثلاثة في نفوس الصحابة رضي الله عنهم عاشوا مع المال عيشةً هانئة عاقلةً، فكنت ترى غنيهم وفقيرهم يجلس بعضهم

(١) رواه أحمد (٤/ ٣٥٩، ٣٦٤)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٥٠)، والنسائي في الكبرى (٨٣٠٤)، والطبراني في الكبير (٢/ ٣٠١، ٣٥٢، ٣٥٦) عن جرير رضي الله عنه، وصححه ابن خزيمة (١٧٩٧، ١٧٩٨)، وابن حبان (٧١٩٩)، والحاكم (١٠٥٣)، وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ٦٢١): «رجال أحمد رجال الصحيح، غير المغيرة بن شبل وهو ثقة»، وانظر: السلسلة الصحيحة (٣١٩٣).

(٢) رواه البزار، والعقيلي في الضعفاء (٤/ ٥٩)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٦٢/ ٣٩١) من حديث وائل رضي الله عنه، قال الهيثمي في المجمع (٩/ ٦٢٤): «رواه البزار، وفيه محمد بن حجر وهو ضعيف».

(٣) انظر: الاستيعاب (١/ ٤٩٥)، وأسد الغابة (١/ ١١٠٢).

إلى البعض فلا يحقر هذا ذاك لفقره، ولا يحسد هذا ذاك لغناه، بل لا يفرق الناظر أحيانا بين غنيهم وفقيرهم.

ولعل هذا الحديث النبوي الشريف يمثل خلاصة مكثفة لكل ما قلناه، يقول ﷺ: «**نعم المال الصالح للمرء الصالح**»[١].

* * *

(١) رواه أحمد (٤/ ١٩٧، ٢٠٢)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٩٩)، والبيهقي في الشعب (٢/ ٩١) عن عمرو بن العاص رضي الله عنه، وصححه ابن حبان (٣٢١٠، ٣٢١١)، والحاكم (٢١٣٠، ٢٩٢٦)، وصححه الألباني في غاية المرام (٤٥٤).

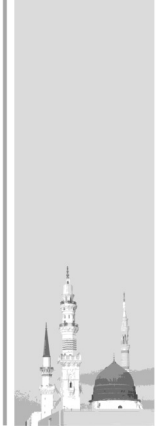

المواقف الجهادية في المجتمع النبوي

(الجهاد)، (الإرهاب)، (القتال).

هذه المفردات الثلاثة باتت الشغل الشاغل لوسائل الإعلام الغربية ولاسيما عند الحديث عن الإسلام.

وقد تداولت وسائل الإعلام هذه المصطلحات بطريقة مشوشة مضلِّلة، حتى باتت حركات المقاومة المشروعة (إرهاباً) مذموماً، وأصبح دفاع المظلوم عن نفسه (عدواناً)، وبات الضحية جلاداً.

ووُضِعَ مفهوم (الجهاد الإسلامي) في قفص الاتهام بوصفِهِ وحشيةً وبربريةً واعتداءً على الإنسانية.

في هذا الموضوع نريد أن نصحح المفهوم من خلال النظر في (التطبيقات الجهادية) للمجتمع المدني النبويّ على مستويَي الدافع والتطبيق.

إنّ الدافع للجهادِ الإسلاميِّ لم يكنْ أبداً هو حبّ المال، أو الطمع في الدنيا، أو السعي لتكديس الغنائم.

وإنما شُرع الجهادُ الإسلاميُّ ليكون سبيلاً إلى أمرين أساسين:

أولهما: إزاحة العوائق عن طريق الدعوة الإسلامية.

وثانيهما: الدفاعُ عن الأعراض والحُرُماتِ.

هذا هو الجهادُ الإسلامي على مستوى الدافعِ، جهادٌ شريفٌ، جهادٌ نظيفٌ، جهادٌ مبدؤُه الحقّ ومنتهاهُ الحقّ.

وأمّا على مستوى التطبيقِ فقد زخرتْ الأدبياتُ الإسلاميةُ بأخلاقياتِ الجهاد المطلوبةِ، وحسبُنا أن نقرأ وصايا النبيِّ ﷺ لجيوشِهِ، ووصيةَ أبي بكر رضي الله عنه لجيش الردةِ.

وبين يديّ أربع قصص مدنيّة.. تصور لنا تفوق الجهاد الإسلامي على مستوى الدافع ومستوى التطبيق، القصتان الأوليان فيهما شرفُ المقاصد، وفي الأخريين بيانُ أخلاقِ المجاهد.

القصةُ الأولى حصلت في سوق بني قينقاع..

حين قدمت امرأة مسلمةٌ إلى السوق بجلَبٍ لها تبيعه، فأرادها اليهود على كشف وجهها فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشَفَت سوأتُها، فضحكوا منها، فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتَله وكان يهوديّاً، فشدَّ اليهود على المسلم فقتَلوه، فاستصرَخ أهلُ المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون فوقَع الشرّ بينهم وبين بني قينقاع[١].

وحين بلغ الأمر رسول الله ﷺ غضب لعرض هذه المسلمة العفيفةِ، ورأى في اعتداء يهود على أعراض المسلمين سبباً كافياً لشنّ حربٍ عليهم، فهيّأ جيشاً كاملاً لملاقاةِ يهود بني قينُقاع، وكانت الغزوة المشهورة في السيرة النبويةِ.

---

(١) علقه ابن هشام في السيرة النبوية (٣/ ٣١٤) قال: وذكر عبد الله بن جعفر بن المسور بن مخرمة عن أبي عون قال: كان من أمر بني قينقاع أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها فباعته بسوق بني قينقاع، وذكر القصة، وهذا إسناد مرسل، انظر: دفاع عن الحديث النبوي (ص٢٦).

هذه القصة تصور لنا نموذجاً من نماذج (الدوافع) المشروعة للجيش الإسلامي في جهادِهِ، إنه الدفاع عن العرض، والحماية للبريئات الغافلات.

ولو نحنُ وازنّا بين هذه الحكاية ومانراه في واقعنا اليوم لأجرينا دموعنا أنهراً، فهاهنّ أخواتنا المسلماتُ يُؤذين في أنفسهنّ وأعراضهن وأولادهن وأموالهنّ، ويستصرخن بأعلى أصواتهنّ، وما ثمّت من ينتصر لهنّ، أو يعيد إليهنّ كرامتهنّ!

آهِ لو يجدي الكلام!

آه لو يجدي الكلام!

هذه الأمة نامت والسلام!!

القصةُ الثانية...

قال أبو هريرة رضي الله عنه: افتتحنا خيبر، ولم نغنم ذهباً أو فضّة، إنما غنمنا البقر والإبل والمتاعَ والحوائط، ثم انصرفنا مع رسول الله ﷺ إلى وادي القرى ومعه عبدٌ له يُقال له: مِدْعَم، أهداه له أحد بني الضّباب، فبينما هو يحطّ رحل رسول الله ﷺ إذ جاءه سهمٌ عائر [العائر من السهام: مالا يدرى راميه] حتى أصاب ذلك العبد فقال الناس: هنيئا له الشهادة، فقال رسول الله ﷺ: «**بل والذي نفسي بيده، إنّ الشَّمْلة التي أصابها يومَ خيبر من المغانم لم تصبها المقاسم لتشتعِل عليه ناراً**»، فجاء رجل حين سمع ذلك من النبي ﷺ بشراكٍ أو بشراكين، فقال: هذا شيء كنتُ أصبته، فقال رسول الله ﷺ: «**شراك** ـ أو: شراكان ـ **من نار**»[(١)].

(١) رواه البخاري في المغازي، باب: غزوة خيبر (٣٩٩٣)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب: غلظ تحريم الغلول (١١٥).

هذه القصةُ تشهدُ أيضاً لشرف الدافع في الجهاد الإسلاميّ.

إنَّ جهاداً يَحْرُمُ على أفرادِهِ أن يأخذوا (شَمْلةً) بغير وجه حق لا يمكن أن يكون جهاد طمعٍ، ولا يمكن أن يكونَ باعثُهُ المصالح الاقتصادية كما يزعم المغرضون.

وإنَّ جهاداً قُسِّمتْ غنائمُهُ قسمةً ربانيةً لايمكن أن يكون فيه مطمعٌ لذي طمعٍ، ألم يقل سبحانه: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٤١].

القصة الثالثة...

يروِي أحد الأسرى الذين أُسِروا تعاملَ صحابة رسول ﷺ الذين تأدَّبوا بأدب النبوّة والإسلام، يقول هذا الرجل: كنا إذا تغدَّينا أو تعشَّينا لم نجِد إلا الخبز والتّمر، فكان أصحاب محمدٍ يقدّمون لنا الخبز ويؤثِروننا على أنفسهم. ويروي الوليد بن الوليد بن المغيرة أنّ الخبزة كانت تسقُط من يد أحدهم لايوجد غيرها فيقدِّمونها إلى الأسير!

فأيُّ خلقٍ كان يربّيه النبي ﷺ في نفوس صحابته رضي الله عنهم؟!

وأيُّ جهادٍ هذا الذي يعامِلُ أسراه بهذه الطريقة الإنسانية الراقية؟!

إنه تعاملٌ يفوق كل ما تتفاخر به الحضارة الحديثة من دساتير وأنظمةٍ وقوانين تكفل حقوق أسرى الحرب.

وهو تعاملٌ يدرك الفرق بين لحظة المقاومة والقتال ولحظة السّلام ونشرِ الودّ بين الطرفين.

ومرة أخرى لو وازنّا بين هذه الصورة المشرقة وواقع التعامل مع أسرى المسلمين اليوم لوجدنا البون شاسعاً، ولظهر جلياً كذب بعض أصحاب دعاوى حقوق الإنسانِ من الغربيين، وهل في الدنيا دليلٌ أبلغُ، أو لسان أفصحُ من (جوانتنامو)؟!

القصة الرابعة...

لما كانت معركةُ بدرٍ برزَ فرسان المشركين للقتالِ، فانتدب لهم النبيّ ﷺ فرساناً من الأنصار، فقالوا له: نريد أبناء عمومتنا، وحينئذٍ انتدب النبيّ ﷺ حَمزة بن عبد المطّلب رضي الله عنه، وعليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وعبيدة بن الحارث بن المطّلب رضي الله عنه وأرضاه[1].

والملاحظُ هاهنا أن هؤلاء الثلاثة كلهم من أبناء عمومة المصطفى ﷺ، أي أنه عليه الصلاة والسلام ضحّى بأقرب الناس إليه، وأحبهم، ولم يفعل فعل بعض القادة الذين يجعلون شعوبهم وقودَ معاركِ أطماعهم وينأون هم بأنفسهم وذويهم عن لهيب المعركة.

وأشير في ختام هذا المعنى إلى نقطة مهمة، هي أنَّ القتال في الإسلام استثناء وليس أصلاً. فالمسلمون لما أخرجوا من ديارهم وأوذوا حملوا سلاحهم وجاهدوا، ولو تأملتَ الغزوات النبوية كلها لوجدتَ موقد شرارها المشركون، ولم تكن مبادأة منه ﷺ.

هذه إضاءات تكشف للمنصفِ حقيقة (الجهاد الإسلامي)، وتبين له شرف غايتِهِ، وإنسانيةَ تطبيقاتِهِ. ولله الأمر من قبل ومن بعد.

❁ ❁ ❁

(١) رواه البخاري في كتاب المغازي، باب: قتل أبي جهل (٣٧٥١)، ومسلم في كتاب التفسير، باب: في قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ﴾ (٣٠٣٣).

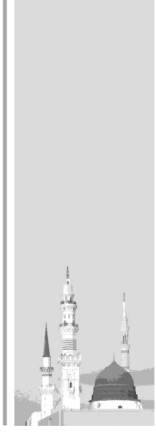

البرامج التنموية في المجتمع النبوي

حين هاجر النبيّ ﷺ إلى المدينة وشرع في تأسيس الدولة المسلمةِ كان يدرك أن ثمّت أربعة أمور هي (أسسُ) و(أركانُ) و(قواعد) بناء الدولةِ، وأنه لابدّ من ترسيخها ليتمّ له ﷺ ما أراد من تأسيس دولةٍ مسلمةٍ فاعلةٍ.

هذه الأمور الأربعةُ هي: البناء الاجتماعيّ، والبناء الاقتصاديّ، والبناء الثقافيّ، والبناء العسكريّ.

ذلك أن كل دولةٍ راشدةٍ تحتاج إلى تماسكٍ، وتمويلٍ، ووعيٍ، وآلية دفاع عن مكتسباتها.

وقد اجتهد النبيّ ﷺ في ترسيخ هذه القواعد الأربعة في المجتمع المدنيّ.

أولاً: البناء الداخلي: أوجدَ النبيّ ﷺ البناءَ الداخلي المتماسك من خلال (المؤاخاة) بين المهاجرين والأنصار، هذه المؤاخاة التي كانت أولَ خطوةٍ نفذها النبيّ ﷺ بعد وصوله إلى المدينةِ.

لقد أراد النبيّ ﷺ بذلك أن يؤسس بناءً داخلياً مترابطاً يستطيع أن يصمد في وجه العواصف المتوقعةِ التي لن تسلم منها دولةٌ مؤمنة ناشئةٌ تحاول توطيد أركانها في وسط بيئةٍ ألفت الكفر والوثنية دهوراً متطاولة.

وقد فعلت المؤاخاة فعلها، فارتبطت قلوب الصحابة رضي الله عنهم برباطٍ

إيمانيّ يفوق كل روابط الدنيا، وبلغ بهم الحالُ أنّ أحدَهم تكون عنده زوجتان، فيقول لأخيه: اختَر أعجبَهما إليك أتنازلْ لك عنها!! وأنْ ينزل أحدهم عن شطر ماله لأخيه!! ويقاسمه كل شيء يملكه!!

ومن وراء المؤاخاةِ عمد النبيّ ﷺ إلى (تكثيف) المواعظِ الحاثة على اجتماع الكلمةِ ووحدة الصف: «**لا تختلِفوا فتختلف قلوبكم**»(١)، «**لِينوا في أيدي إخوانكم**»(٢).

وقد أدّى عمقُ هذه المؤاخاةِ بين كل اثنين من الصحابةِ إلى حالة اجتماعيةٍ جماعيةٍ يسودها الوئام والتناسقُ، ولعلك تلاحظُ عجباً في حجةِ الوداع، تلك الحجةُ التي احتشد لها المسلمون من الآفاقِ حتى بلغ عددهم مئةَ ألف، كلهم يريد أن يكون قريباً من رسول الله ﷺ، وكلهم يريد أن يأخذ عنه النسك، وكلهم يريدُ أن يأخذَ شيئاً من شعرِهِ ﷺ بعد أن حلقه، ومع كل ذلك لم يؤثَر في السيرة أن أحداً من الحجاج مع النبي ﷺ قد ماتَ بسبب الزحام أو التدافع! وكل مانقل هو خبر وفاة ذلك الصحابيّ الذي وقَصَتْه دابتُهُ وهو محرم فقال ﷺ: «**اغسلوه بماءٍ وسِدر، وكفِّنوه في ثوبَيه، ولا تمَسّوه بطيب، ولا تخمِّروا رأسَه؛ فإنّه يُبعَث يومَ القيامة ملبِّياً**»(٣).

---

(١) رواه مسلم في كتاب الصلاة، باب: تسوية الصفوف وإقامتها وفضل الأول فالأول منها والازدحام على الصف الأول والمسابقة إليها وتقديم أولي الفضل وتقريبهم من الإمام (٤٣٢) عن أبي مسعود رضي الله عنه.

(٢) رواه أحمد (٢/ ٩٧)، وأبو داود في كتاب الصلاة، باب: تسوية الصفوف (٦٦٦)، والبيهقي في الكبرى (٣/ ١٠١) عن ابن عمر رضي الله عنهما، وهو في صحيح الترغيب والترهيب (٤٩٥).

(٣) رواه البخاري في أبواب الإحصار، باب: سنة المحرم إذا مات (١٧٥٣)، مسلم في كتاب الحج، باب: ما يفعل بالمحرم إذا مات (١٢٠٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

ما الذي جعل احتشاد مئةِ ألفٍ حول نقطة مركزيّة هي النبيُّ ﷺ يمرُّ بسلامٍ وبلا حوادث على حين نجد كل موسمٍ في زماننا هذا لايخلو من حوادثٍ مؤسفة رغم وفرة التجهيزات وارتفاع الوعي وكثرة التنبيهات؟!

إنّه ذلك التناغم العجيب، والتراحم الفريد الذي طبع العلاقة بين الصحابة رضي الله عنهم، إنّه (البناء الداخليّ) المتماسك الذي ربط هذه القلوب المؤمنة، فبات بعضها يؤثر بعضاً ويرحمُهُ ويلطُفُ به.

ثانياً: البناء الاقتصادي: حين قدم النبيّ ﷺ ألقى نظرةً فاحصةً على أوضاعها الاقتصادية لكي تكون قراراته وخطواته مبنية على (معلومة) صحيحة واقعية وليست مجرّد أفكار نظرية، نظر ﷺ إلى الواقع الاقتصاديّ فوجد أن اليهود يسيطرون على السوقِ، وأراد عليه الصلاة والسلام أن تكون قوة الاقتصاد بيد المسلمين فسلك لذلك عدة خطوات، منها:

- تأسيس سوق آخر جديد تكون للمسلمين فيه اليد العليا.
- الحثُّ على اكتساب المال الحلال الذي ينفق في وجوه الخير، كما قال ﷺ: «**نِعمَ المال الصّالح للرّجل الصّالح**»[(١)].
- حثُّ المهاجرين على اقتحام الأسواقِ وعدم الاقتصار على ما تجود به أنفس إخوانهم الأنصار، وقد كان لذلك أثرُهُ، حتى كان المهاجريُّ إذا عرض عليه أخوه الأنصاريُّ أن يأخذ نصف ماله قال له: بارك الله لك في مالك، دلّني على السوق.

وقد أثمرت هذه السياسات النبويّة حضوراً إسلامياً اقتصادياً قوياً،

---

(١) رواه أحمد (٤/ ١٩٧، ٢٠٢)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٩٩)، والبيهقي في الشعب (٢/ ٩١) عن عمرو بن العاص رضي الله عنه، وصححه ابن حبان (٣٢١٠، ٣٢١١)، والحاكم (٢١٣٠، ٢٩٢٦)، وصححه الألباني في غاية المرام (٤٥٤).

فكان أبو بكر وسعد وعبد الرحمن بن عوف وعشرات من رجال النبي ﷺ من أكبر التجار.

وكم الدعوة بحاجة الآن إلى أن يكون من رجالاتِها من يمسك بمفاصل الاقتصاد والتجارة، وقد كان الأئمة الأوائل من فقهائنا يدركون هذا ويمارسونه، وقد كان أبو حنيفة رحمه الله تاجراً معروفاً، وكان مالك بن أنس يقول: لولا مال أبي حنيفة ما جلَسنا لكم على هذا الكرسي!

ثالثاً: البناء العلمي: وكان منطلقه المسجد، فقد كان النبيّ ﷺ يجلسُ فيه للتدريس، ويخطب فيه الجمعة، ويجلس بعد الفجر مع أصحابِهِ يفسّر رؤاهم، ويجيب على تساؤلاتهم.

ويمكننا أن نجد في قصة إسلام عمرو بن عبسة رضي الله عنه نموذجاً واحداً من نماذج التعليم النبويّ، فقد قدم رضي الله عنه إلى المدينة بعد أن سمع بظهور النبيّ ﷺ، وأعلن إسلامه، ثم قال: يارسول الله، أَخْبِرْنِي عَمَّا عَلَّمَكَ اللَّهُ وَأَجْهَلُهُ، فأخبره عن الصلاةِ صفةً ومواقيتَ، وأخبره عن الوضوءِ صفةً وفضلاً، كل ذلك والصحابة رضي الله عنهم يسمعون ويتعلمون.

ليس ذلك فحسب بل حثّ النبيّ ﷺ صحابته على تعلم القراءة والكتابةِ، وجعل فداء الأسرى يوم بدر أن يعلم كل واحد منهم عشرة من الصبيان القراءة والكتابةَ، وحثهم كذلك على تعلم اللغاتِ، وغيرها من العلوم الأرضية النافعة.

وهكذا بنى النبيّ ﷺ بناء علمياً مميزاً في أمةٍ كانتْ أميةً لا تقرأ ولا تكتب.

رابعاً: البناء العسكري: أدرك النبيّ ﷺ أن وجود الدولة الإسلامي

في أوّليته سيكون مهدداً من قبل قوى الكفر بمختلف أنواعها، لذلك حرص منذ البداية على تأسيس قوة ردعٍ عسكرية تكون حاميةً لهذه الدولة الناشئة، وتكون معينةً لها على نشر الحقّ والهدى.

فبعث النبي ﷺ إلى اليمن مجموعةً من الصحابة، فتعلَّموا بعض المهارات العسكرية التي لم تكن معروفة بالحجاز، وقد ظهر أثر ذلك في سبق المسلمين إلى استخدام المنجنيق في حصار الطائف.

كما أخذ النبيّ ﷺ بمشورة سلمان الفارسيّ في بعض الوسائل العسكرية الفارسية كالخندقِ.

كما كثر حثّه ﷺ لأصحابه على ملاعبة الخيلِ والتدربِ عليها.

وذلك كله من باب البناء العسكريّ.

إنّ عناية النبي ﷺ بهذا الجوانب الاستراتيجية الأربعة تدلّ على أفُق واسع في البناء الدينيّ النبويّ.

ويمكننا أن نرى اليوم نموذجاً قيادياً مسلماً بارعاً حاول أن يتأسّى بهذا الهدي ا لنبويّ ويؤسس لدولتِهِ هذه الأركان الأربعة.

النموذج الذي أعنيه هو القائد الماليزي المسلم مهاتير محمد.

ويُقال: إن مهاتير لما زار أمريكا قال له بوش الأب مشيراً إلى برجي التجارة: هذان البرجان أطول برجين في العالم، فنظر إليهما مهاتير محمد القائد المسلم وقال: بعد قليل سترى برجين أكبر منهما، وعاد مهاتير محمد الرجل المسلم إلى ماليزيا، وبنى بُرجي ماليزيا الشهيرين وهما أكبر من برجَي التجارة العالميّين.

مَن الذي بناهما؟ بناهما أبناءُ ماليزيا المسلمون، وهذا البناء هو

صورة واحدة من صور البناء الاقتصادي الذي أسسه مهاتير، ولذلك ماليزيا اليومَ من أقوى دول العالم بناء اقتصاديّاً.

ونظر مهاتير إلى التعليم في ماليزيا فوجده ضعيفاً، فاهتمّ بتطويره حتى أصبحت نسبة المتعلّمين في ماليزيا ٩٠٪، وتوجد في ماليزيا قنوات تعليم مجانية، وتوجد مِنح دراسية لمن أراد أن يتعلَّم من شباب وفتيات ماليزيا.

ومما صنعه مهاتير أيضاً التعايش والبناء الأخوي بين مختلف طوائف المجتمع الماليزي، ذلك أن المجتمع الماليزي مجتمعٌ بالغُ التنوعِ ففيه أغلبيةٌ مسلمة، وفيه جالية صينية، وبعض البوذيين، وبعض الهنود الذين لهم دين، ومع ذلك فقد أفلح مهاتير في ترسيخ التآلف والمحبّة والتجانس والتعايش بينهم.

بل إنني عجبتُ مما حصل معي مرةً في أحد أسواق ماليزيا، حيث كنتُ أسأل عن قطعة قماش فأقول لأحدهم: عندك هذا النوع من الملابس؟ فيقول: لا، ليس موجوداً عندي، ولكنه موجود في محلّ آخر، ويقوم هو بنفسه ويذهب إلى المحلّ الآخر فيرشدني إليه!!

وهذه النفسية الأخوية الموجودة الآن في ماليزيا هي أحد أسباب نهضتها وقوّتها.

ولا عجب بعد أن استكملت ماليزيا هذه الجوانب الأربعة أن تكون قبلةً للسياح العرب المسلمين والأجانب.

الخلاصةُ هي أنّ القائد الناجح هو الذي يفكّر في عوامل القوّة مجتمعةً، ولا يقتصر على بعضها دون بعضٍ.

❁ ❁ ❁

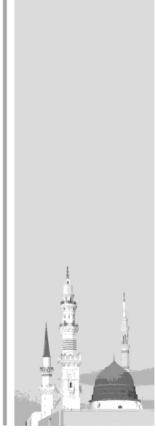

الأحداث الختامية في المجتمع النبوي (١)

بدأنا موضوعاتنا هذه بالحديثِ عن نشأة المدينة، وبداياتها، وأوائل من سكنها، ثم تحدثنا عن قدوم النبيّ ﷺ إليها، وما أحدثه ذلك من تطوراتٍ دينيةٍ وفكرية واجتماعية وسياسيةٍ.

وأمضينا وقتاً طويلاً ممتعاً في تتبّع الجوانب المشرقة الإيجابية في المجتمع المدنيّ الذي ربّاه النبيّ ﷺ على عينه.

وها نحن نصل الآن إلى النهايات... بعد أن أفضنا في البدايات.

نبدأ من هذه اللحظة ذكر (نهاية) المدينة، والحديث عمّا مرّ وسيمرّ بها من شدائدَ وصعاب أخبر عنها النبيّ ﷺ.

لقد أخبرنا النبيّ ﷺ أن هذه المدينةَ العامرةَ بسكانها وناسها ستُهجر ذاتَ يوم! وستصبح خلاءً! ويبلغ بها الحالُ أن تدخل السباعُ والكلابُ إلى المسجد النبويّ فتبول على المنبر لا تجدُ من يردُّها!

روى مسلم في صحيحه عن النبيّ ﷺ قوله: «**ليترُكنَّها أهلُها على خيرِ ما كانت مذلّلةً للعوافي**»[١].

وقوله: «**على خيرِ ما كانت**» يدلُّ على أنّ المدينة لن يصيبها دمارٌ، بمعنى أنَّ بنيانَها سيبقى سليماً، وأنّها حين يتركُها أهلها ستكونُ على حالٍ

(١) رواه مسلم في كتاب الحج، باب: في المدينة حين يتركها أهلها (١٣٨٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

حسنةٍ من أمر الدينِ والدنيا، ولكنّ طارئاً ما يحملهم على مغادرتها حتى تصبح خلاءً أو كالخلاءِ تعيثُ فيها السباع والعوافي.

وفي روايةِ المسند ما يدلُّ على أنّ هذه الحالة ستتكرر: «**يخرج أهل المدينة منها ثم يعودون إليها**»[١].

وبالنظر إلى التاريخ ودلالات النصوص يمكننا أن نقولَ: إنّ المدينة شهدتْ وستشهدُ أربع نُزُوحاتٍ من هذا النوع.

الأولُ: حصل في زمنِ انتقال الخلافة منها إلى الشام والعراقِ ـ كما حكى القاضي عياضٌ ـ، حيث جرتْ فتنٌ وحوادثُ حملت كثيراً من أهل المدينة على مغادرتِها، في الوقت الذي كانت فيه المدينةُ على «أَحْسَن مَا كَانَتْ الدِّين وَالدُّنْيَا، أَمَّا الدِّين فَلِكَثْرَةِ الْعُلَمَاء وَكَمَالهمْ، وَأَمَّا الدُّنْيَا فَلِعِمَارَتِهَا وَغَرْسهَا وَاتِّسَاع حَال أَهْلهَا».

والثاني: حصل في المدينةِ المنوَّرة، عام ١٣٣٤هـ تقريباً، عندما اندلعت الحرب العالميّة، وأراد والي مكةَ (الحسين بن علي) أن يثور على والي المدينة العثماني (فخري باشا)، فأرسل إلى المدينةِ جيشاً، فلما علم واليها بذلك أمر أهلها بالخروج منها، وعسَفَهم في ذلك عسفاً شديداً، وطرد من لم يخرج منهم بالقوة العسكرية إلى الشام وجدة والطائف وغيرها. ثم حوصرت المدينةُ ووقعتِ الشدّةُ بها فلا طعام ولا شراب! وأكل الناس بعضهم بعضاً! وأكلوا القطط والكلاب! ومات بعضُ من لم يرد الخروج أو لم يستطعه في بيته من شدة الجوعِ، حتى إن البيوت كانت تفتحُ فتُوجد فيها الجثث!!

وبعد أن أحكم الشريف سيطرته على المدينة بدأ الناس يرجعون.

---

(١) رواه ابن أبي شبَّة في (تاريخ المدينة) برقم: (٦٤١)، وبنحوه أخرج البزار (٢٣٣) بإسناد جيد.

وقد استمرّت هذه المأساةُ زمناً طويلاً ومازال بعض من أدركها يعيش إلى اليوم، وقد أخبر هؤلاء أنهم رأوا الكلاب تجوس في المسجد لا يردّها أحد!!

والثالثُ: سيأتي، وستخلو فيه المدينة، وتبول الكلابُ على المنبر كما صحَّ في الحديث، وقد اختلف أهل العلم في تفسير ذلك وعلته، ومما قاله بعضهم احتمال أن تُضربَ المدينةُ بالأسلحة الكيماوية مما يفضي إلى خروج أهلها وقتلهم مع بقاء بنيانها على (خير ماكان) كما جاء في الحديث، فتخلو المدينة حينئذٍ للسباع والعوافي.

الرابعُ: هو النزوح إلى المحشر.

والمحشر محشران: محشر يوم القيامة الذي بعدَه البعث والنشور، والمحشر الذي هو الخروج إلى جهة الشّام، كما أشار النبيّ ﷺ إلى الصحابة عندما سألوه فقالوا: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: «**عليكم بالشام**»[(١)]، وستكون الشام من خير البلاد آنذاك، حيث يجتَمِع جُند الإسلام عند منطِقة الغوطة في بلاد دمشق، وهي المنطقة التي سينزل فيها نبيُّ الله عيسى عليه الصلاة والسلام عند المنارة الشرقية في دمشق، فيكون القتال مع اليهود الذي أخبَر عنه النبي ﷺ بقوله: «**لا تقوم الساعةُ حتى يقاتلَ المسلمون اليهودَ، فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ اليهود من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم، يا عبد الله، هذا يهوديّ خلفي فتعال فاقتله، إلا الغرقد؛ فإنه من شجر اليهود**»[(٢)].

---

(١) رواه أحمد (٢/٨، ٥٣، ٦٩، ٩٩، ١١٩)، والترمذي في كتاب الفتن، باب: ما جاء لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من قبل الحجاز (٢٢١٧)، وأبو يعلى (٥٥٥١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب صحيح»، وصححه ابن حبان (٧٣٠٥)، وهو في صحيح الترغيب (٣٠٩٦).

(٢) رواه مسلم في كتاب الفتن، باب: لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى =

ومما أخبر به النبيّ عليه الصلاة والسلام عن المدينة ما رواه مسلمٌ: «**يخرُج راعيان مِن مزينة يريدان المدينة، ينعقان بغنمهما، فيجدانها وحشاً، حتى إذا بلَغا ثنيّةَ الوداع خرَّا على وجوهِهما**»(١).

وهذا يكون قبيل قيام الساعة.

والمقصود بقوله: «**يجدانها وحشاً**» أي: يجدانِ المدينةَ خلاءً من أهلها، متوحشةً مقفرةً.

وقد ذهب ابن المرابط إلى أن الغنم نفسها تصير وحوشاً، إما بأن تنقلب ذواتُها إلى وحوشٍ، أو أن تصبحَ متوحشةً نافرةً منهما، وهذا القول غلطٌ كما قال النووي رحمه الله.

ولاحظ أنّ هذه الأمور تحدثُ فجأة والناس يمارسون حياتهم الطبيعيّة.

بل الساعة نفسها تفجؤ الناس! وقد ذكرت الأحاديث أن الساعة تُعجِلُ الناسَ فإذا بالرجلين يتبايعان الثوب فلا يتمان البيعة! وإذا بالرجل يرفع الماء يريد أن يشربَ فتسبقُهُ القيامةُ فلا يشربُ!

وكل هذه التغيرات العجيبة التي تحصل للمدينة وغيرها ينبغي أن يكون فيها عظةٌ وعبرةٌ للمتأمل، عظةٌ تحمله على مراجعة نفسه وتقويم حاله وتحسين صلته بربه، قبل أن يفجأه ما لا قبل له برده فيندم ولات حين مندم!

❋ ❋ ❋

= أن يكون مكان الميت من البلاء (٢٩٢٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) رواه البخاري في فضائل المدينة، باب: من رغب عن المدينة (١٧٧٥)، ومسلم في كتاب الحج، باب: في المدينة حين يتركها أهلها (١٣٨٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

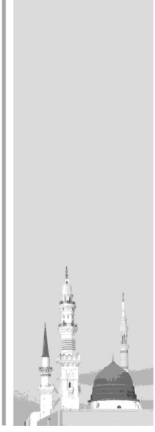

الأحداث الختامية في المجتمع النبوي (٢)

ها نحن في سياقات ختام تاريخ المدينة المنورة..

يُقبل المسيح الدجال في لحظات الختام على المدينة المنوّرة، ولكنّ الملائكة تحرسُها فلا يستطيع دخولها، فترجُفُ المدينة ثلاث رجفاتٍ فلا يبقى فيها منافقٌ إلا خرج، فيكونون مع الدجال، ويهوَّلُ الدجّال عليهم بما آتاه الله من القدرةِ: «**فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت، فتروح عليهم سارِحتُهم أطولَ ما كانت ذرا وأسبغه ضروعاً وأمدّه خواصر، ثم يأتي القومَ فيدعوهم فيردّون عليه قوله، فينصرف عنهم فيصبِحون ممحلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم، ويمرّ بالخربة فيقول لها: أخرجي كنوزك فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل**»[(١)].

وحينئذٍ يُقبِل عليه شابّ من أهل المدينة ممتلئ إيمانا ويقيناً وعِلماً وصلاحاً وصفه النبيّ ﷺ بأنّه: «**هو خير الناس**»[(٢)]، يعرفُ هذا الشابُّ المسيح الدجال بالعلامة التي أخبر بها النبيّ ﷺ، وهي أنه مكتوب على جبينه (ك ف ر) يعني: كافر، فيبرز إليه ويتحدّاه، ويخبر الناس بكذب

---

(١) رواه مسلم في كتاب الفتن، باب: ذكر الدجال وصفته وما معه (٢٩٣٧) عن النواس بن سمعان رضي الله عنه.

(٢) رواه عبد الرزاق في المصنف (١١/ ٣٩٣) من طريق عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

دعواه الإلهية، فيقول الدجّال مستهزِئاً: أرَأيتم إن قتلته فأحييتُهُ أتؤمنون بي؟ فيأمُر به المسيح فيُشَقّ نِصفَين، فيمرّ المسيح بين شقَّيه، ثم يعيده مرّة أخرى لحياته فيحيَا من جديد!

فلا يزداد الشاب إلا إيماناً ويقيناً، ويقول: ربِّيَ الله، وأنت عدوُّ الله، أنت الدجال، لأنا الآن أشدُّ فيك بصيرةً من قبل، ثم ينادي في الناس: ألا إنَّ هذا المسيحُ الكذاب، فمن أطاعه فهو في النّار، ومن عصاه فهو في الجنة، فيقول الدجال: والذي أحلف به، لتطيعَنّي أو لأذبحنَّك أو لألقينَّك في النار، فيقول له المؤمن: والله، لا أطيعك أبداً، فيأمر به فيُضجَع، وقد جعل الله صفيحتين من نحاس بين تراقيه ورقبته، فيذهب الدجالُ ليذبَحه فلا يستطيع!

فيأخذ بيديه ورجليه فيلقيه في الجنة وهي غبراء ذات دخان يحسبها النار(١).

وحينئذٍ يغادر الدجال إلى الشام، فيجتمع له المؤمنون هناك، وتحدث المعركة الفاصلة التي أخبر عنها النبيّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

وهكذا تبدأ الأحداث في التسارع لأنَّ أشراط الساعة كحبات السبحة، إذا سقطت الأولى لحقتها الأخريات.

هذه هي أخبار المدينة، وهذه هي نهايتها، بداية مُشرِقة بقدوم النبي ﷺ وتنويرها بنورِه الكريمِ عليه الصلاة والسلام واستقبال الأنصار وامتزاج الأرواح وإنشاء المجتمع النبويّ الذي كان مجتمعاً راشداً

(١) رواه عبد بن حميد في مسنده (٨٩٧)، والحاكم في المستدرك (٨٦٢١) من طريق عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

صالحا، امتدَّ خيره إلى آفاق الدّنيا كلِّها، امتدَّ النور وامتدَّ العدل وامتدَّت البهجة وامتدَّت الخيرات في أراضي العالم كلِّه مِن عدلِ النبي ﷺ وهدايَتِه للناسِ وما أمدَّهم به مِن منهجٍ نبويّ راقٍ عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام.

هذه المدينة العظيمة علينا حقوقٌ تجاهها، حقوق لأهلها، وحقوق لذات المدينة التي نوَّرها النبي ﷺ.

من حقوق المدينة احترامُ هذا المكان الذي يوجد فيه الرسول ﷺ، وتوجد فيه قبور الصحابة الكرام، وتوجد فيه الآثار كجبَل أحد والمساجد التي زارها النبي ﷺ.

ولذلك نهى النبيّ ﷺ عن هَدم آطام المدينة أي: حصونها؛ لتبقى آثار المدينة وأماكنها التاريخية ذكرى وفخراً.

ومن حقوق المدينة علينا المبادَرَةُ إلى العمل الصالح والاقتداء بسِيَر صحابتها رضوان الله تعالى عليهم وأرضاهم.

ومن حقوقها علينا استطابةُ العيش فيها على كل حالٍ، ولاسيما لمن كان من أهلها، فإذا جاء وقتُ الحرّ أو البرد فلا ينبغي التذمر، وإذا حصلت مضايقةٌ ما فينبغي الصبر؛ لأنّ النبي ﷺ قال: «**من صبر على لأواء المدينةِ وشدَّتِها كنتُ له شهيداً** ـ أو شفيعاً ـ **يوم القيامة**»[1]، فكلّ شيء فيه لأواء وشدّة عليهم أن يصبروا عليه ويحتسبوا ذلك عند الله سبحانه وتعالى، وسيَجدون شفاعة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام تقدُمهم.

---

(١) رواه مسلم في كتاب الحج، باب: الترغيب في سكن المدينة والصبر على لأوائها (١٣٧٧) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

ومن حقوق المدينة إكرام أهلها؛ لأنهم أوّل من يشفَع لهم النبيّ ﷺ، ولذلك يجب إجلال أهل المدينة، والإحسان إليهم، ومعرفة أقدارهم.

ومن حقوق المدينة على زائرها أن يعيش أجواء ذكرياتها، وأن تذكره كل زاوية منها بما جرى عليها من أخبار السيرة وحوادثها، كما جرى لبلال رضي الله عنه لما رجع إلى المدينة زمان عمر رضي الله عنه، فقد بكى بكاء شديداً لأن كل زاويةٍ من المسجد كانت تذكره بحياته مع المصطفى ﷺ.

وقد كان مالك بن أنس لا يمشي في المدينةِ بحذائه، إنما يمشي حافياً، يقول: «هنا وطئت قدمَا النبي ﷺ»، فيجِلّ هذه الأرض لمكان رسول الله ﷺ منها.

ومن حقوق المدينة أن تذكرنا دائما بلحظة البناء، بناء المصطفى ﷺ لهذه الأمة العظيمة. لقد كانت الهجرة النبوية إلى المدينةِ مشرقَ الدولة الإسلامية، وكانت مبتدأ مسيرةِ العزة والتمكين لهذا الدين، تاريخنا بدأ من هناك.. من تلك الأرض الشريفة.. منذ اللحظة التي ضُربَت فيها الدفوف فرحاً بمقدم النبيّ ﷺ. هذه اللحظة كانت لحظة فرحٍ، وبناء، وعطاء، وإخاء، ووفاء. ومن حق المدينة علينا أن نتعلم منها هذه المعاني الكريمة، وأن نعرف تاريخنا الحقّ، وهويتنا، ورسالتنا، كما أرادتها لنا المدينة لا كما يريدها لنا اليومَ الشرقُ أو الغرب.

إنها المدينة وكفى..

حيث يرقدُ أشرفُ جسد، ويسكنُ أكرمُ نبيّ ﷺ.

إنها المدينة وكفى..

حيث لا يملك مسلم إلا أن يحنَّ إليها فيزورها، ثم إذا ودعها بكى وتذكر قول الشاعر:

بان الرسولُ وبانت عنك طِيبته إن الأحبّةَ والأوطان أعداء

❁ ❁ ❁

الفهرس

إهداء ٥
المقدمة ٧
أضواء تاريخية وجغرافية ٩
معالم النهوض في المجتمع النبوي (١) ١٥
معالم النهوض في المجتمع النبوي (٢) ٢٤
جولة إيمانية مع فضائل المدينة النبوية ٣٣
الابتهاج في المجتمع النبوي ٤١
قصص الحب في المجتمع النبوي ٥٠
أداء الفرائض في المجتمع النبوي ٥٨
بيوت الناس في المجتمع النبوي ٦٥
الحياة الزوجية في المجتمع النبوي ٧١
بشرية الأخطاء في المجتمع النبوي ٨٠
خيرية الناس في المجتمع النبوي ٨٥
الأحوال الاجتماعية في المجتمع النبوي ٩٤
فقه التدين في المجتمع النبوي ١٠٠
سمو الأخلاق في المجتمع النبوي ١٠٧
حقوق الإنسان والحيوان في المجتمع النبوي ١١٣
الحياة الإنسانية في المجتمع النبوي ١١٩

سياسة النصيحة في المجتمع النبوي ١٢٦
دور التربية في المجتمع النبوي ١٣٠
الترابط الأسري في المجتمع النبوي ١٣٦
الفاقة والحاجة في المجتمع النبوي ١٤٢
إشاعة النبل والوفاء في المجتمع النبوي ١٤٩
علم الاجتماع والسياسة في المجتمع النبوي ١٥٤
مظاهر التدين في المجتمع النبوي ١٦٢
الحياة الطبيعية في المجتمع النبوي ١٦٧
المداراة الدعوية في المجتمع النبوي ١٧٣
المال والتجارة في المجتمع النبوي ١٧٧
المواقف الجهادية في المجتمع النبوي ١٨٥
البرامج التنموية في المجتمع النبوي ١٩٠
الأحداث الختامية في المجتمع النبوي (١) ١٩٦
الأحداث الختامية في المجتمع النبوي (٢) ٢٠٠
الفهرس ٢٠٥